يـوزع مجانـاً

هجرة صحفي أوروبي
إلى جزيرة العرب

تهـذيب

سيرة (ليوبولد فايس)

من أصل يـهودي نمساوي

تهذيب

سعد بن عبد الرحمن الحصيِّن

الطبعة الأولى للمهذّب

عام ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

ظمأ

-١-

كنا نقطع الفيافي، أنا ودليلي في صحراء جزيرة العرب على راحلتين، الشمس تضطرم فوق رأسينا، وتغمر كل شيء بضيائها الساطع المحرق. رواب وكثبان حمراء، وحدة وصمت، ورجلان على راحلتيهما في مشيتهما المتأرجحة التي تجلب لك النعاس بحيث تنسى النهار والشمس والسَّموم والطريق الطويل. باقات من العشب الأصفر تنمو غير مزدحمة على قمم الكثبان، وهنا وهنالك شجيرات من العشب المسمى بالحمض تتلوى فوق الرمال كالأفاعي، وإنّك لتستسلم إلى النعاس، بسبب اهتزازك في رَحْلك، ولأنَّك لا تكاد تسمع أيّ شيء غير حفيف الرمال تحت أخفاف المطيتين واحتكاك مقدمة الرّحل بركبتك، وإن وجهك ملفوف بعمامتك لحمايته من الشمس والريح، وإنك لتشعر كأنما تحمل وحدتك إلى «هدّاج تيماء»، إلى مياه تيماء الغزيرة التي لا تنضب.

«عبر النفود إلى تيماء». لقد سمعت صوتاً لم أعرف ما إذا كان هاتفاً في الحلم، أو صوتاً صادراً عن رفيقي.

– «هل قلت شيئاً يا زيد»؟. أجاب رفيقي: «لقد كنت أقول إنه لا يخاطر كثيرون بعبور النفود لرؤية آبار تيماء».

لقد كنا، زيد وأنا، عائدين من قصر عثيمين على الحدود السّعودية العراقية حيث كنت في مهمّة للملك ابن سعود، وبعد أن أنجزت مهمتي وجدت أن لديّ متسعاً من الوقت، فقررت أن أزور واحة تيماء النائية الضاربة في القدم، على نحو مئتي ميل إلى الجنوب الغربي؛ تيماء التي ورد ذكرها في التوراة بأنه قال عنها أشعيا: «لقد كان سكان أرض تيماء يجلبون الماء إلى كل من به ظمأ». إن غزارة المياه في تيماء، وآبارها العظيمة التي لا مثيل لها في جزيرة العرب كلها، جعلتها في أيام

الجاهلية مركزاً عظيماً للتجارة وللثقافة العربية القديمة. لقد طالما رغبت في رؤيتها، ولهذا تركنا طرق القوافل المعروفة واتجهنا رأساً من قصر عثيمين إلى تيماء عبر صحراء النفوذ الكبرى، تلك الصحراء من الرمال الحمراء المنبسطة بقوة وجبروت بين بادية نجد وبادية الشام. في هذا الجزء من ذلك القفر العظيم لا تقع العين على درب أو طريق، فالريح لا تترك أيّ أثر في الرمال الناعمة اللدنة، ولا تدع أيّ معلم ينتصب طويلاً لهداية المرتحلين عبر الصحراء، وتحت ضرباتها تُبدِّل الكثبان من معالمها، وتُغيِّر من أشكالها ببطء كبير لا يتيح للعين أن تلحظ كيف تنخفض التلال فتصبح أودية وترتفع من جديد تلالاً منقطة بالعشب اليابس الميت، والمر المذاق حتى في فم البعير.

وبالرغم من أنني عبرت هذه الصحراء مرات كثيرة وفي وجهات عديدة، فلست أثق بقدرتي على أن لا أضلّ طريقي فيها إذا ما حاولت عبورها دون معونة الدليل، ولهذا وجدتني مسروراً لوجود زيد معي. هذه البلاد هي موطنه وهو ينتمي إلى قبيلة شمر التي تعيش في جنوبي صحراء النفود، وعندما تهطل أمطار الشتاء الغزيرة وتحول الكثبان الرملية فجأة إلى مروج خصيبة، يرعون إبلهم في وسطها بضعة أشهر من السنة. إن حياة الصحراء هي في دم زيد، وإن قلبه ليخفق بها.

ولعل زيداً أظرف رجل رأيته في حياتي، عريض الجبهة، دقيق الجسم، معتدل القامة، يفور قوة ونشاطاً؛ وعلى ملامح وجهه الصّبوح يتبدى التحفّز المعهود في عرب الصحراء؛ مزيج من الهيبة والاعتداد والعذوبة. إنه تركيب متناسق من البداوة النقية والحضارة النجدية، احتفظ من البدو بسلامة الفطرة دون تقلباتها العاطفية، ومن حياة المدينة بالمعرفة العلمية دون استسلام إلى مغرياتها. وزيد مثلي أنا، يحب المغامرات دون أن يسعى إليها، ومنذ فجر شبابه امتلأت حياته بالحوادث المثيرة، فقد التحق في صباه بفرقة الهجانة غير النظامية التي جندتها الحكومة التركية لحملتها في شبه جزيرة سيناء إبان الحرب العظمى، ثم أصبح مهرِّباً للسلاح في الخليج العربي الفارسي، وفي الوقت نفسه تعلق قلبه بنساء كثيرات، تزوجهن شرعاً واحدة بعد أخرى، وطلقهن شرعاً كذلك. ثم اتخذ تجارة الخيل مهنة له في مصر، وعمل جندياً مرتزقاً في العراق،

وأخيراً أصبح رفيقاً لي في تجوالي في جزيرة العرب طيلة خمس سنوات على وجه التقريب.

كنا - في أواخر صيف عام ١٩٣٢ - نركب معاً كما فعلنا كثيراً في الماضي، يلفنا الطريق الموحش بين الروابي، متوقفين عند هذه أو تلك من الآبار المتباعدة، وآخذين قسطاً من الراحة ليلاً تحت النجوم. وتتوالى أصوات أخفاف الذلولين فوق الرمال الحارة، بينما يرتفع صوت زيد الأجش، أحياناً، متناغماً مع وطئهما. يغشانا الليل، فنتوقف عن المسير ونحتسي القهوة ونطبخ الأرز وما نصطاد أحياناً من الحيوان. وكان الهواء الناعم البارد يلامس أجسامنا ونحن مضطجعون على الرمال، وكان بزوغ الشمس فوق الكثبان أحمر عنيفاً كالألعاب النارية، وأحياناً -كما هو الحال اليوم- تستيقظ معجزة الحياة في نبتة ارتوت دون قصد؛ فلقد توقفنا لأداء صلاة الظهر، وبينما كنت أغسل يديّ ووجهي وقدميّ من القربة، سقطت بضع قطرات من الماء فوق خصلة من العشب اليابس عند قدمي. لقد كانت هذه الخصلة من العشب صغيرة صفراء ذابلة لا ترجى لها حياة تحت أشعة الشمس المحرقة. ولكن ما إن سال الماء عليها حتى سَرَتْ قشعريرة في أوراقها المتغضنة، ورأيت بأم عيني كيف أخذت هذه الأوراق ترتجف وتتفتح، ثم تنتصب مترددة مرتعشة. وحبست أنفاسي بينما أخذت أُسِيْلُ قطرات أخرى من الماء فوق خصلة العشب، فبدأت تتحرك بسرعة أكبر وقوة أكثر، تبعثها إرادة الله من مماتها. لقد شرعت أوراقها -ويا له من مشهد- تتمدد، وعادت الحياة منتصرة إلى ما كان منذ لحظة بلا حياة. عادت إليها الحياة بشغف وانفعال.

الحياة بجلالها وعظمتها؛ إنك لتحسها دائماً في الصحراء. وإذ كان من الصعب جداً الاحتفاظ بها هناك، فهي بمثابة الهبة أبداً، عزيزة دائماً، كالكنز الثمين، تفجؤك وتأخذك على حين غرّة. وهكذا الصحراء دائماً؛ تحيّرك وتدهشك، وتقع عيناك فيها على جديد ولو كنت قد خبرتها سنين طويلة؛ تفجؤك فيبدو لك العشب اللدن الأخضر فيما كان بالأمس رمالاً وشظايا أحجار. وتفجؤك كرة أخرى، فإذا بسرب من الطيور الصغيرة ترفرف بأجنحتها في الهواء لا تدري من أين أتت ولا إلى أين تذهب.

هذه المخلوقات الدقيقة الجسم، الطويلة الجناح، الزمردية اللون، وتفجؤك كرة أخرى كذلك، فإذا بعاصفة من الجراد تصعد وتندفع، كالحة شهباء لا نهاية لها كحشد من المحاربين الجياع. إنها الحياة بجلالها وعظمتها؛ جلال الاتساع والامتداد، وعظمة المفاجأة. وهنا في هذه الصحراء يفوح شذا بلاد العرب وأريجها، وتظهر روعة التحوّل من حال إلى حال.

وإن عينيك لتقعان أحياناً على أرض سوداء وعرة غير مستوية، وأحياناً أخرى على رواب لا نهاية لها، وقد يطالعك واد بين تلال صخرية، تغطيه شجيرات يقفز منها على حين غرة أرنب مذعور معترضاً طريقك، كما تطالعك أحياناً رمال مسترخية سائبة تبدو فوقها آثار الغزلان، أو أحجار سوداء طَبَخ عليها مرتحلون طعامهم في أيام غابرة، وقد تصادف أحياناً أخرى قرية تحت أشجار النخيل، وتسمع أصوات البَكرات الخشبية فوق الآبار تنشد لك دونما انقطاع، أو تشاهد بئراً في قلب واد يلغط حوله الرعاة البدو إذ يسقون أنعامهم العطاش، وهم يغنون معاً بينما هم يسحبون المياه من قعر البئر في دلاء جلدية ويفرغونها بقوة في أوعية جلدية كذلك، فتبتهج لمرآها الحيوانات المهتاجة. ثم تطالعك الوحدة من جديد في سهول فسيحة تحرقها شمس ملتهبة دونما رحمة أو شفقة، أو بقع من العشب اليابس الأصفر والغياض المورقة التي تدب على الأرض بأغصانها الملتوية، أو شجرة طَلْح منفردة تبسط أغصانها تحت السماء ذات اللون الفولاذي الأزرق. وقد ترى بين الركام والأحجار عينين تنطلقان ذات اليمين وذات الشمال ثم تختفيان كما يختفي الشبح، فتعرف أنه الضّبّ الذي يقولون إنّه لا يَشرب الماء أبداً. ثم تمشي لتقع عيناك على بيوت شعر سوداء منصوبة في غور من الأغوار، وقطيع من الإبل يسوقه الرعاة تسمع نداءهم وحداءهم ثم يبتلع السكون أصواتهم فلا يرجّع لها صدى.

وقد ترى أحياناً أطيافاً براقة في الأفق فتسائل نفسك: أهذه غيوم؟ إنها تسبح على علو منخفض، وتبدل كثيراً من ألوانها وأوضاعها، فهي تارة كالجبال الشهباء الداكنة وهي طوراً تشبه -ويا لروعة المشهد- غياضاً ظليلة من الأشجار. حتى إذا ما أمعنَتْ في انخفاضها وانقلبَتْ إلى بحيرات وأنهار جارية تعكس مياهها الجذابة

الشهية الجبال والأشجار عرفتها على حقيقتها؛ إنها السّراب الذي طالما قاد التائهين إلى الأمل الكاذب فالهلاك، عندئذ تمتد يدك بغير إرادة منك إلى القِربْة المدلاّة من رَحْلِك.

وتمر بك ليال مليئة بضروب أخرى من الأخطار عندما تكون القبائل في فتنة حربية، ويتجنب المسافر إشعال النار ليلاً لئلا يُرى من بعيد، بل يجلس مستيقظاً الساعات الطوال واضعاً سلاحه بين ركبتيه. وفي أيام السلم بعد أن تسير وحيداً أياماً متطاولة إذا بك تلقى قافلة، وتصغي في المساء حول النار إلى حديث الرجال الوقورين الذين لفحت وجوههم الشمس؛ إنهم يتحدثون عن كبائر الحياة وصغائرها، عن الموت والحياة، عن الجوع والشبع، عن الفخر والحب والكراهية، عن شهوة الجسد وفتورها، عن الحروب، عن غياض النخيل في قراهم البعيدة، ولكنك لا تسمع مطلقاً أيما ثرثرة فارغة، لأن المرء لا يستطيع أن يثرثر في الصحراء.

وإنك لتحس نداء الحياة في أيام العطش، عندما يلتصق لسانك بسقف حلقك كقطعة من الحطب اليابس، ولا تظهر في الأفق علامة من علامات الخلاص، بل ريح سموم عاتية ورمال تدور في الجو. ومع ذلك ففي أيام أخرى عندما تحل ضيفاً على البدو في بيوتهم المنسوجة من الشَّعر، ويأتيك القوم بأوعية مليئة باللبن، لبن النياق السمينة في مطلع الربيع، عندما تنقلب السهول والكثبان إلى رياحين خضراء وتصبح النياق ثقيلة مستدرة، تستطيع أن تسمع من إحدى زوايا البيت ضحكات النساء وهن يشوين خروفاً فوق نار مكشوفة لضيافتك.

ثم تختفي الشمس وراء التلال، وتبدو السماء ذات النجوم أعلى منها في أي مكان آخر من الأرض. وإنك لتنام في الليل نوماً عميقاً لا تتخلله الأحلام، لتستيقظ في الصباح على فجر بارد رطب. أما ليالي الشتاء فباردة، والريح القارسة تهب فيها على النار التي تزدحم حولها أنت ورفاقك طلباً للدفء.

وأما أيام الصيف فلاذعة عندما تسير وتسير على ذلولك ساعات وساعات لا نهاية لها، لافّاً وجهك بعمامتك لحمايته من الريح الكاوية.

وانقضى الأصيل شيئاً فشيئاً، بينما أكملنا مسيرنا عبر الروابي والكثبان، يلفنا الهدوء والوحدة.

بيد أن الوحدة ما لبثت أن تشتّتت بعد قليل، عندما مررنا في طريقنا بركب من البدو، أربعة رجال أو خمسة وامرأتان فوق هجانهم، ومعهم جمل يحمل بيت شعر مطوِيّاً وعدداً من القدور والأواني والأدوات التي تتطلبها حياة البداوة، يعلوها جميعاً طفلان صغيران. وإذ اقترب الركب منا جذبوا أعنة ركابهم وحيّونا قائلين:

– «السلام عليكم».

فأجبنا:

– «وعليكم السلام ورحمة الله».

– «إلى أين، أيُّها الرَّكْب»؟.

– «إلى تيماء، إن شاء الله».

– «ومن أين»؟.

– «من قصر عثيمين، أيها الإخوان».

ساد الصّمت من جديد. وتفحصتُ القوم فوجدت بينهم رجلاً كهلاً ناحل الجسم دقيق الوجه أسود اللحية، اتضح لي أنه شيخهم. لقد ألقى على مرافقي زيد نظرة حادة استقرت من ثمّ عليّ، مفصحة عما كان يخامره من شك وريبة، عليّ أنا الغريب ذي البشرة البيضاء الذي ظهر له فجأة في هذا القفر الموحش الوعر، الغريب الذي يدّعي بأنه قادم من جهة العراق الواقعة تحت سيطرة الإنكليز، ويمكن أن يكون –استطعت أن أقرأ ذلك في وجهه– كافراً يدخل بلاد العرب خلسة. وأخَذَت يد الرجل الشيخ تتلمّس مقبض رَحْله كأنما وقع في حيرة بينما تحلّق قومه حولنا واعتصموا بالصمت، منتظرين أن يبدأ هو الكلام. وبدأ الشيخ وكأنه لم يطق أن يصمت أطول مما فعل، فابتدرني بالسؤال:

- «من أيّ العرب أنت»؟. ولم أكد أهم بالجواب، حتى أنفرجت أساريره وابتسم ابتسامة من عادت إليه ذاكرته:

- «هاه، الآن عرفتك؛ لقد رأيتك مع عبد العزيز، ولكن هذا كان منذ زمن طويل، منذ أربع سنوات».

ومدّ إليّ يده مرحباً، ذاكراً يوم كنت أعيش في القصر الملكي في الرياض، وكيف أنه وصل إلى هناك في بطانة شيخ من شيوخ شمر ليقدّموا ولاء القبيلة لابن سعود الذي يناديه البدو دائماً باسمه الأول عبد العزيز، مجرداً عن أي لقب أو كنية، لأنهم -في إنسانيتهم الحرة- لا يرون في الملك إلا إنساناً من الناس، واجبٌ تكريمه من غير شك، ولكن في حدود الإنسان وبشريّته.

ثم أخذنا في استعادة الماضي حيناً من الوقت، ذاكرين هذا أو ذاك من الرجال، متبادلين رواية القصص عن الرياض التي يتلقى فيها كل يوم مئات من الأضياف ضيافة الملك وإكرامه، ويتسلمون عند ذهابهم الهدايا التي تختلف حسب منزلة كلّ منهم، من قبضة من النقود الفضية، إلى عباءة، إلى أكياس أو أسياف من الذهب، إلى الجياد أو الهجان التي كثيراً ما يوزعها على الزعماء منهم.

ولكن كرم الملك وجوده لا يقتصران على الذهب والفضة والأنعام بل يتعديانها إلى عاطفة القلب. ولعل رقة شعوره -أكثر من أي شيء آخر- هي التي تجعل الناس من حوله -وأنا منهم- يحبونه. لقد كانت صداقة ابن سعود لي، طيلة السنوات التي قضيتها في جزيرة العرب لا تزال تنير جوانب حياتي كلّها.

إنه يدعوني صديقه، بالرغم من أنه ملك وأني مجرد كاتب أو مراسل في الصّحف. وأنا بدوري أدعوه صديقي، لا لمجرد أنه قد غمرني بصداقته طيلة السنين التي عشتها في مملكته، فهو يغمر بصداقته ووده كثيراً من الناس، إنني أدعوه صديقي لأنه كثيراً ما يفتح لي قلبه ويكاشفني بمكنوناته تماماً كما يفتح كيس نقوده لكثيرين غيري. إنني أحب أن أدعوه صديقي لأنه -بالرغم من اختلافي معه أحياناً- رجل طيب إلى أبعد الحدود، ولكنه ليس طيب القلب

فحسب، إنه في صميمه رجل شريف حُرّ، يسلك دائماً الطريق التي يرسمها لنفسه.

لقيت الملك عبد العزيز بن سعود أوّل مرة في مكة في أوائل عام ١٩٢٧، بعد أشهر قليلة من اعتناقي الإسلام. وكانت وفاة زوجتي التي صحبتني في رحلتي الأولى هذه إلى مكة قد أحزنتني جداً وجعلتني أؤثر العزلة والابتعاد عن الناس. وكنت أتمنّى أن أجد لي مخرجاً من ذلك الغم القاتل، ولكني كنت أقضي معظم وقتي في حجرتي، لا أتصل إلا بعدد قليل من الناس، حتى أنني أحجمت طيلة أسابيع عديدة عن زيارة الملك، تلك الزيارة التي كانت تقتضيها اللياقة. وفي ذات يوم علمت أن الملك قد أمر بوضع اسمي على لائحة ضيوفه. لقد بدا لي أنه عرف السبب في احتجابي، وأنه ارتضاه بتفهم صامت. وهكذا -وأنا ضيف لم يَرَ بَعْدُ لمضيفه وجهاً قط- انتقلت إلى بيت جميل في الطرف الجنوبي من مكة، قرب المضيق الصخري الذي تمر به الطريق إلى اليمن. وكان البيت يطل على جزء كبير من المدينة، مآذن المسجد الحرام، وآلاف البيوت ذات الآجر الملوّن، وتلال الصحراء الرّمادية التي ترتفع فوقها قبة السماء الساطعة.

وقد كنت أستطيع أن أستمر في تأجيل زيارتي للملك لولا أن جمعتني الصدفة [المقدَّرة] مرة بالأمير فيصل -النجل الثاني للملك- في مكتبة المسجد الحرام. لقد كان من الأمور الباعثة على سروري أن أجلس في تلك الحجرة الضيقة الطويلة التي تحيط بها الكتب العربية والفارسية والتركية، وكان هدوؤها وظلمتها يملآن نفسي سكينة وسلاماً. بيد أن هذا الهدوء المعتاد ما لبث أن عكّره اليوم دخول جماعة من الرجال يتقدمهم حرس مسلّح؛ لقد كان الأمير فيصل ماراً مع حاشيته بالمكتبة في طريقه إلى الكعبة. كان فارع الطول دقيق البنية، يتمتع بمقام عظيم لا يتّفق مع سنّه البالغة اثنين وعشرين عاماً. ووجهه الأملد، ذلك بأنه -بالرغم من صغر سنه- قد عُهد إليه بمنصب عظيم نائباً لأبيه الملك في الحجاز، وذلك بعد أن وَلِيَه أبوه قبل ذلك بعامين اثنين (وكان أخوه الأكبر ولي العهد الأمير سعود نائب الملك في نجد، بينما كان الملك نفسه يقضي نصف السنة في مكة، والنصف الآخر في الرياض).

وقد تولى تقديمي إلى الأمير فيصل أمين المكتبة الشاب الذي مضى على صداقتي له بعض الوقت. وقد صافحني الأمير، وعندما انحنيت له رفع رأسي برفق بأصابعه، وأضاءت ثغره ابتسامة حلوة، وقال:

– «نحن النجديين لا نجيز للإنسان أن ينحني للإنسان، بل لله وحده في الصلاة».

لقد بدا لي الأمير لطيفاً حالماً، ومتحفظاً خجولاً بعض الشيء، وهذا ما تأكد لي في السنوات التي انقضت بعد ذلك على معرفتي به. كذلك كان لا يصطنع النُّبل اصطناعاً، بل كان النبل من طبيعته وسجاياه. وعندما كنا نتحدث معاً في ذلك اليوم في المكتبة، شعرت فجأة برغبة ملحّة في أن ألقى والد هذا الرّجل.

قال لي الأمير فيصل: «إن الملك لَيُسَرُّ برؤيتك، فلماذا لا تزوره»؟.

وهكذا بعث إليّ الأمير في اليوم التالي بكاتبه، وأقلّني بالسيارة إلى قصر الملك. لقد مررنا بسوق المدّعى، وشققنا طريقنا ببطء وسط حشد من الجمال الهادرة، والبدو والباعة يعرضون مختلف البضائع البدوية –الثياب والرّحال، وقطع السجاد، وزقاق الماء، والسيوف المرصعة بالذهب والفضة، والخيام، وأباريق القهوة النحاسية– ثم انتهينا إلى طريق أكثر هدوءاً واتساعاً وصلنا منه إلى البيت الكبير الذي كان يسكنه الملك، فرأيت المطايا تملأ الساحة أمامه، وعدداً من الحرس والأتباع عند المدخل. وقد دُعيت إلى الانتظار في غرفة فسيحة مزدانة بالأعمدة قد فرشت أرضها بالسجاد البسيط وصفّت على جوانبها الأرائك العريضة المغطاة بقماش رمادي. ومن نوافذ هذه الغرفة أمكنني أن أرى بضع وريقات خضر نبتت حديثاً في حديقة كانوا يجدون صعوبة كبرى في إبقائها حية في أرض مكة القاحلة المجدبة. وبعد قليل أطلّ رجل ووجّه إليّ الخطاب قائلاً: «إن الملك يدعوك».

ودخلت إلى غرفة تشبه تلك التي غادرتها، إلا أنّها كانت أصغر حجماً وأكثر ضوءاً، تُطلُّ إحدى نوافذها علي الحديقة كلها. كانت أرض الغرفة مغطاة بالسجاد العجمي الفاخر، وكان الملك جالساً القرفصاء على أريكة في زاوية تُشرف على

الحديقة، وعلى الأرض جلس أحد كتّابه يكتب ما يملي عليه. وما إن دخلت حتى انتصب الملك واقفاً، ومد إليّ كلتا يديه قائلاً: «أهلاً وسهلاً».

ووقفت لحظة واحدة أتفرّس بدهش في طول ابن سعود الفارع؛ فعندما قبّلت مُقدّمة أنفه وجبهته قبلة خفيفة -ذلك بأني كنت قد عرفت هذه العادة النجدية-، كان عليّ أن أقف على رؤوس أصابعي، بالرغم من أن طولي يبلغ ستة أقدام، كما كان عليه أن يحني رأسه بعض الشيء. وبعد أن أومأ إيماءة اعتذارية باتجاه الكاتب، جلس وأجلسني إلى جانبه على الأريكة قائلاً: «لحظة واحدة، أكاد أفرغ من إملاء الكتاب».

وبينما كان الملك يتابع بهدوء الإملاء على الكاتب، أخذ في الحديث معي دون أن يخلط بين الإملاء والحديث. وبعد أن تبادلنا قليلاً من العبارات التي تقتضيها اللياقة، ناولته كتاباً لتعريفه بشخصي فقرأه، وهذا يعني أنه كان يؤدي أعمالاً ثلاثة في وقت واحد. ثم أمر بالقهوة دون أن يتوقف عن الإملاء أو الاستفسار عن صحتي.

وقد تمكنت خلال ذلك أن أتفرس فيه عن كثب وبانتباه أكبر، فتبين لي أنه متناسب الجسم بحيث أن طوله الهائل -وهو لا يقل عن مترين- لا يَبِيْن إلا متى وقف. وكان وجهه ينم -بصورة أخّاذة- عن رجولة وشجاعة كاملتين، ورأسه مغطّى بالعمامة التقليدية ذات المربعات الصغيرة الحمراء والبيضاء، يعلوها عقال مقصّب. وكانت لحيته دقيقة وشارباه قصيرين على النمط النجدي، أما جبهته فقد كانت عريضة وأنفه قوياً. وكانت قسماته تشرق بالبهجة عندما يتكلم، في حين كان شيء من الحزن يبدو على وجهه عندما يعتصم بالصمت.

وبعد هذا اللقاء الأول، كان الملك يرسل في طلبي كل يوم تقريباً، وفي صباح يوم ذهبت إليه وكان في نيتي أن أستأذنه -دون أن أؤمل كثيراً بأن رجائي سيستجاب- في السفر إلى داخلية البلاد. ذلك أن ابن سعود لم يكن -عموماً- يسمح للأجانب بزيارة نجد في ذلك الحين. إلا أنني ما إن هممت باستئذانه، حتى ألقى الملك -فجأة- نظرة قصيرة حادّة باتجاهي، نظرة خِلْت أنها نفذت إلى أفكاري التي لم أفصح عنها بعد، ثم ابتسم وقال:

– «يا محمد، ألا تأتي معنا إلى نجد فتمكث بضعة أشهر في الرياض»؟.

والحق أنني لم أعرف بماذا أجيب، كما استولى الدهش على من كان في حضرة الملك، ذلك أنهم لم يسمعوه من قبل يوجّه مثل هذه الدّعوة من تلقاء نفسه إلى رجل أجنبي. ولكني وإن كنت أجنبيّ الدار فإني أخ في الدين.

وأردف الملك قائلاً: «أُحِبُّ أن تسافر بالسيارة معي في الشهر القادم».

وأجبت: «أطال الله في عمرك أيها الإمام، ولكن أية فائدة لي من ذلك؟ ما يجديني أن أقطع المسافة من مكة إلى الرياض في خمسة أيام أو ستّة، دون أن أرى شيئاً من بلادك غير الكثبان الرملية ولربما بعض الناس يتبدون لي كالأطياف في الأفق. فإذا لم يكن لديك ما يمنع، فإن ذلولاً واحداً يا طويل العمر لأفضل لي من السيارات جميعاً».

وضحك ابن سعود وقال: «أراغب أنت إلى هذا الحد في رؤية البدو؟ عليّ أن أنذرك مسبقاً بأنهم قوم متأخرون، وأن نجدي أرض صحراوية لا أثر فيها للفتنة أو الجمال، وأن الرّحل سيكون قاسياً وطعام الرحلة بسيط. ولكن لا بأس، فإذا كنت مرتاحاً إلى القيام بهذه الرحلة، فلك ما تريد. وعلى كل فإنّك لن تأسف على معرفتك لشعبي؛ إنهم فقراء غير مثقفين، ولكن قلوبهم عامرة بالإيمان».

وبعد بضعة أسابيع، زوّدني الملك بالرواحل والمؤونة، وبخيمة ودليل، وخرجت إلى الرياض سالكاً طريقاً غير مستقيم فوصلتها بعد شهرين. وكانت تلك أول رحلة قمت بها داخل بلاد العرب، رحلة تلتها رحلات، ذلك أن الأشهر القليلة التي أشار إليها الملك في حديثه قد امتدت إلى سنوات – ما كان أسرع انقضاءها – قضيتها في كل جزء من جزيرة العرب على وجه التقريب، ولم أعد أشعر بقسوة الرّحل من تحتي أبداً.

قال لي شيخ القوم الذين لقيناهم في الصحراء: «أطال ربي عمر عبد العزيز؛ إنه يحب البدو، والبدو يحبونه».

ولماذا لا يحب البدو عبد العزيز؟ إن كرم الملك نحو البدو قد أصبح ميزة بارزة لإدارته. ولعلها ليست بالميزة المستحبة، لأن الهبات والعطايا التي يوزعها ابن سعود

بانتظام على رؤساء القبائل واتباعهم قد جعلتهم يعتمدون على جوده وسخائه بحيث أنهم قد بدأوا يفقدون كل دافع لتحسين أحوال معيشتهم بجهودهم الخاصة.

وطوال حديثي مع الشيخ، كان زيد يبدو قلقاً جزعاً، وكان يثبت نظره عليّ مرة بعد أخرى أثناء انهماكه في الحديث مع أحد الرجال، كأنما يذكّرني بأن الطريق أمامنا طويلة، وأن الذكريات لا تجدي في قطع المفاوز. ولم نلبث أن افترقنا، فركب بدو شمر نحو الشرق، وسرعان ما حجبتهم عن أنظارنا كثبان الرمال، وبلغ مسامعنا صوت أحدهم يحدو بأغنية بدوية من تلك الأغنيات التي يحدوا بها الركبان الإبل ليحثوها على السير ويقضوا على رتابة السفر. وإذ استأنفت وزيداً سيرنا باتجاه تيماء، كان ذلك الصوت يتلاشى تدريجياً، وعاد الصمت يخيم من جديد.

-٣-

وقطع صوت زيد حبل السكون: «أنظر، إنه أرنب».

وأدرت بصري نحو تلك الحزمة من الفراء الأشهب التي قفزت من شجيرة كثّة، بينما انزلق زيد عن رحله، وقفز مسرعاً نحو الأرنب وهو يدير القوس التي كانت مدلاة على مقدمة الرّحل فوق رأسه ليقذفه بها، ولكنه لم يكد يفعل حتى تعثرت قدمه ببعض الجذور فوقع منبسطاً على وجهه، واختفى الأرنب عن ناظريه.

- «ها نحن نخسر عشاء طيباً» قلت له ضاحكاً بينما كان ينهض وهو ينظر بحسرة وحزن إلى القوس في يده: «لا عليك يا زيد، واضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا».

فأجابني وهو شارد الذهن نوعاً: «أجل، لم يكن لنا فيه نصيب».

ولاحظت أنه يعرج في مشيته متألماً فسألته:

- «هل أصبت بأذى يا زيد»؟.

- «هاه؟ ليس في الأمر ما يستحق الاهتمام، لقد لويت رسغي، ولكن الألم لا يلبث أن يزول بعد قليل».

ولكن الألم لم يزل، وبعد ساعة من الزمن كنت أرى قطرات العرق على وجه زيد . وعندما ألقيت نظرة على قدمه، ألفيت أن الرسغ كان مصاباً برضّة قوية، وأنه كان منتفخاً .

– «لا فائدة من الاستمرار يا زيد، دعنا نستريح هنا، فإن راحة ليلة واحدة لا بد أن تشفيك» .

واستبد الألم بزيد آناء الليل، واستيقظ قبل مطلع الفجر بوقت طويل، فأفقت أنا أيضاً من رقادي القلق على الصوت الذي أحدثته حركته المفاجئة .

قال زيد : «أرى ذلولاً واحداً فقط» .

وعندما أجلنا أنظارنا في الأرض المحيطة بنا، وجدنا أن ذلول زيد قد اختفى . فأراد زيد أن يأخذ مطيتي للبحث عنه، ولكن قدمه المصابة جعلت مجرّد الوقوف عسيراً عليه، فكيف يمشي إذن ويركب ويترجّل؟ .

قلت له : «استرح أنت يا زيد، وسأذهب بدلاً عنك . لن يكون من الصعب أن أعود إليك متتبعاً آثار خطاي» . وعند انبلاج الفجر ركبت متتبعاً آثار الذلول الضائع، وطال ركوبي ساعة وثانية وثالثة . وكان النهار قد تقدم كثيراً عندما وقفت لآخذ لنفسي قسطاً من الراحة . ترجلت عن مطيتي وأكلت بضع تمرات، ثم شربت بعض الماء من القربة المعلقة بمقدمة رحلي، وكانت الشمس في كبد السماء، ولكنها كانت قد فقدت شيئاً من حرارتها، وكانت الغيوم الداكنة التي لا تظهر عادة في مثل هذا الوقت من السنة، تطفو ساكنة في السماء، والهواء ثقيل إلى درجة غريبة، يغلف الصحراء ويلين معالم الكثبان فوق ليونتها المألوفة .

ولحظت فجأة حركة مفزعة عند قمة التلة الرملية أمامي، هل هو حيوان؟ ربما كان الذلول الشارد، بيد أنني أمعنت النظر، فوجدت أن الحركة ليست فوق الكثيب بل في قشرته ذاتها؛ كانت القشرة تتحرك –ببطء ما بعده بطء– إلى الأمام، ثم بدا لي أنها تنحدر باتجاهي، وعلت السماء حمرة قاتمة، ثم دارت غمامة من الرمال حولي تصفعني في وجهي . وسرعان ما سمعت زمجرة الرياح من كل صوب مجتاحة الوادي

من جميع أطرافه، ولم تلبث السماء أن أظلمت بغبار الرمل الذي يحجب الشمس والضياء كالضباب المحمرّ. إنها لعاصفة رملية.

وأراد ذلولي، وقد هالته الرّياح الهائجة، أن ينهض من مجثمه، ولكني منعته من ذلك جذباً بالرّسن -وأنا أحاول أن أتجنب السقوط بسبب الريح العنيفة- وعقلت ساقيه الأماميتين، وإحدى ساقيه الخلفيتين أيضاً. ثم ارتميت على الأرض، وغطيت رأسي بعباءتي، وضغطت بوجهي على إبط الذلول كي لا تصفعني الرمال المتطايرة، وشعرت أن الذلول -للسبب نفسه- كانت تضغط بدورها بخطمها على كتفي، كما شعرت بالرمل يغمرني من الجهة التي لم يكن يحميها جسم الناقة، وأنه كان عليّ أن أبدل مكاني بين الفينة والأخرى كي لا أدفن في الرمال. لم أخف كثيراً، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفاجئني فيها عاصفة رملية في الصحراء. ولم أستطع أن أفعل شيئاً إلا أن أبقى على الأرض ملتفاً بعبائتي بإحكام، وأن أنتظر خمود العاصفة وأصغي إلى الرياح تزمجر وعباءتي تصفق صفيق أعلام القبائل يحملها على الصواري جيش من البدو في إبان زحفه، تماماً كما صفقت ورفرفت منذ خمس سنوات تقريباً فوق الألوف من الركبان النجديين -وأنا بينهم- عائدين إلى مكة بعد الحج.

لقد كانت المرة الثانية التي أؤدي فيها شعيرة الحج، وكنت قبل ذلك قد قضيت سنة واحدة في وسط شبه الجزيرة، وعدت إلى مكة في الوقت المعيّن للحج لأشارك الحجيج يوم التاسع من آخر شهر في السنة القمرية اجتماعهم في سهل عرفات، شرقي مكة المباركة. وأثناء عودتي من عرفات وجدت نفسي وسط حشد من البدو النجديين بثياب الإحرام البيضاء، بحر من الرجال على مطايا صفراء عسلية أو سمراء ذهبية أو بنّية تميل إلى السواد، ألوف من الإبل تتسابق وتتدافع إلى الأمام كموجة عارمة.

ويتفرّق الحجيج الذين لا عدّ لهم ولا حصر، والذين جاءوا من مختلف الأقطار، من مصر والهند وأفريقية الشمالية وجاوه، حيث لم يألفوا هذا الازدحام من قبل، يتفرقون مذعورين لدى اقترابنا؛ ذلك أن أحداً لم يكن لينجو من الموت إذا وقف في

وقف في طريق ذلك الركب العاصف، تماماً كما أن الراكب لن ينجو إذا سقط عن بعيره وسط آلاف وآلاف من الإبل الرامحة.

وانغمست في كل ما كان حولي في تلك الساعة من هجوم وزمجرة. وكانت النشوة تغمر قلبي، وسمعت الرياح تغنّي وكأنها تقول: «إنك لن تبقى غريباً بعد الآن. لن تبقى غريباً وأنت بين قومك وأهلك هؤلاء».

وإذ كنت متمدداً فوق الرمال تحت عباءتي التي كانت الريح تتلاعب بها، خيل إليّ أن زمجرة العاصفة الرملية كانت تردد صدى ذلك الغناء: «إنك لن تبقى غريباً بعد الآن».

لم أعد غريباً؛ ذلك أن جزيرة العرب قد أصبحت وطني. إن ماضيّ الغربي صار أشبه بالحلم البعيد؛ لا من الوهم بحيث ينسى، ولا من الحقيقة بحيث يؤلف جزءاً من حاضري. ولكنني كلما أقمت بضعة أشهر في بلدة واحدة –كالمدينة النبوية مثلاً، حيث كانت لي زوجة عربية وولد طفل ومكتبة تزخر بالكتب الدينية والتاريخية– يستبد بي القلق، وأبدأ بالحنين إلى أن أتحرك فأعود إلى هواء الصحراء الجاف، إلى رائحة المطايا ولكنّ دافع التجوال الذي جعلني قلقاً متبرماً إلى هذا الحد طيلة الجزء الأعظم من حياتي (عمري الآن يزيد قليلاً عن اثنين وثلاثين عاماً) ويغريني كرة بعد أخرى بالرّحيل والتنقل، ليس ناشئاً عن تعطش للمغامرات بقدر ما هو ناشيء عن رغبة في أن أجد مستقري في هذا العالم.

وإذا كنت أفهم الأمر على حقيقته، فإن هذا الحنين إلى اكتشاف الذات هو الذي ساقني عبر السنين، إلى عالم يختلف تمام الاختلاف عن كل مصير رَسَمَتْهُ لي ولادتي ونشأتي الأوروبيتان.

وعندما هدأت العاصفة أخيراً، أخرجت نفسي من الرمال التي كانت قد تجمعت حولي. وكانت ذلولي محاطة بالرمال أيضاً، ولكن تلك التجربة لن تكون أسوأ من التجارب التي تعرضت لها من قبل، وقد خيّل لي أن العاصفة لم تصبنا بأي أذى سوى أنها ملأت فمي وأذني وأنفي بالرمل وأطارت غطاء رحلي، إلا أنني سرعان ما اكتشفت أنني كنت على خطأ.

لقد بدّلت جميع الكثبان من حولي معالمها، كما اختفت آثار ذلولي مع آثار الذلول الشاردة، لقد أدركت أنني الآن أقف على أرضٍ جديدة.

ولم يبق أماميٍ الآن سوى أن أعود إلى زيد مستدلاً بالشمس وبشعور الاتجاه الذي يكاد يكون غريزياً لدى من يألف السفر في الصحاري. ولكن هذين لا يمكن الاعتماد عليهما اعتماداً كلّيّاً، ذلك أن الكثبان لا تمكنك من المسير في خط مستقيم كيما تحافظ على الاتجاه الذي اخترته لنفسك.

ولقد شعرت بالظمأ بتأثير العاصفة، إلا أنني كنت قبل هبوب العاصفة بوقت طويل قد أتيت على آخر قطرة من قربة الماء الصغيرة التي كانت معي. ولكن لا بد أنني لم أكن بعيداً عن المكان الذي حططنا فيه الرّحال. وبالرغم من أن راحلتي لم تشرب ماء منذ آخر وقفة لنا عند أحد الآبار منذ يومين، فإنه يمكنني الاعتماد عليها في العودة بي إلى زيد. لقد وجّهت أنفها نحو الجهة التي فكرتُ أن زيداً لا بد أن يكون فيها، وسرنا في خطوات رشيقة.

ومرّت ساعة وثانية وثالثة، ولكني لم أقع على أثر لزيد أو للأرض التي كنا قد نزلنا فيها، ولم يبد لي أني قد ألفت رؤية أيّ من التلال البرتقالية اللون، والحق أنه كان من العسير جداً أن أكتشف فيها أيّ شيء أعرفه حتى ولو لم تهب أي عاصفة.

وقبيل المساء مررت بطبقة سطحية من صخور الصّوّان التي كانت نادرة جداً في تلك القفار الرملية فعرفتها حالاً؛ لقد مررنا بها – زيد وأنا – بعد ظهر اليوم السابق قبيل توقفنا لقضاء الليل. وشعرتُ بفرح عظيم. فبالرغم من أنه كان واضحاً أنني كنت بعيداً جداً عن المكان الذي كنت أرجو أن أجد زيداً فيه فقد بدا لي أنه لم يكن من العسير علي الآن أن أجده بمجرد مسيري باتجاه جنوبي غربي، كما فعلنا أمس.

لقد قدّرت أن المسافة بين صخور الصوان وبين المكان الذي تركنا فيه زيد لا تزيد عن ثلاث ساعات؛ ولكنني بعد أن سرت ستّ ساعات لم أجد أثراً لزيد، هل أخطأته مرة أخرى؟ ودفعت الراحلة إلى الأمام دائماً نحو الجنوب الغربي، ومرت ساعتان أخريان، ومع ذلك فلم يكن هناك أيّ أثر لزيد، وعندما أرخى الليل سدوله، قررت أنه لم يكن هناك معنى لاستمراري في السير، وأن من الأفضل لي أن أستريح بانتظار ضوء الصباح،

فأنخت الذلول وعقلتها، وحاولت أن آكل بعض التمر ولكنني كنت شديد الظمأ، فقدمت التمر إلى الذلول وتمددت مسنداً رأسي إلى جسمها. وأُصبت بوسن متقطع؛ لم يكن نوماً بالمعنى الصحيح، ولا يقظة بالمعنى الصحيح، وزاد الظّمأ تدريجياً فصار شديداً أليماً، وفي مكان ما من تلك الأعماق التي لا يرغب المرء في أن يكشفها، هنالك الخوف القاتل؛ ماذا سيحل بي إذا لم أجد طريقي إلى زيد، وإلى قرَب الماء؟ ذلك أني كنت أعلم أنه لم يكن ثمة ماء ولا موطن إلا على مسيرة أيام عديدة في أيّ اتجاه.

وعند الفجر شرعت في المسير ثانية. وكنت في أثناء الليل قدّرت أنني كنت قد انحرفت نحو الجنوب وأن زيداً يجب أن يكون في مكان ما نحو الشمال الشرقي عن المكان الذي قضيت فيه الليل. وهكذا تحولنا إلى الشمال الشرقي، وقد استبد بنا العطش والتعب والجوع، سائرين دائماً في خطوط ملتوية من واد إلى واد، متفادين الكثبان آناً إلى اليمين وآناً إلى اليسار. وعند الظهر أخذنا قسطاً من الراحة، وكان لساني ملتصقاً بسقف حلقي وأحسست به كأنه قطعة من الجلد القديم المتشقق، كما كان حلقي مُرّاً وعيناي ملتهبتين. وإذ شددت نفسي إلى بطن المطية، وعباءتي تغطي رأسي، فقد حاولت أن أنام فترة من الوقت، ولكنني لم أستطع. واستأنفنا السير بعد الظهر مرة أخرى، نحو الشرق هذه المرة ذلك أنني أدركت الآن أنني انحرفت نحو الغرب بأكثر مما ينبغي، ولكنه مع ذلك لم يكن ثمة أثر لزيد.

وجاءت ليلة أخرى وصار العطش عذاباً وألماً، وصارت الرغبة في الماء الفكرة الوحيدة الطاغية في عقل لم يعد باستطاعته أن يفكر تفكيراً منتظماً. ولكن ما أن انبثق الفجر وأضاء السماء حتى ركبت مرة أخرى، خلال الصباح ثم خلال الظهيرة، إلى أصيل يوم آخر. تلال رملية وحر لاهب، تلال وراء تلال، وليس من نهاية، أو لعلها كانت هي النهاية، نهاية طرقي كلها، نهاية كل ترحالي وبحثي، نهاية مجيئي إلى الناس الذين كان من المقدر أن لا أظل غريباً بينهم ثانية. ودعوت الله: «يا إلهي، لا تجعل نهايتي على هذه الصورة».

وبعد الظهر، تسلقت تلة مرتفعة رجاء أن أستجلي ما حولي من الأرض بصورة أفضل. وعندما ميّزت فجأة نقطة سوداء بعيداً إلى الشرق، كدت أصرخ من الفرح، لو

لم أكن أضعَف من أن أفعل ذلك، تلك النقطة لا بد أنها زيد والقربتين الكبيرتين المملوءتين ماء، وارتجفت ركبتاي عندما ركبت ثانية، وببطء وحذر تحركنا باتجاه النقطة السوداء. واتخذت هذه المرة كل حيطة كي لا أخطئها فسرت في خط مستقيم، مصعداً التلال الرملية، هابطاً الأودية، مما كان يضاعف جهدنا وعناءنا، ولكن كان يحدوني الأمل في أنني بعد قليل، بعد ساعتين على الأكثر، سأصل إلى هدفي. وأخيراً بعد أن قطعنا آخر تلة رملية، تجلّى الهدف واضحاً لعيني، فأوقفت الذلول، ونظرت إلى ذلك الشيء الأسود على مبعدة أقل من نصف ميل، وخيل إلي أن قلبي قد توقف عن الخفقان، ذلك أن ما كنت أراه أمامي إنما كان الطبقة السطحية من صخور الصوان التي مررت بها منذ ثلاثة أيام مع زيد، والتي زرتها وحدي منذ يومين. لقد مضى علي يومان وأنا أدور في حلقة.

- ٤ -

وعندما انزلقت عن الرّحل كنت أشعر بأن قواي خائرة تماماً، لم أهتم حتى بأن أعقل الراحلة، وقد كانت في الحق تعبة إلى درجة أنه لم يكن من المعقول أن تحاول الهرب. لقد بكيت، ولكن الدموع لم تسقط من عينيّ الجافتين المتورمتين.

ما أطول الزمن الذي تصرّم دون أن أبكي. ولكن، أليس كل شيء قد مضى وانقضى الآن، ولم يبق في حياتي حاضر إلا العطش والرمضاء والعذاب؟

لقد مضى عليّ ثلاثة أيام لم أذق فيها قطرة من الماء، وناقتي لم تشرب منذ خمسة أيام، قد تستطيع أن تحتمل الظمأ يوماً آخر، أو يومين، أما أنا فإني أعرف أنني لن أستطيع. لربما فقدت عقلي قبل أن أموت، ذلك أن الألم في جسمي يعوي مع الهلع في عقلي، وكلاهما يجعل الآخر ينمو وهو يلسع ويوسوس ويمزق تمزيقاً.

ورغبت في أن أستريح، ولكنني في الوقت نفسه عرفت أنني إذا استرحت الآن فلن أستطيع النهوض ثانية. وجررت نفسي إلى أن تمكنت من أن أستوي على الرحل، وبذلت ما بقي لي من جهد لكي أحمل راحلتي على النهوض، وكدت أسقط من الرّحل عندما ترنحت. إلى الأمام ناهضة على قائمتيها الخلفيتين ثم عندما ترنحت

إلى الوراء رافعة قائمتيها الأماميتين. وبدأنا نتحرك ببطء وألم نحو الغرب. نحو الغرب؟ وماذا تعني كلمة الغرب في هذا البحر الزاخر الخداع المتماوج من التلال الرملية؟ ولكنني كنت أريد أن أعيش، ولذلك تابعنا المسير.

وتهادينا، بما بقي لنا من قوة، طوال الليل وكنت أشعر أنه لن يأتي الصباح إلا وقد هويت عن راحلتي. إنني لن أتألم كثيراً عندما أهوي، فالرمل الناعم سيتلقاني ويحتضنني. ووقفت الناقة قليلاً، ثم انزلقت متنهدة على ركبتيها وأراحت بطنها على الأرض مادة عنقها فوق الرمال.

واضطجعت على الرمل في ظل الناقة، ملتفاً بعباءتي كي أتقي الحر من خارجي والألم والعطش والخوف في داخلي. لم أعد أستطيع أن أفكر، ولم أعد أستطيع كذلك أن أغمض عينيّ، ذلك أن كل حركة في أجفاني كانت بمثابة قطعة من المعدن المتوهج تكوي مقلتي. لم يكن هناك إلا الظمأ والرمضاء، الظمأ والسكون الرهيب، السكون القاسي الذي يقذف بك إلى لجة من الخوف واليأس. ولم أعد أسمع إلا تنهد الناقة بين الفينة والأخرى، فيخيل إليّ أن هذا هو آخر صوت أسمعه، وأننا نحن الاثنين، الإنسان والحيوان، آخر من قدر له أن يحيا على هذه الأرض.

وعلى علو شاهق فوقنا، في الحر السابح، كان نسر يحوم ببطء دون أن يتوقف، نقطة سوداء في وجه شحوبة السماء، حُرّاً في كل أفق.

وشعرت بالانتفاخ في حلقي، وبضيق في تنفّسي، وتضخم لساني، ذلك اللسان الذي ما كان له أن يتحرك، ولكنه لا ينفك يتحرك إلى الأمام وإلي الوراء، كالمبرد يلحس ذلك الحجر الذي كان فمي في وقت مضى. وانتابت الحمى جوارحي كلها، ودخلت مرحلة النزع، وبدت السماء لعيني مظلمة حالكة السواد.

وتحركت يدي بلا إرادة مني، واصطدمت بالبندقية المعلقة على مقدّمة الرّحل، والتمع ذهني بصفاء مفاجئ، واخترقت عيناي مستودع البندقية، ورأيت تلك الرصاصات الخمس الطيبة، وهتف بي هاتف أن تحرك بسرعة وتناول البندقية قبل أن تصبح عاجزاً عن الحركة، ولكني تذكّرت حُكْم الله على من قَتَل نفسه بالخلود في النار.

ثم شعرت بشفتي تتحركان وتتلفظان بكلمات متقطعة غير مسموعة: «لنبلونكم.. ولنبونكم..» ثم انتظمت فكانت الآية الكريمة: ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

كل ما حولي حار قاتم، غير أنني أحس من ذلك القتام الحار بنفحة رطبة من الريح كأنني أسمع حفيفها يتخلل الشجر فوق الماء، أما الماء فهو ذلك الجدول الهادئ المنساب بين الضفاف الخضراء الذي يمر بمنزل طفولتي، وأراني مضطجعاً على حافة الجدول، طفلاً في التاسعة من عمري أمضغ بعض الحشائش، وأمعن النظر في البقرات البيض التي ترعى قربي بعيون حالمة فيها براءة الدعة والسكينة، وعلى البعد تعمل الفلاحات في الحقل، أرى إحداهن ترتدي قميصاً أزرق مخططاً بخطوط عريضة حمراء، وعلى رأسها منديل أحمر. وعلى حافة الجدول تنتصب أشجار الصفصاف، وفوق صفحته بطة بيضاء تموّج الماء بسباحتها. لا تزال الريح الهادئة تصافح وجهي بصوت كأنه حيوانيّ. آه، بل هو صوت حيوان، فقد أقبلت البقرة الكبيرة البيضاء ذات البقع البنية تدنو مني فتلامسني برفق وهي تنخر. إنني أحس بحركة قوائمها إلى جانبي.

وفتحت عيني وسمعت نخرة ناقتي، وشعرت بقوائمها تتحرك إلى جانبي. لقد نهضت على قائمتيها الخلفيتين بعض الشيء، ورفعت عنقها ورأسها ووسّعت منخريها كأنما حمل إليها هواء الظهيرة رائحة مقبولة. ونخرت مرة أخرى، وبدت عليها أمارات الاهتياج، وأخذت تجيل عنقها بين كتفيها. لقد رأيت الإبل على هذه الصورة من قبل عندما تشم رائحة الماء بعد مسير أيام طويلة في الصحراء، ولكن ليس في هذا المكان ماء. إلا أن الأمل في وجوده ما لبث أن تبدى لي، فرفعت رأسي وأدرت بصري نحو الجهة التي كان رأس ناقتي متجهاً إليها، فوقع على أقرب تلة رملية إلينا، وكانت منخفضة خالية من كل حسّ أو حركة. ولكني سمعت هذه المرة حسّاً،، صوت بدوي يرتفع بالحداء، وراء قمة التلة الرملية، تلك التلة التي كانت قريبة مني من حيث المسافة، وبعيدة جداً من حيث قدرتي على الوصول أو إيصال صوتي إليها.

نعم، لقد كان هناك أناس، ولكني لن أستطع الوصول إليهم. لقد كنت أضعف من أن أقوى على النهوض، فحاولت أن أصرخ، ولكنني لم أستطع إلا أن أحدث صوتاً أجش. وتحركت يدي فاصطدمت بالبندقية المعلقة على مقدّمة رحلي، ورأيت بعيني عقلي الرصاصات الخمس الطيبة في مستودعها.

وبذلت جهداً مضنياً لفك البندقية عن الرحل. وعندما تم لي ذلك أخذت في سحب المزلاج وكأنني أسحب جبلاً من الحديد. بيد أنني نجحت أخيراً، وركَزْت البندقية على قاعدتها وضغطت على الزناد، فانطلقت إحدى الرصاصات عمودياً في الهواء، واخترقت الفضاء مدوّية بصوت تفرّق في الفضاء الواسع. وسحبت المزلاج وضغطت الزناد كرة أخرى وأصخت السمع. لقد انقطع الحداء وساد الصمت من جديد لحظات معدودات. وفجأة، أطلّ رأس رجل من وراء التلة، ثم كتفاه، ورأيت بجانبه رجلاً آخر. وأجال الرجلان أنظارهما قليلاً، ثم استدارا وهتفا لرفاق لهما لم أستطع رؤيتهم، ولم يلبث أحدهما أن انحدر إليّ.

وشعرت كأن عدداً كبيراً من الناس من حولي يحاولون إنهاضي وأنا على شفا غيبوبة. وشعرت بشيء بارد محرق كالثلج والنار على شفتي، ورأيت رأس بدوي مُلْتحٍ ينحني فوق وجهي يعصر في فمي خرقة رطبة قذرة. أما يد الرجل الأخرى فكانت تحمل قِرْبة مفتوحة فيها ماء. ورفعت فمي إليه، ولكن البدوي دفع رأسي إلى الوراء دفعة رقيقة، ثم غمس الخرقة في الماء وعصر بضع قطرات فوق شفتي. وكان علي أن أعضّ على نواجذي لأمنع الماء من أن يحرق حلقي، ولكن البدوي لجأ إلى القوة وفصل بين فكّيّ وألقى في فمي بضع قطرات من الماء. لا، لم يكن ذلك ماء، بل رصاصاً سائلاً. لماذا يفعلون كل ذلك؟ لقد تمنّيتُ أن أهرب من ذلك العذاب القاتل، ولكنّ الرجال أمسكوا بي وردّوني إلى الوراء. كان حلقي يحترق، وجسمي كله يلتهب. هل يريدون قتلي؟ آه لو أستطيع أن أمسك سلاحي وأدافع عن نفسي؟ ولكنهم لم يدعوا لي مجالاً للحركة، فقد ألصقوني بالأرض وفتحوا فمي عنوة وسكبوا فيه قطرات الماء، وكان علي أن أبتلعها، ولكن كم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت أنها لم تعد تحرق حلقي كما كانت تحرقه

منذ لحظة. وأخذت أشعر بالارتياح إلى رطوبة تلك الخرقة القذرة على جبيني، وسَرَت في جسمي كله رعشة من سرور عندما سكبوا الماء على جسمي فابتلت ثيابي كلها.

وسبحت في ظلام دامس. وشعرت كأني أهوي في بئر عميقة مظلمة.

-٥-

سواد. سواد حالك. ظلمة ناعمة لا يعكرها صوت. ظلمة طيبة رحيمة تضمني وتلفني كالغطاء الدّافئ، وتجعلني أتمنى أن أظل أبداً على هذه الحال؛ تعباً ناعساً كسولاً. والحق أنه لم يكن بي حاجة إلى أن أفتح عيني أو أحرك ذراعي، ومع ذلك فقد حركت ذراعي وفتحت عيني فلم أر فوقي غير الظلام، ظلام بيت الشَّعْر الأسود، تنفرج منه فتحة صغيرة على رقعة ضيقة من سماء الليل مرصعة بالنجوم، وخط منحن من التلال الرملية الناعمة.

وفجأة رأيت في فتحة البيت صورة رجل، وسمعت صوت زيد وهو يهتف: «إنه يقظان، إنه صاحٍ». وشعرت بوجهه الصارم يقترب من وجهي، وبيده تمسك بكتفي، ورأيت رجلاً آخر يدخل البيت. لم أستطع أن أتبيّن هذا الرجل بوضوح، ولكنه ما لبث أن تكلم بصوت رزين منخفض عرفت منه أنه بدوي من قبيلة شمر.

وشعرت مرة أخرى بالظمأ، وقبضت بكلتا يدي على كوب اللبن الذي أدناه مني زيد، ولما لم أحس بأي ألم في حلقي جرعته كله بينما كان زيد يقصّ عليّ أن أولئك الرجال من البدو مروا به عندما هدأت العاصفة الرملية، وأنهم عندما عاد الهجين الشارد وحده أثناء الليل استحوذ عليهم القلق وخرجوا جميعاً للبحث عني، وأنهم -بعد ثلاثة أيام تقريباً، وبعد أن كادوا ييأسون من العثور علي- سمعوا صوت الرصاصة التي أطلقتها من بندقيتي خلف الرابية.

وكان أصدقاؤنا البدو غير مستعجلين، فقِرَبهم كانت ممتلئة بالماء، فلم يروا بأساً في أن يسقوا ذلولي ثلاث دلاء، علماً منهم بأن مسير يوم باتجاه الجنوب كفيل بأن يوصلهم إلى بئر يستقون منه.

وبعد قليل أعانني زيد على الخروج من البيت، وفرش على الأرض بساطاً من الصوف اضطجعت عليه تحت النجوم.

وانقضت بضع ساعات أفقت بعدها على قعقعة أواني القهوة التي كان يُعِدّها زيد، وخالطني مزيج من الدهش والسرور عندما شممت رائحة القهوة.

وناديت: «زيد»! ووجدت أن صوتي، بالرغم من أنه كان لا يزال ضعيفاً، قد عاد إليه بعض صفائه، «هل لك أن تسقيني بعض القهوة»؟.

– «أسقيك والله يا عمي» أجابني زيد تبعاً لعادة العرب في مخاطبة من يودّون إظهار احترامهم له، سواء كان أكبر أم أصغر سنّاً مِنَ المتكلم (وكنت أصغر من زيد بعامين اثنين)، ثم أردف قائلاً: «ستشرب القهوة إن شاء الله حتى ترتوي».

وأخذت أحتسي قهوتي بلذة وهدوء. وكان وجه زيد يطفح بالبشر، فسألته ممازحاً: «لماذا، يا أخي، نعرض أنفسنا للموت، بدلاً من أن نلزم بيوتنا كما يفعل العقلاء من الناس»؟

فأجابني زيد: «لأنه ليس لمثلك أو مثلي أن نقبع في بيتنا حتى تيبس أطرافنا وتدركنا الشيخوخة. وفضلاً عن هذا، ألا يموت الناس وهم في بيوتهم أيضاً؟ أليس كل إنسان يحمل قِسْمته حول عنقه، حيثما كان»؟.

وبينما كنت أحتسي فنجاناً ثانياً من القهوة، خطر ببالي أن لهذه الكلمة العربية «قِسْمة» معنى آخر أكثر عمقاً.

وعدت بذاكرتي إلى أيام بعيدة خلت، تذكرت تلك الابتسامة التي رافقت هذه الكلمة عندما سمعتها أوّل مرّة، إبتسامة من وراء سحابة من دخان لاسع كدخان الحشيش؛ أجل لقد كان دخان الحشيش، وكانت الابتسامة ابتسامة أغرب رجل عرفته في حياتي، فقد كنت أحاول الهرب من الوقوع في تهلكة بدت لي عظيمة جسيمة، وكنت في الوقت نفسه، ودونما إدراك مني، أسعى بقدمي إلى الوقوع في تهلكة أكثر احتمالاً من تلك التي كنت أحاول تفاديها.

كل هذا حدث منذ ثماني سنوات تقريباً عندما كنت أمتطي جوادي يصحبني خادمي التتري إبراهيم، مسافراً من شيراز إلى كرمان في جنوبي إيران، وهي أرض موحشة قليلة السكان، قرب بحيرة نيريس. لقد وصلنا إلى سهل فسيح موحل غير آهل، تحدّه جنوباً جبال (كوه كشنكان) -جبال الجياع- ويؤدي من الشمال إلى المستنقعات المتاخمة للبحيرة. وبعد الظهر، بينما كنا ندور حول تلة منعزلة، تبدت لنا البحيرة فجأة خضراء هامدة لا أثر فيها لحسٍّ أو حياةٍ، ذلك أن مياهها شديدة الملوحة إلى درجة أن الأسماك لا تستطيع أن تعيش فيها. وباستثناء بعض الأشجار الكسيحة والأدغال الصحرواية فإن التربة المالحة حول البحيرة لم تكن تسمح للنباتات بأن تعيش، وكانت الأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج الموحل، رأينا فوقه على بعد مئتي متر من الشاطئ درباً ضيقاً.

وهبط المساء دون أن نرى الخان الذي كنا نقصد المبيت فيه ليلتنا تلك، وكان اسمه (خان خيت). ولكن كان علينا أن نصله مهما كلّفنا الأمر، ذلك أنه لم يكن هناك مكان نأوي إليه سواه، فضلاً عن أن اقترابنا من المستنقعات قد جعل من العسير علينا أن نتابع سيرنا في الظلام. والواقع أننا قد أُنْذِرنا منذ الصباح بأن لا نغامر بالسير وحدنا في تلك البقعة، وأن خطوة واحدة في غير محلها قد تعني الموت المحقق. وفضلاً عن ذلك فقد كان جوادانا متعبين جداً بعد تلك الرحلة الطويلة المضنية طيلة النهار، فوق أرض طينية موحلة، وكانا بحاجة كلية إلى الراحة والطعام.

وإذ جن الليل، انهمر مطر غزير، ولكننا تابعنا سيرنا -بالرغم من ابتلال ثيابنا- مكتئبين واجفين، معتمدين علي غريزة الجوادين بدلاً من عيوننا التي لم تكن تستطيع أن ترى شيئاً في تلك الظلمة الحالكة. ومضت الساعات دون أن نعثر على الخان. لعلنا مررنا به، ولعله كتب علينا أن نقضي الليل في العراء تحت المطر الذي كان يشتد تدريجياً. كانت حوافر جوادينا تخوض في مياه المطر، والتصقت ثيابنا بجسمينا، وارتجفت عظامنا من شدة البرد، وكان إدراكنا أننا قريبين من المستنقعات يبعث في نفوسنا رهبة وخشية. ألم ينذرني أحدهم منذ الصباح قائلاً: إذا أخطأ جوادك الأرض الصلبة مرة واحدة، فعندئذ عليك رحمة الله؟.

وتابع جوادي تقدّمه يتبعه جواد إبراهيم، ربما على بعد عشر خطوات. ومرة بعد أخرى كانت تجول في خاطري تلك الأسئلة المرعبة: أترانا خلّفنا الخان وراءنا في الظلام؟ أيّ مصير ينتظرنا إذا قُدِّر لنا أن نقضي الليل تحت هذا المطر البارد المنهمر؟ وإذا تابعنا سيرنا، فماذا يحل بنا إذا بلغنا المستنقعات؟.

وفجأة انبعث صوت خافت من تحت حوافر حصاني، وشعرت به يخوض في الوحل ويغوص قليلاً، ويسحب إحدى قوائمه بجنون، ثم يغوص كرة أخرى. فارتجفت هلعاً وهتفت: «المستنقع»! وكبحت عنان الجواد بقوة وغرزت مهمازي بخاصرته فدفع برأسه عالياً وأخذ يرفع قوائمه ويخفضها بشراسة وغيظ. وتفجر العرق البارد من جسمي كله، وكان الليل حالك السواد حتى أنني لم أستطع أن أتبين يدي، ولكن اضطراب الجواد ولهثه وتشنج جسمه جعلني أحس بكفاحه اليائس للخلاص من المستنقع. وانتزعت السوط الذي اعتدت أن أعلقه بمعصمي دون أن أستعمله، وهويت به على مؤخرة الجواد بكل قوتي، مؤملاً أن أحمله بذلك على المسير. ذلك بأنه لو امتنع عن الحركة ووقف جامداً في مكانه، فسيبتلعه المستنقع، ويبتلعني معه. وإذ لم يعتد جوادي المسكين تلك الضربات الموجعة، فقد شبّ على قائمتيه الخلفيتين، ثم ضرب الأرض بقوائمه الأربع جميعاً، وجاهد لاهثاً للخلاص من الوحل، وكانت حوافره طيلة الوقت ترتطم بالوحل وتغوص فيه.

وفجأة، مرق من فوق رأسي شيء أحدث حفيفاً، فرفعت يدي وأصابتني صدمة حادّة لم أعرف مصدرها، ومع صوت انهمار المطر ولهث الجواد، كنت أستطيع أن أسمع المستنقع وهو يحدث ذلك الامتصاص الذي لا يتوقف، وأدركت أن النهاية قريبة، وأخرجت قدميّ من الركابين استعداداً للقفز من فوق السرج لعلي أستطيع أن أنقذ نفسي إذا استويت واقفاً على الأرض. ولكن حوافر الجواد -فجأة ودون أن أصدّق- ارتطمت بالأرض الصلبة مثنى وثلاث، فنشجت فرحاً بالخلاص، وجذبت عنان الجواد المسكين المرتعش فهدأ في مكانه. لقد نجونا.

ولم أذكر رفيقي إلا في تلك اللحظة، فتملكني الرعب وصرخت بأعلى صوتي: «إبراهيم» ولكني لم أسمع جواباً، وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان: «إبراهيم»، إلا أنه

لم يكن هناك سوى الليل يلفّني بسواده، والمطر يهطل بشدة. ترى، ألم يتمكن إبراهيم من إنقاذ نفسه؟ وصرخت ثالثة بصوت أجش: «إبراهيم».

وكدت أكذّب أذني عندما طرق سمعي صوت خافت من مسافة بعيدة: «هنا، إنني هنا».

وتساءلت: كيف ابتعد أحدنا عن الآخر كل هذه المسافة؟ وقدت جوادي باتجاه الصوت، فاحصاً كل شبر من الأرض بقدمي. وهناك كان إبراهيم ممتطياً صهوة جواده في هدوء.

– «ماذا حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تخطئ أنت أيضاً فتدخل المستنقع»؟.

– «المستنقع؟ كلا. لقد اكتفيت بأن أقف هادئاً في مكاني عندما ركض حصانك بصورة مفاجئة ولسبب لا أعرفه».

إذن لقد حُلّت الأحجية، ولم يكن كفاحي ضد المستنقع إلا نسيجاً من خيالي؛ لابد أن حصاني لم يفعل إلا أن خطا فوق ثلم موحل. وظناً مني أننا كنا مسوقين نحو المستنقع، عالجته بضربة من سوطي فرمح مجنوناً، ولابد أن الظلمة قد خدعتني فظننت أنّ تقدُّم الجواد إلى الأمام كان صراعاً يائساً ضد المستنقع، وإنما كانت غريزته تدعوه للمشي في ظلام الليل بين الأشجار الملتوية العديدة المنتشرة في السهل. هذه الأشجار –وليس المستنقع– كانت الخطر الحقيقي؛ فالغصن الصغير الذي صدم يدي كان يمكن أن يكون غصناً أكبر، فيحطم جمجمتي وأدفن في مقبرة مجهولة في جنوبي إيران.

وثرت على نفسي، لأننا لم نعد نعرف الآن كيف نتّجه، لقد كتب علينا أن لا نجد الخان.

ولكني، مرة أخرى، أخطأت التقدير. لقد ترجّل إبراهيم ليتحسس الأرض بيديه أملاً باكتشاف الطريق، فارتطم رأسه فجأة بجدار، الجدار المظلم لخان (خيت).

وإذن فلولا تصوري خطأ أنني دخلت المستنقع، إذن لكنا تابعنا طريقنا، وخلفنا الخان وراءنا، وتهنا حقاً في المستنقعات.

وكان الخان أحد الآثار الباقية من أيام الشاه عباس الصفوي؛ لَبِنات عظيمة من الحجر، وممرات على شكل سراديب، ومداخل مستطيلة دون أبواب، ومدافئ محطمة، وهنا وهناك آثار من النقش القديم فوق أعتاب الأبواب والشبابيك العليا، وقطع الخزف المزخرفة المتشققة. وكانت الغرف القليلة التي يمكن المبيت فيها مفروشة بالقش القديم وروث الخيل. وعندما دخلنا القاعة الرئيسية، وجدنا مراقب الخان جالساً بالقرب من نار مكشوفة على الأرض دون أن يفترش شيئاً، وكان إلى جانبه رجل غريب حافي القدمين صغير الجسم مغطّى بعباءة مهلهلة. وانتصب الرجلان واقفين عند رؤيتنا، وانحنى الرجل الغريب بحركة مسرحية واضعاً يده اليمنى على قلبه. وكانت عباءته مغطاة بعدد لا يحصى من الرُّقَع المتعددة الألوان، وكان أشعث أغبر، ولكن عينيه كانتا تبرقان، وكان وجهه رصيناً صافياً.

وغادر مراقب الخان الغرفة كيما يعنى بجوادينا، ورميت أنا بجلبابي المبتل، بينما شرع إبراهيم في إعداد الشاي فوق النار المكشوفة. وكما يتلطّف السيد العظيم، تناول الرجل الغريب فنجان الشاي الذي قدمه إليه إبراهيم.

ومن غير أن تبدو عليه أمارات الفضول، استدار إليّ قائلاً: «هل أنتِ إنكليزي، يا صاحب الجناب العالي»؟.

- «كلا، بل نمسوي».

- «هل أكون متطفلاً إذا سألت ما إذا كنتم قد جئتم هذه البلاد من أجل التجارة»؟.

- «إنني مراسل للصحف، مسافر عبر بلادكم كي أنقل وصفها إلى سكان بلادي. إنهم يحبون أن يعرفوا كيف يعيش الآخرون، وكيف يفكرون».

فأطرق مبتسماً علامة الموافقة، وسكت فلم ينطق بحرف. وبعد قليل سحب نارجيلة صغيرة من طين وقصبة من خيزران من ثنايا عباءته، ثم فرك بين راحتيه شيئاً بدا لي كالتبغ ووضعه بحذر وعناية -كما لو كان أغلى من الذهب- في أعلى النارجيلة، وغطاه بالجمر المتقد. وبجهد ظاهر سحب نَفَساً من الدخان بقصبة

الخيزران، وأخذ يسعل سعالاً شديداً. وبقبق الماء في النارجيلة المصنوعة من الطين وأخذَتْ رائحةٌ حادة تملأ الغرفة. عندئذ عرفت ذلك الشيء: لقد كان حشيشاً. والآن فهمت أيضاً تكلف الرجل وتصنعه؛ لقد كان مدمناً. لم تكن عيناه محجوبتين كعيون مدخني الأفيون، بل كانتا تشعان بنوع من القوة الغامضة، وتحدقان في مدى بعيد جداً عن العالم من حولهما.

وظللت أنظر إليه صامتاً. وعندما فرغ من نارجيلته آخر الأمر سألني قائلاً: «ألا تجربه»؟. فرفضت شاكراً. لقد سبق لي أن جربت الأفيون مرّة فلم أجد فيه أيّ لذ: ولكن هذا الحشيش بدا لي عنيفاً أكثر من الأفيون ولا يغري حتى بتجربته. وضحك الحشاش ضحكة صامتة، ورماني بنظرة فيها شيء من السخرية الوديّة وقال:

- «إنني أعرف بماذا تفكر يا صديقي المحترم. إنك تفكر بأن الحشيش هو من عمل الشيطان ولذا تخاف منه.

وضحك مرة أخرى ضحكته الصامتة القصيرة المترددة بين الهزء والأريحية، ثم توقف عن الضحك ولكنه استمر مكشراً وراء الغمامة من دخانه، وبقيت عيناه مسمرتين في نقطة معينة من الفضاء، وقال كأنما يحدّث نفسه: «لن يحدث لي إلا ما قُسِم لي».

«ذلك الشيء الذي أنا قسم منه» هكذا فكرت في ذات نفسي بينما استلقيت تحت النجوم العربية الحبيبة: «أنا، هذه الكتلة من اللحم والعظم، من الأحاسيس والمشاعر، قد وُضِعْت ضمن مدار الوجود، وغُمِسْت في كلّ ما يحدث. وليس الخطر إلاّ ظاهرة نفسية كاذبة، ذلك أنه لن يصيبني إلاّ ما قُسِمَ لي. أية حريّة لا نهاية لها يا رب، تلك التي منحتها الإنسان في حدود شريعتك».

عليّ أن أغمض عينيّ، فإني لأشعر بالسعادة عندما أفكر في هذا. وإن أجنحة الحرية لتمسني بصمت في نفحة الهواء الذي يمر فوق وجهي.

-٦-

وشعرت الآن بقوة كافية تمكنني من أن أستوي جالساً. وأسرع زيد فأحضر لي رَحْلاً اتكأت عليه.

- «إستريح في جلستك يا عمي، فإنه ليبهج قلبي أن أراك سالماً معافى بعد أن خشيت أن لا أراك مرة أخرى».

- «لقد كنتَ دائماً صديقاً لي يا زيد. ماذا كنت أفعل دونك كل هذه السنين لو لم تلب ندائي وتأت إليّ»؟.

- «إنني لم أندم على هذه السنين التي قضيتها معك يا عمي. لا أزال أذكر ذلك اليوم الذي تلقيت فيه -منذ أكثر من خمس سنوات- كتابك الذي دعوتني فيه إلى اللحاق بك في مكة. إن مجرد تفكيري في رؤيتك ثانية كان عزيزاً لدي، خصوصاً وأنك في الوقت نفسه قد تمت عليك نعمة الإسلام. ولكنني كنت في ذلك الحين حديث الزواج بفتاة من (المنتفك)، فتاة بكر، وكان حبها باعثاً لسعادتي الكبرى؛ تلك الفتيات الشماليّات، إن لديهن خصوراً ناحلة وأثداء صلبة، مثل هذه». وهنا ابتسم للذكرى الحبيبة إلى نفسه، وضغط بسبابته على أعلى مقدمة الرّحل الذي كنت متكئاً عليه. «ولما كان من الصعب عليّ أن أتركها، قلت في نفسي: سأذهب، ولكن ليس الآن، ولأنتظر بضعة أسابيع، ولكن الأسابيع مرت وتلتها الأشهر، وبالرغم من أنني سريعاً ما طلّقت تلك المرأة الكلبة -لقد كانت ترمق ابن عمها بعين الحب والغرام- فإنني لم أستطع أن أقرر ترك عملي في الهجانة العراقية وأصدقائي، وكنت أقول في نفسي دائماً: ليس الآن، بعد قليل.

وكنت راكباً في يوم من الأيام من مخيمنا، حيث قبضت مرتبي الشهري، وكنت أفكر في قضاء الليل في بيت أحد الأصدقاء، عندما خطَرْتَ ببالي فجأة، وذكرت ما كنتَ قلته لي في كتابك عن وفاة رفيقتك العزيزة -عليها رحمة ربي- وفكرت في مقدار وحشتك بعدها، وعرفت حالاً أنّ عليّ أن أذهب إليك، عندها نزعت النجمة العراقية عن عقالي ورميت بها بعيداً، ثم أدرت رأس ذلولي نحو نجد، دون أن أذهب

إلى البيت لأجمع ثيابي، وبدأت سيري ولم أتوقف إلا في القرية التالية لابتياع قِرْبة وبعض المؤونة، وتابعت ركوبي حتى التقيت بك في مكة بعد أربعة أسابيع».

- «وهل تذكر يا زيد، رحلتنا الأولى معاً إلى داخل جزيرة العرب، جنوباً نحو النخيل وحقول القمح في وادي بيشة، ومن هناك إلى رمال رنية التي لم يطأها غير عربي قبل ذلك»؟.

- «وكيف لا أذكرها يا عمي؟ لقد كنت مشتاقاً لرؤية الربع الخالي حيث الريح تذرو الرمال تحت الشمس الملتهبة. وما قولك بأولئك البدو الذين يعيشون على حافته، والذين لم يسبق لهم أن رأوا الزجاج في حياتهم وظنّوا أن نظارتيك إنما كانت من ماء متجمد؟ لقد كانوا كالجن أنفسهم، يقرأون آثار الأقدام في الرمل كما يقرأ سائر الناس الكتب، ويعرفون من الفضاء والهواء موعد العاصفة الرّملية قبل هبوبها بساعات. ثم، ألا تذكر، يا عمي، ذلك الدليل الذي استأجرناه في رنية، ذلك الشيطان البدوي الذي هدّدته بسلاحك عندما أراد أن يتخلى عنا وسط الصحراء؟ لَكَمْ تميّز غيظاً لرؤية الآلة التي كنت تلتقط بها الصور».

وضحكنا، زيد وأنا لتلك المغامرة التي مضى عليها زمن طويل. بيد أن الأمر لم يكن مضحكاً في ذلك الحين، فقد كنا على مسير ستة أيام أو سبعة جنوبي الرياض عندما انتابت ذلك الدليل -وكان بدوياً من هجرة الاخوان في الرين- نوبة من الغضب إذ أوضحتُ له عمل آلة التصوير التي كانت في حوزتي آنذاك. لقد أراد أن يتركنا هناك، لرأيه أن التصوير معصية لله ومدعاة لغضبه وعقابه. ولم أكن لأمانع في التخلص منه لو لم نكن عندئذ في منطقة لم نألفها من قبل، ولو لم يكن من المؤكد أن نضل الطريق. وقد حاولت بادئ الأمر أن أناقش البدوي بالمنطق ولكن دون جدوى. فقد استمر في عناده، وأدار وجه ذلوله نحو رنية. عندها أوضحت له أن تركه إيانا لنموت من العطش معصية أكبر، ولكنه حمل ذلوله على المسير، فصوبت سلاحي نحوه وأنذرته بإطلاق النار -وكنت مصمماً على ذلك كل التصميم- والظاهر أن هذا قد أثار خوف صاحبنا على روحه، ذلك أنه بعد قليل من الدمدمة والتذمر وافق أن يقودنا إلى أول قرية، وكانت تبعد مسرة ثلاثة أيام، حيث نستطيع أن

نعرض خلافنا على القاضي ليحكم بيننا. وجردناه -زيد وأنا- من سلاحه، وتناوبنا الحراسة الليلية لمنعه من الهرب. وقد حكم قاضي (القويعية) الذي احتكمنا إليه بعد بضعة أيام لصالح دليلنا لأنه: «يحرم تصوير ذوات الأرواح».

عندئذ أطلعت القاضي على الكتاب المفتوح الذي كان الملك قد زودني به: «إلى جميع أمراء البلاد وإلى كل من يراه... » محمد أسد هو ضيفنا وصديقنا وعزيز علينا، وكل من يظهر له المودة فكأنما يظهرها لنا، وكل من يناصبه العداء فكأنما يعادينا». وكان لكلمات ابن سعود وخاتمه أثرها في القاضي الصارم، وقرر الإصلاح بيننا، إلا أننا مع ذلك سرّحنا دليلنا واستأجرنا آخر كي يقودنا إلى الرياض.

- «أولا تذكر يا عمي، تلك الأيام في الرياض، عندما كنا ضيوفاً على الملك، وكنت أنت تعساً جداً لرؤية اصطبلات القصر القديمة مملوءة بالسيارات الجديدة البراقة. وتلطف الملك بك».

- «وهل تذكر، يا زيد، كيف أرسَلَنا لاكتشاف مصدر التّمويل الخفيّ لعصيان الدويش، وكيف ارتحلنا ليالي عديدة وانسللنا إلى الكويت خلسة، ووقفنا على حقيقة الصناديق الملأى بالريالات الجديدة اللماعة والبنادق التي كانت تتدفق على الثوار عبر البحر»؟.

وهكذا مضى كل منا يذكّر صاحبه بالأيام العديدة التي قضيناها معاً، حتى تقدم الليل وخمدت نيران المخيم إلا بضع جمرات ظلت على اتقادها، وحتى تقلص وجه زيد نفسه وأثقل عينيّ النعاس.

وفي سكون الصحراء المرصعة بالنجوم، وبينما كان الهواء الفاتر العليل يهب على الرمال فيرسم فوقها تموجات خفيفة، انحبكت صور الماضي بصور الحاضر لتنفصل من جديد وينادي بعضها بعضاً عبر السنين المتصرمة، من أول السنين التي قضيتها في بلاد العرب، إلى حجي الأول إلى مكة، والظلام الذي خيّم على تلك الأيام الخالية، لوفاة زوجتي الحبيبة والتي ترقد الآن تحت تراب مكة، تحت حجر بسيط لا زخرف فيه ولا نقش يَسِمُ نهاية الطريق التي مشتها وبداية طريق جديد لي، نهاية وبداية، نداء وصدى.

- «زيد، هل بقي في الإبريق شيء من القهوة»؟.

- «أمرك يا عمي».

هكذا أجابني زيد وهو ينهض بتؤدة، ودلة القهوة النحاسية الطويلة النحيفة في يده اليسرى، وفنجانان صغيران في يده اليمنى يقرع أحدهما بالآخر فيحدثان رنيناً يبعث على الطرب. وصب قليلاً من القهوة في أحدهما وناولني إياه. وكنت أرى عينيه ترمقانني بانتباه وقور، هاتان العينان، الغائرتان الطويلتا الأهداب، العبوستان الحزينتان، المستعدتان أبداً أن تشعا فجأة ببريق من السرور، هاتان العينان تفصحان عن مئة جيل من حياة الروابي والكثبان والحرية، عينا رجل لم يستغل أحدٌ أسلافه ولم يستغل أسلافه أحداً. وكانت حركاته رصينة متزنة منتظمة، غير مستعجلة أبداً ولا مترددة. إنك تجد لدى البدو كثيراً من الحركات التي أمْلَتْها الصحراء، فالحياة في بادية الجزيرة العربية، لم تتغيّر عن فطرتها. وقد أجبرت الإنسان فيها على تفادي أيّ هدر في السلوك، وحصرت أفعاله في أشكال معدودة معينة أساسية جداً بقيت كما هي دون تغيير أجيالاً طويلة واكتسبت مضاء البلور ونعومته. هذه البساطة الموروثة في الأفعال تظهر اليوم في حركات العربي الأصيل، كما تبدو في اتجاهه الذي يصطنعه في ممارسة الحياة.

- «قل لي، يا زيد، إلى أين سنذهب غداً»؟.

ونظر إليّ مبتسماً وقال: «إلى تيماء، يا عمي، إن شاء الله».

- «لا يا أخي، لقد كنت أريد الذهاب إلى تيماء، ولكنّني لم أعد راغباً في ذلك الآن، نحن ذاهبون إلى مكة المباركة إن شاء الله».

بداية الطريق

-١-

كان المساء يقترب عندما وصلنا زيد وأنا إلى واحة صغيرة مهملة نوينا أن نمضي فيها ليلتنا. وتحت أشعة الشمس المائلة نحو المغيب كانت التلال الرملية تلمع مثل كتل زاهية من العقيق اليماني. وكنا لا نزال نستطيع أن نرى بوضوح تيجان النخيل والمنازل الطينية المنخفضة وأسوار الحدائق وراءها، كما كنا لا نزال نستطيع أن نسمع البكرات الخشبية فوق البئر ترسل أنغامها العذاب.

وأنخنا المطيتين على مسافة قريبة من القرية تحت حدائق النخيل، وأنزلنا الخرج الثقيل، ووضعنا الرّحلين عن ظهري المطيتين السّاخنين. وتجمع عدد من الصبية حولنا نحن الغرباء، وتقدم أحدهم، وكان صغيراً واسع العينين مرتدياً ثوباً بالياً وعرض على زيد أن يريه مكاناً يأخذ منه الحطب. وبينما مضى الاثنان في طريقهما، أخذت الرّاحلتين إلى البئر، وإذ كنت أدلي بدلوي وأسحبه وهو مملوء ماء، رأيت بعض النسوة آتيات من القرية ليجلبن الماء في قدور نحاسية وجرار خزفية حملنها على وقايات من القماش فوق رؤوسهن، ممسكات بزوايا براقعهن بأيديهن المرتفعة كأجنحة مرفرفة.

وسلّمن عليّ قائلات: «السلام عليك يا مسافر».

فأجبت: «وعليكن سلام الله ورحمته».

كنّ يرتدين ثياباً سوداء، وكانت أعالي وجوههن -كما هي عادة البدويات ونساء القرى في هذا الجزء من البلاد العربية- مكشوفة بحيث يستطيع المرء أن يرى عيونهن السوداء الكبيرة. ومع أنهن استوطنّ الواحة منذ أجيال عديدة، فإنهن لم يفقدن بعد سيماء الجد التي كانت لأجدادهن يوم كانوا قوماً رُحّلاً. كانت حركاتهن واضحة، ومحافظتهن خالية من كل خجل، عندما أخذن بصمت حبل الدلو من يدي ومَتَحْن الماء للناقتين -تماماً كما روي في التوراة عن تلك المرأة، منذ آلاف السنين، التي مَتَحَت

الماء لخادم إبراهيم عندما جاء من أرض (كنعان) ليجد لإسحق زوجة من بين أنسبائه في (آرام) تقول الرّواية :

« ثم أخذ العبد عشرة جِمال من جِمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده. فقام وذهب إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات، وقال : أيها الرب إله سيدي إبراهيم، يسّر لي اليوم واصنع لطفاً إلى سيدي إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء فليكن أن الفتاة التي أقول لها : أميلي جرتك لأشرب، فتقول : اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً، هي التي عيَّنْتَها لعبدك إسحق. وبها أعلم أني صنعت لطفاً إلى سيدي.

وإذا كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا (رفقة) التي ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخي إبراهيم خارجة وجرّتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً وعذراء لم يعرفها رجل. فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت فركض العبد للقائها وقال : اسقيني قليل ماء من جرتك، فقالت : اشرب يا سيدي. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت : أستقي لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب، فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة وركضت إلى البئر فاستقت لكل جماله ».

هذه الرّواية من التوراة طفت في مخيلتي بينما كنت واقفاً مع بعيري عند البئر في واحة صغيرة وسط رمال صحراء النفود الكبرى، أحدق بالنساء اللواتي أخذن حبل الدلو من يدي واللواتي كن يسحبن الماء لبعيري من قاع البئر.

إن بلاد آرام لبعيدة جداً، وإن زمن إبراهيم لموغل في القدم، ولكن هؤلاء النسوة، بما كان لحركاتهن الجليلة من قوة على استعادة الذكريات، قد محون المسافات وجعلن آلاف السنين ليس لها في الزمن حساب.

- « سَلِمَتْ أيديكن أيتها الأخوات وليحفظكن الله ».

- « وسَلِمْتَ أنت يا مسافر، برعاية الله ».

هكذا أجبن، وعدن إلى قدورهن وجرارهن ليملأنها بالماء ويذهبن بها إلى بيوتهن.

أثناء عودتي إلى المكان الذي نزلنا فيه، أنخت البعيرين وعقلت أرجلهما الأمامية كي أمنعهما من الشرود في الليل. وكان زيد قد أشعل النار وانهمك في صنع القهوة. وكان الماء يغلي في إبريق نحاسيّ ذي خرطوم منحن طويل. وكان بالقرب من مرفق زيد إبريق أصغر له الشكل نفسه، وكان زيد يمسك في يده اليسرى محمصة حديدية مسطحة ذات يد طولها ذراع، وعليها قبضة من حبات البُنّ يحمصها على النار، وكانت حبّات البن في بلاد العرب تحمّص أثناء صنع القهوة. وحالما أصبح لون حبات البن بنّيّاً وضعها في هاون نحاسي وشرع في سحقها، وبعد ذلك صب قليلاً من الماء المغلي من الإبريق الصغير، وأفرغ البن المسحوق فيه ووضعه قرب النار، وعندما أوشكت القهوة أن تغلي أضاف إليها بعض حبات الهال لتطييب مذاقها.

ولكنني لم أكن مستعداً بعدُ للتمتع بقهوتي، ذلك أنني كنت منهوك القوى مبتلاً بالعرق بعد تلك الساعات الطويلة الحارة التي قضيتها في الرّحل، وكانت ثيابي القذرة ملتصقة بجسمي، فتقت إلى الاستحمام وعدت أدراجي إلى البئر تحت أشجار النخيل.

وكان الظلام قد أرخى سدوله، وأقفرت بساتين النخيل. ونزعت عني ثيابي، وهبطت البئر متشبثاً بشقوقه بيدي ورجلي، ممسكاً بالحبال التي كانت تتدلى منها قِرَب الماء، إلى أن وصلت إلى المياه المظلمة وسبحت فيها. وكانت المياه باردة غمرتني حتى الصدر. وفي ظلام البئر، انتصبت حبال الجذب مشدودة عمودياً بثقل القِرَب الكبيرة الغائرة في الماء لتستعمل أثناء النهار في ري المزروعات. وتحت قدمي كنت أحس بخيوط الماء تنساب إلى أعلى، من النبع الذي يغذي البئر بمجرى بطيء غير منقطع دائم التجدّد.

وكانت الريح تدوي فوقي عند حافة البئر والصدى يرجّع صوتها داخل البئر خافتاً كطنين صدفة البحر عندما تمسك بها بالقرب من أذنك -تلك الصدفة التي طالما أحببت أن أصغي إليها في بيت أبي سنين عديدة خَلَت عندما كنت صبياً صغيراً لا

يكاد رأسي يبلغ سطح مائدة الطعام. كنت أضغط الصّدَفَة على أذني وأتساءل عما إذا كان الصوت هناك دائماً أو أنه يحدث فقط عندما أضع الصدفة على أذني وأضغطها. أكان ذلك الطنين شيئاً مستقلاً عني أو كان ناتجاً عن إصغائي إليه؟ ولقد حاولت مراراً أن أخدع الصدفة بأن أبعدها عني إلى أن يتوقف الدوي، ثم أضعها فجأة بالقرب من أذني ولكن الطنين كان هناك، ولم أكتشف قط ما إذا كان مستمراً عندما لا أكون في حالة الإصغاء.

ولم أتمالك نفسي عن الابتسام لهذه الذكرى، وفي إبان انهماكي في تلك العملية الدنيوية لإزالة الغبار والعرق اللذين علقا بجسمي بعد رحلة ذلك النهار الطويل تساءلت: هل يوجد دائماً خط فاصل بين ما هو دنيوي صريح وما هو غامض مبهم في الحياة؟ هل يمكن أن يوجد مثلاً شيء أكثر دنيوية وصراحة من الخروج للبحث عن ناقة شاردة، وأكثر غموضاً وإبهاماً أن يكون الإنسان على قاب قوسين أو أدنى من الموت عطشاً؟.

لعل صدمة تلك الخبرة هي التي أرهفت مشاعري وولّدت الحاجة إلى أن أقدّم لنفسي نوعاً من الحساب؛ الحاجة إلى أن أفهم فهماً كلّياً –لم يتسن لي من قبل– مجرى حياتي. ولكنني عندئذ ذكرت نفسي: هل يستطيع أيّ إنسان أن يفهم حقاً معنى حياته الخاصّة ما دام على قيد الحياة؟ نحن نعرف، طبعاً، ماذا جرى لنا في هذه الفترة أو تلك من حياتنا؛ كذلك نفهم أحياناً سبب حدوثه، ولكن مستقبلنا المقدّر لنا ليس استطلاعه ممكناً، ذلك لأن المستقبل غيب لا يكشف عن نفسه إلا في نهاية الطريق، ويجب دائماً أن يبقى مغلقاً تماماً ما دمنا سائرين في الطريق.

ورفعت عيني ورأيت تلك القطعة المدورة من السماء فوق حافة البئر، وما يزيّنها من النجوم. وبقيت هادئاً في مكاني وقتاً طويلاً أرقب كيف تبدل تلك النجوم مواقعها ومراكزها، وكان عليّ أن أفكر في ذلك التبدل والتغيّر الذي حدث لي، كل تلك السنوات القاتمة التي قضيتها آمناً أنعم بأمن الطفولة في مدينة كنت أعرف كل شبر فيها، وبعد ذلك في مدن أخرى مليئة بالمفاجآت والأشواق والآمال التي لا نعرفها إلا في أيام الشباب الباكر، ومِنْ ثَمَّ في عالم جديد بين أناس كانت صورهم وسماتهم

أمراً غريباً، غير أن مُعاشرتهم ولّدت في نفسي ألفة جديدة وشعوراً بأنني في وطني، وبعدئذ في آفاق واسعة رحبة، في كثبان وتلال منتشرة، في وحشة الجبال الجرداء، في وحشة الصحاري الحارة، وفي النمو البطيء لحقائق جديدة عليّ.

وتذكّرت ذلك اليوم في ثلوج جبال الهندوكوش عندما هتف صديق أفغاني، بعد حديث طويل، دهشاً: «أنت مسلم، دون أن تدرك ذلك»، وذلك اليوم الآخَر -بعد شهر- عندما استطعت أن أدرك ذلك بنفسي، ثم حجّي إلى مكة، ووفاة زوجتي والحزن الذي حلّ بي بعدها، وهذه السنين التي قضيتها بين العرب منذ ذلك الحين، وسنوات من الصداقة العميقة مع رجل ملكي أنشأ بسيفه دولة أعادت مجد أسلافه، وأعادت وحدة جزيرة العرب على الدّين الحق والدّعوة إليه، وتذكرت سنوات من الهيام في الصحارى والكثبان، حملات وسط حروب بدوية عربية، إقامة طويلة في المدينة النبوية حيث سعيت إلى أن أوسّع معرفتي بالإسلام في مسجد الرسول ﷺ، زيجات من فتيات بدويات تبعها طلاق وطلاق، علاقات إنسانية حميمة وأيام موحشة من الوحدة، أحاديث سفسطائية مع مسلمين مثقفين بَعُدوا عن حقيقة دينهم، ورحلات في مناطق مجهولة.

كل هذه السنين الغارقة قد طفت الآن على السطح، وكشفت عن وجهها مرة أخرى ودعتني بأصوات عديدة. وفجأة، خفق قلبي وأدركت كم كان طريقي طويلاً لا نهاية له وقلت لنفسي: «لقد مضى عليكَ وقت طويل وأنت لا تزال تغذّ السير، ضيفاً في مواطن كثيرة، ولكن الشوق والحنين لم يهدأ فيك، وبالرغم من أنك لم تعد غريباً، فإنك لما تستقر بعد».

لماذا لم أستقرّ بعد أن وجدت مكاني بين الناس الذين يؤمنون بالمعتقد نفسه الذي أصبحت أؤمن به؟.

منذ عامين، اتخذت لي زوجة عربية في المدينة، ورجوت أن تنجب لي صبياً. وعن طريق هذا الصبي -طلال، الذي رزقنا به منذ بضعة أشهر- بدأت أشعر بأن العرب هم أصهاري كما أنهم إخواني في الإيمان. إنني أريد أن يمد طلال جذوره عميقاً في هذه الأرض، وأن يترعرع واعياً عظمة دينه -الإسلام- وعظمة مسقط رأسه -جزيرة العرب-.

إن هذا يكفي لجعل الإنسان يرغب في الاستقرار نهائياً، وفي أن يبني لنفسه ولعائلته بيتاً دائماً. ولكن، لِمَ لم ينته تجوالي بعد، ولِمَ علي أن أستمر في طريقي هذا؟ لماذا لا ترضيني حياتي المعيشية التي اخترتها لنفسي إرضاء تاماً؟ ما هو الذي ينقصني في هذه البيئة؟ لا شك أنه لا تنقصني أشكال الحياة الأوروبية؛ لقد خلفتها ورائي، ولم أشعر -مرّة- بأنها تنقصني، بل قد أصبحت بعيداً جداً عنها بحيث أني أجد من العسير عليّ بصورة متزايدة أن أكتب إلى الصّحف الأوروبية التي أكسب منها معاشي؛ وكلما أرسلت مقالة إلى صحيفة أوروبية، فكأنما أرمي حجراً في بئر لا قرار له، فالحجر يختفي في الفراغ المظلم، ولا يرجع إليّ منه حتى الصدى لأعلم أنه قد وصل إلى غايته.

وبينما كنت أمعن الفكر حائراً مضطرباً، مغموراً إلى نصفي بالمياه في بئر هذه الواحة العربية، خيل إليّ أنني أسمع صوت ذلك الرحالة الكردي، وهو يقول: «إذا ركد الماء في الحوض فإنه يصبح آسناً موحلاً، ولكنه عندما يتحرك ويسيل فإنه يصبح صافياً». عندها زايلني القلق والاضطراب، وبدأت أنظر إلى نفسي بعينين بعيدتين، كما أنظر في صفحات كتاب، وشرعت أفهم أن حياتي لم تكن تستطيع أن تتخذ لها مجرى آخر. ذلك أنني إذا ما سألت نفسي: «ما هو حاصل حياتي؟» تخيلتها تجيبني: «لقد خرجتَ لاستبدال عالم بآخر؛ لتفوز بعالم جديد، عوضاً عن عالم قديم لم تملكه قط». وعرفت بوضوح عجيب، أن مثل هذه المهمة يمكن أن تستغرق عمراً بأكمله.

وتسلقت جدران البئر حتى خرجت منه، وارتديت الثوب النظيف الطويل الذي كنت قد أحضرته معي، وعدت إلى زيد. وشربت القهوة المُرّة التي قدمها إليّ، ثم تمددت وقد عاد إلي نشاطي ودفئي، قرب النار، على الأرض.

-٢-

كانت يداي متشابكتين تحت رأسي، وكنت أحدق النظر في تلك السماء العربية، بظلامها ونجومها. وسقطَتْ نجمة بسرعة هائلة، ثم تبعتها ثانية فثالثة، أقواس من نور تخترق ظلمة الليل. هل هي شظايا من كواكب تطير دونما هدف كما يقول

الفلكيون؟ إنك لو سألت زيداً عنها، لأخبرك أنها الشهب التي بها تُطرد الشياطين الذين يصعدون نحو السماء ليسترقوا السمع ويستطلعوا الغيب.

لقد ألفت هذا الاعتقاد عن السماء ونجومها كما لم آلف البيت الذي فيه قضيت طفولتي.

وكيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ منذ أن أتيت إلى الجزيرة العربية وأنا أعيش كما يعيش كل عربي. إنني أرتدي الثياب العربية، ولا أتكلم سوى اللغة العربية. والعادات والمعتقدات العربية، كيّفتْ أفكاري وصاغتها، ولم تَعُقْني تلك التحفظات العقلية التي تجعل -في العادة- من المستحيل على الأجنبي، مهما كان عارفاً بلغة البلاد وعاداتها، أن يجد الطريق الصحيح إلى مشاعر أهلها، وأن يجعل من عالمهم عالمه الخاص؛ ذلك أني اعتنقت الإسلام بلغته العربية وموطنه الأول جزيرة العرب، وبتفسيره للكون.

ولكن ألم يكن اعتناقي الإسلام عودة إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها؟ ومجيئي إلى هذه الأرض، ألم يكن عودة إلى وطن تلك الهجرة الطويلة التي قام بها أجدادي، الرعاة المتجولون، عندما خرجوا منذ آلاف السنين في فجر حياتهم -وقد استبد بهم النهم إلى الأرض والمغانم- نحو «كلدة» تلك البلاد الخصبة، تلك القبيلة البدوية الصغيرة من العبرانيين، أجداد ذلك الرجل الذي كان مُقدّراً أن يولد في «أور».

ذلك الرجل -إبراهيم- لم تكن قبيلته إلا واحدة من قبائل عربية كثيرة خرجت من حين إلى آخر من الصحارى المقفرة إلى عالم الأحلام التي قيل: إن اللبن والعسل كانا يجريان فيها. كان أفراد هذه القبائل ينجحون أحياناً في التغلب على المستوطنين ويقيمون أنفسهم حكاماً عليهم، ممتزجين تدريجياً بالشعوب المغلوبة على أمرها. وأدى ذلك إلى نشوء أمم جديدة، كالآشوريون والبابليين الذين شيّدوا مملكتهم على أنقاض مدينة السومريين، أو الكلدانيين الذين حكموا بابل، أو العموريون الذين عُرِفوا فيما بعد بالكنعانيين في فلسطين، والفينيقيين على شواطئ سوريا. وفي أحيان

أخرى كان البدو الغزاة أضعف من أن يَقهروا من سبقهم فامتصهم هؤلاء أو أرجعوهم ثانية إلى الصحراء ليبحثوا عن مراع أخرى، ولربما عن أراضٍ أخرى يغزونها. أما بطن إبراهيم فقد كان من تلك القبائل الضعيفة. والقصة التي ترويها التوراة عن إقامتهم في (أور) على حافة الصحراء تعود إلى العهد الذي وجدوا فيه أنهم لا يستطيعون أن يفوزوا لأنفسهم بمسكن جديد في أرض الرافدين، وكانوا على وشك الانتقال إلى الشمال الغربي على طول نهر الفرات نحو حرّان، ومن ثم إلى سوريا.

–٣–

ما أطول الطريق، من طفولتي وشبابي في أوروبا، إلى حاضري في شبه جزيرة العرب، ولكن ما أجمل الطريق أيضاً وأعذبها عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء.

كانت هناك سنوات الطفولة المبكرة في المدينة البولونية (لوو) والمعروفة أيضاً بـ (لمبرك) وكانت عندئذ جزءاً من النمسا. وكنت أسكن في بيت هادئ بهيّ كالشارع الذي كان قائماً فيه تماماً، ذلك الشارع الطويل الذي كان محوطاً بأشجار الكستناء على جانبيه، ومرصوفاً بلبنات خشبية كانت تكتم وقع حوافر الجياد وتحوّل كل ساعة من ساعات النهار إلى أصيل كسول. لقد أحببت ذلك الشارع الجميل أكثر مما كان ينتظر ممن كان في مثل سني؛ ليس لمجرد أنه كان الشارع الذي يقع فيه بيتنا، بل أحببته بسبب من تلك النفحة النبيلة التي كان ينساب بها نحو هدوء الغابات والمقبرة الكبيرة المختبئة فيها. كانت العربات الجميلة تقطع الشارع مسرعة أحياناً على عجلات صامتة مع وقع حوافر الجياد المتناغم، وإذا كان الوقت شتاء وكان الشارع مغطى بالثلج، كانت مراكب الجليد تنزلق عليه، وكان البخار يتصاعد كالغيوم من مناخير الجياد، وكانت أجراسها تجلجل في الهواء البارد، ولو قُدِّر لك أنت أن تجلس مرّة في المركبة، وأن تشعر بالصقيع يندفع ويلفح وجنتيك، إذن لعرف قلبك الصغير أن الجياد الرامحة إنما كانت تحملك إلى دنيا من السعادة لا يبدو لها أول ولا آخر.

وكانت هناك أشهر الصيف في الريف، حيث كان لجدِّي لأمِّي –وكان صيرفيّاً ثريّاً– أملاك واسعة يستمتع بها أفراد عائلته الكبيرة. كان هناك الجدول الصغير وعلى

ضفافه أشجار الصفصاف، والمخازن المشحونة برائحة الحيوانات والبرسيم وضحكات الفتيات الفلاحات المشغولات في المساء بحلب الأبقار. وكان لا بد لك من أن تشرب اللبن الدافئ يعلوه الزَّبَد -رأساً من الدّلاء- لا لأنك ظمآن، بل لأن من المثير أن تشرب اللبن فور خروجه من ثدي البقرة. تلك الأيام القائظة من شهر آب قضيتها في الحقول مع الفلاحين وهم يحصدون القمح، ومع النساء وهن يجمعنه في حُزَم، نساء شابات يطيب النظر إليهن، ثقيلات الأجسام، عامرات الصدور، ذوات أذرع دافئة قوية تشعر بقوتها عندما يدحرجنك -مداعبات- بين أكوام القمح.

وكانت هنالك تلك الرحلات التي قمت بها مع والدي إلى فينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال وبحر البلطيق؛ أمكنة نائية جداً بحيث بدت لي عوالم جديدة، ففي كل مرة يخرج فيها أحدنا للقيام بمثل هذه الرحلات يكاد يتوقّف قلبه عن الخفقان عند سماع الصيحة الأولى من صافرة القاطرة، وأول اهتزازة من عجلاتها، ترقباً لعجائب ستكشف له عن نفسها. وكان هناك أترابي، صبية وفتيات، أخ وأخت وأبناء عمومة كثيرون، وأيام الأحد تجلب الحرية بعد ذلك الركود طيلة أيام الأسبوع في المدرسة.

لقد كانت طفولة سعيدة مُرضية حتى في ذكراها. لقد كان والداي يعيشان في رخاء، وكانا يعيشان لأولادهم أكثر من أي شيء آخر. ولعله كان لوداعة أمي وهدوئها علاقة -أو تأثير- بالسهولة التي تمكنتُ بها -فيما بعد- من أن أُكيِّف نفسي للأحوال والظروف الجديدة. أمّا تبرّم أبي الداخلي، فلعلّ تأثيره عليّ أوصلني إلى ما أنا عليه اليوم من الرغبة في التجوال والتجديد.

ولو كان عليّ أن أصف أبي، إذن لتعين عليّ أن أقول: إن ذلك الرجل الظريف البهي، الدقيق البنية، ذا البشرة السمراء والعينين السوداوين العاطفيتين لم يكن سعيداً تماماً بالبيئة التي كان يعيش فيها. لقد كان يحلم في أيام شبابه الأول بأن يقف نفسه على الفيزياء، ولكنه لم يتمكن من أن يحقّق هذا الحلم، وكان عليه أن يقنع بأن يكون محامياً. وبالرغم من أنه قد نجح في هذه المهنة نجاحاً عظيماً، فإنه لم يستطع قط أن يجد فيها ما يحبّبها إلى نفسه. وقد يكون السبب في ذلك الشعور بالوحدة الذي كان يستبد به وإدراكه الدائم أن حرفته الحقيقية قد أفلتت من يديه.

وقد كان أبوه حاخاماً في عاصمة مقاطعة (بوكوفينا) التي كانت نمسوية وقتئذ . لا أزال أذكره شيخاً ظريفاً ذا يدين دقيقتين، ووجه حساس سريع التأثر، ولحية طويلة بيضاء . وإلى جانب اهتمامه الكبير بالرّياضيات والفلك، فقد كان من أمهر لاعبي الشطرنج في المقاطعة . ولعل هذا كان أساس صداقته الطويلة لمطران الرّوم الأرثوذكس، الذي كان هو نفسه لاعباً مشهوراً . لقد كان الاثنان يقضيان معاً ليالي عديدة جالسين إلى رقعة الشطرنج، ويطيلان جلوسهما ببحث الموضوعات الغيبيّة في دينهما . وكان يفترض أن جدي –الذي كانت له تلك العقلية الرياضية– سيرحّب بميل ولده –أبي– إلى الفيزياء . ولكن الظاهر أنه كان قد قرر منذ البداية أن يحفظ للعائلة التراث الرباني الذي احتفظت به عدة أجيال، ورفض حتى الكلام عن أي عمل آخر لوالدي . وقد يكون من الأمور التي ساعدت على تمسكه برأيه ذاك ذكرى أحد أعمامه القدماء، الذي خرج عن نهج العائلة فصبأ عن دين آبائه وأجداده .

ذلك العم الأسطوري القديم، الذي لم يُذْكَر اسمه بصوت عالٍ في بيتنا قط، كان يبدو أنه ترعرع وسط العائلة المحافظة نفسها . وعندما كان لا يزال حدثاً أصبح ربانيّاً، وزوّجوه من امرأة لم يشعر نحوها بأي قدر من الحب . وبما أن مهنة الحاخام لم تكن تدر دخلاً كافياً في تلك الأيام فقد عمل على زيادة دخله بالمتاجرة بالفراء، وكان ذلك يقتضيه أن يقوم كلّ عام برحلة إلى سوق الفراء المركزية في أوروبا (ليبزيك) . وفي يوم من الأيام، عندما كان قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر، خرج في مركبة يجرها جواد –وكان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر– للقيام بإحدى تلك الرحلات الطويلة . وفي (ليبزيك) باع فراءه كالمعتاد، وبدلاً من أن يعود إلى بلدته كما جرت عادته، باع عربته وجواده، وحلق لحيته وذهب إلى انكلترا . وهناك استمر زمناً يعمل خادماً كي يؤمن دخلاً يقيم أوده، ويدرس في الليل الرياضيات والفلك . والظاهر أن أحد مخدوميه قد أدرك مواهبه العقلية، فمكنه من أن يتابع دراساته في أكسفورد، حيث تخرج بعد بضع سنين عالماً ينتظره مستقبل لامع، واعتنق المسيحية . وبعد قليل من إرسال كتاب الطلاق إلى زوجته اليهودية، تزوج فتاة نصرانية، أي كافرة في عُرْف جدّي . ولم تعرف عائلتنا بعد ذلك شيئاً كثيراً من حياته إلا أنه قد توصّل

إلى منزلة مرموقة، فلكيّاً وأستاذاً في الجامعة، وأنه أصبح -فيما بعد- يحمل لقب (سير).

والظاهر أن هذه الأحداث المخيفة قد أقنعت جدي بضرورة اصطناع موقف متصلب جداً نحو ميل أبي إلى الفيزياء من علوم «الكَفَرة». لقد كان عليه أن يكون حاخاماً، لا لشيء إلا لأن جدي يرى ذلك. غير أن أبي لم يكن مستعداً للاستسلام والرضوخ بمثل هذه السهولة، ففي حين كان يدرس التلمود في أثناء النهار، كان يقضي جزءاً من الليل يدرس -سرّاً- منهاج إحدى المدارس الثانوية، ومع الزمن اعترف لوالدته بتلك الدراسة. ومع أن دراسة ابنها السرّية قد تكون أثقلت نفسها، فقد جعلتها طبيعتها السمحة تدرك أن من الظلم أن تحرمه الفرصة لاتباع ما كان قلبه يصبو إليه. وفي الثانية والعشرين من عمره تقدم إلى الامتحان ونجح فيه بامتياز. وعندما أصبحت شهادته في يده تجرأ على الإفضاء إلى جدي بالخبر الهائل. وأستطيع الآن أن أتصور المشهد الصاخب عندئذ، ولكن جدّي لان في نهاية المطاف، ووافق على أن يكف أبي عن دراساته الدّينية وأن يلتحق بالجامعة عوضاً عن ذلك. غير أن ظروف العائلة المادية لم تمكنه من أن يتابع دراسته الفيزياء. وكان عليه أن يتجه نحو مهنة تعود بربح أكبر -مهنة المحاماة- وأصبح مع الزمن محامياً. وبعد سنوات استقر في مدينة «لوو» في كاليسيا الشرقية، وتزوج أمي، وكانت إحدى أربع كريمات لصيرفيّ ثريّ في تلك المدينة. هناك في صيف عام ١٩٠٠ ولدت، فكنت ثاني ثلاثة لأبي وأمي.

بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة بدأ والدي يحابيني لأنني كنت أكثر اهتماماً بالأمور التي لا علاقة لها بكسب المال مباشرة ولا بـ«المهنة». على أن آماله التي عقدها على أن يجعل مني رياضياً قدر لها أن تظل بعيدة عن التحقيق. فبالرغم من أني لم أكن بليد الذهن، فقد كنت تلميذاً متصفاً باللامبالاة. وكانت العلوم الرياضية والطبيعية بصورة خاصة تجلب إلى نفسي الملل والسأم. وكنت أجد لذة لا حدّ لها في قراءة القصص التاريخية المثيرة ثم في قراءة الشعر والفلسفة، وكانت أعاجيب الجاذبية والكهرباء وقواعد اللغة اللاتينية واليونانية لا تحرك فيّ أيّ اهتمام بها، وكانت نتيجة

ذلك كله أنني لم أكن أنجح في الامتحان إلا بشق النفس. وكان ذلك مصدر خيبة أمل حادة لوالدي، ولكنه ربما وجد بعض العزاء أن أساتذتي كانوا راضين تماماً عن ميلي إلى الآداب البولندية والألمانية وإلى التاريخ كذلك.

وبمقتضى تقاليدنا العائلية، كنت قد درست -على أيدي أساتذة خصوصيين- العلوم الدينية العبرانية بتعمق كبير. ولم يكن مرد ذلك إلى أيّ ورع امتاز به أبواي، ذلك أنهما كانا ينتميان إلى جيل يخضع باللسان فقط إلى التعاليم الدينية التي سبكت حياة أسلافه وفي الوقت نفسه لم يسعَ قط إلى أن يعمل في حياته العملية بمقتضى تلك التعاليم. في مثل ذلك المجتمع، كان مفهوم الدين نفسه قد حط من مقامه وأصبح لا يعني سوى واحد من أمرين: الطقوس المبتدعة التي كان يتبعها أولئك الذين كانوا متمسكين عن طريق العادة وحدها بتراثهم، أو اللامبالاة الساخرة من قبل أولئك الذين كانوا يظنّون الدين خرافة عتيقة، يمكن للمرء في بعض المناسبات أن يظهر الامتثال لها، ولكنه يخجل منها في سره لأنه لا يمكن أن يدافع عنها عقلياً. وكانت جميع الظواهر تدل على أن والديّ ينتميان إلى الفئة الأولى، ولكنني أحياناً أكاد أعتقد أن أبي كان يميل إلى الفئة الثانية. على أنه -مراعاة لأبيه ووالد زوجته- قد ألح عليّ أن أدرس الكتب المقدسة. وهكذا لم أبلغ الثالثة عشرة من عمري حتى أصبح في استطاعتي أن أقرأ العبرانية بسهولة وأن أتكلمها بطلاقة.

وأصبحت لي -بالإضافة إلى ذلك- معرفة لا بأس بها بالآرامية، وهذا ما يمكن أن يفسر السهولة التي تعلمت بها اللغة العربية في ما تلا من السنين. لقد درست التوراة في الأصل، وأصبح نص التلمود وشروحه مألوفين لدي. كذلك أصبحت قادراً على أن أناقش بقدر كبير من الثقة بالنفس الفروق بين تلمود بابل وتلمود القدس، وانهمكت في شروح الكتاب المقدس المسماة «تاركوم» كما لو كان مقدراً عليّ أن أصبح حاخاماً.

وبالرغم من كل هذه المعرفة الدينية -أو لعله بسببها- سريعاً ما نما فيَّ شعور بالاستعلاء على كثير من المعتقدات اليهودية. كنت أوافق على مبدأ الصلاح الخلقي المؤكد بقوة في الكتب الدينية اليهودية، وعلى وعي أنبياء اليهود لله وعياً رفيعاً.

ولكن كان يبدو لي أن العهد القديم والتلمود، كانا مهتمّين -أكثر مما ينبغي- بالطقوس التّعبديّة، وخاصّين بأمة واحدة معينة، أعني العبرانيين؛ ولذلك بدا لي الدين اليهودي المعاصر مجرداً من أيّ رسالة عالمية.

ولكن بالرغم من أن تلك الدراسات المبكرة أبعدتني عن دين آبائي وأجدادي بدلاً من أن تقرّبني منه، فإنني كثيراً ما أعتقد أنها -في السنوات التي تلت- ساعدتني على أن أفهم الغرض الأساسي للدين، إلا أن خيبة أملي في اليهوديّة لم تؤدّ بي إلي أن أبحث عن الحقائق الدّينية في جهات أخرى؛ ذلك أنني -بتأثير من بيئتي التي كانت تعتقد بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي- انسقت مع التيار فأوصلني -شأن عدد كبير من أترابي-، إلى أن أنبذ عملياً كل دين. ولما كان ديني التقليدي لم يَعْنِ مطلقاً بالنسبة إليّ أكثر من سلسلة من الأنظمة والقيود، فإني لم أشعر بأيما ضير من جراء انجرافي بعيداً عنه، ذلك أن ما كنت أتطلع إليه لم يكن يختلف كثيراً عما كان يتطلع إليه معظم الصبية الآخرين: العمل والمغامرة والإثارة.

وفي أواخر عام ١٩١٤، بعد أن اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى وبدا لي أن الفرصة الكبرى لتحقيق أحلامي الصبيانية قد جاءت؛ كنت إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمري، فهربت من المدرسة والتحقت بالجيش النمسوي بعد أن اتخذت لي اسماً مزوراً. لقد كنت أطول مما تدل عليه سني، مما خدع رجال الجيش وجعلهم يعتقدون أنني في الثامنة عشرة، وهو العمر الأدنى للتجنيد وقتئذ. ولكن -بعد أسبوع- نجح والدي المسكين في أن يتعقب آثاري بواسطة الشرطة، فأعادوني مخفوراً حقيراً إلى فيينا، حيث كانت عائلتي قد استقرت قبل ذلك بزمن قليل. ولكنني، بعد سنوات أربع تقريباً، جُنّدت في الجيش النمسوي، إلا أنّه بعد بضعة أسابيع من انخراطي في سلك الجندية، اندلعت الثورة، وانهارت الإمبراطورية النمسوية، ووضعت الحرب أوزارها.

ولقد انصرفت طيلة عامين تقريباً بعد انتهاء الحرب إلى درس تاريخ الفنون والفلسفة في جامعة فيينا. ولكني لم أنصرف إلى تلك الدروس قلبياً. ذلك أن المسلك العلمي الهادئ لم يكن ليجذبني. وكنت أحس بالحنين والشوق إلى أن آلف الحياة بواقعية أكثر، وأن أدخل معتركها غير مسلح بأي من تلك الحصون الاصطناعية

التي يبنيها أولئك الذين يؤثرون السلامة والعافية حول أنفسهم. كذلك كنت أريد أن أجد بنفسي معنىً أسمى للحياة.

وقد نما قلقي وجعل من العسير عليّ أن أتابع دروسي الجامعية. وأخيراً قرّرت أن أتركها نهائياً، وأن أجرّب قلمي في الصحافة. ولكن أبي اعترض بشدة على ذلك بحجّة أنني قبل أن أقرر اتخاذ الصحافة مهنة لي يجب على الأقل أن أثبت لنفسي أنني أستطيع الكتابة. ثم انتهى -في ختام إحدى مناقشاتنا الحامية- إلى القول: «وعلى كل، فإن الشهادة الجامعيّة لم تمنع أحداً من أن يصبح كاتباً ناجحاً». لقد كانت حجته قويّة، ولكنني كنت صغير السن، مليئاً بالآمال، لا يقر لي قرار. وعندما أدركت أنه لن يبدّل فكره بدا لي أنه لم يبق إلا أن أبدأ حياتي بوسائلي الخاصة، فودّعت فيينا في يوم من صيف عام ١٩٢٠ وأخذت القطار إلى براغ دون أن أخبر أحداً.

وكان كل ما أملكه -إلى جانب أمتعتي الخاصة- خاتماً ماسيّاً كانت أمي التي توفيت قبل ذلك بسنة واحدة قد تركته لي. وقد بعت ذلك الخاتم بواسطة أحد الخدم في المقهى الأدبي الرئيسي في براغ، وسافرت إلى برلين، حيث قدّمني بعض أصدقائي من فيينا إلى بعض الأدباء والفنانين.

وبعد بضعة أسابيع -عندما خفّت ثورة أبي- كتب إلي يقول: «إنني لأظن أن حياتك ستنتهي في حفرة على جانب الطريق». فأجبته: «ليست الحفرة على جانب الطريق بمكان لي، بل إن القمّة هي التي ستكون منتهاي». لم أكن أعرف كيف سأصل إلى القمة، ولكنني كنت أريد أن يلمس أبي ثقتي بنفسي، مقتنعاً بأن عالم الأدب كان ينتظرني مفتوح الذراعين.

وبعد بضعة أشهر نفذت دراهمي وبدأت أبحث عن عمل، فعرضت نفسي على إحدى إدارات الصحف اليومية الكبرى، ولكنني وجدت أنها بعيدة المنال عليّ.

وبعد أسابيع من البحث المضني عن العمل في شوارع برلين، ومقابلات مخجلة مع رؤساء التحرير ورؤساء فروع الأخبار والمحررين الثانويين أدركت أن غِرّاً مثلي لم يخطّ في حياته سطراً في صحيفة لم يكن له أقل حظ بالعمل في صحيفة من الصحف.

وألفت الجوع، وقضيت أسابيع عدّة لا أقتات إلا بالشاي مع القرصين اللذين كانت صاحبة البيت تقدمهما إليّ في الصباح. ولم يستطع أصدقائي الأدباء في المقهى أن يفعلوا شيئاً من أجل مبتدئ لا خبرة له، وكان أكثرهم يعيشون في ظروف لا تختلف كثيراً عن ظروفي، يتقلبون من يوم إلى يوم على شفير العدم. وأحياناً كان أحدهم في غمرة نشوته ببيع مقالة أو صورة يقيم حفلة لزملائه ويدعوني إلي أن أقاسمه النعمة المفاجئة.

ولقد هممت مرّات عديدة بالكتابة إلى أبي ألتمس منه المساعدة. وقد كان خليقاً بأن لا يرفض طلبي، ولكن في كل مرة كانت كبريائي تتدخل فأكتب إليه أنبئه بالوظيفة الممتازة التي كنت أشغل، وبالمرتب الحسن الذي كان يدفع إليّ.

وأخيراً أصبت فترة من الحظ؛ لقد قُدّمت إلى مورنو، الذي كان وقتئذ يرتقي سلم الشهرة في إدارة الأفلام (قبل أن تخلع عليه هوليود قدراً كبيراً من الشهرة، وتودي به إلى ميتة غير منتظرة، ببضع سنوات). ومورنو، الذي كان يمتاز باندفاعية غريبة تحبّبه إلى أصدقائه جميعاً، أُعجب حالاً بالشاب الذي كان يتطلع بشوق ورغبة شديدين نحو المستقبل. لقد سألني ما إذا كنت أرغب في العمل تحت إدارته في فيلم جديد كان على وشك أن يبدأ به. وبالرغم من أن العمل كان مفروضاً فيه أن يكون مؤقتاً، فقد رأيت أبواب السماء مشرعة في وجهي عندما أجبت متلعثماً: «نعم، أرغب في ذلك».

وطيلة شهرين كاملين خاليين من المتاعب المادية، عملت مساعداً لمورنو، مستغرقاً بالكلية في خبرات جديدة تختلف عن كل ما عرفت في حياتي من قبل.

وعندما انتهى الفيلم، وكان على مورنو أن يرتحل إلى الخارج لأداء عمل آخر، استأذنته مودعاً، ومقتنعاً بأن أبواب الخير لا تزال مشرعة.

وبعد ذلك بوقت قصير، دعاني صديقي الحميم أنطون كوه -وكان صحفياً من فيينا برز حديثاً في النقد المسرحي- إلى أن أتعاون معه على وضع مشاهد فيلم كان قد كُلِّفَ بكتابته. وتقبلت الفكرة باندفاع وأسهمت في المخطوطة بقدر كبير، فعندما قبض أنطون أجره اقتسمه معي مناصفة. ولكي نحتفل بدخولنا إلى عالم الأفلام أقمنا حفلة في واحد من أحدث مطاعم برلين. وإذ تسلّمنا ورقة الحساب، وجدنا أن كل

المبلغ تقريباً قد أنفق ثمناً لهذا الاحتفال. بيد أن نجاحنا استمر، وباشرنا حالاً في الإعداد لفيلم آخر، وكانت القصة تدور حول (بلزاك) ووجدنا مشترياً لها في اليوم الذي أكملناها فيه، ولكني هذه المرة رفضت الاحتفال بنجاحنا، وذهبت عوضاً عن ذلك إلى بحيرات بافاريا، حيث استمتعت بإجازة امتدت عدة أسابيع.

وبعد سنة أخرى مليئة بالمغامرات في مدن أوروبا الوسطى، قمت خلالها بجميع أنواع الأعمال القصيرة الأجل، نجحت أخيراً في الولوج إلى عالم الصحافة.

كان ذلك في خريف عام ١٩٢١، وبعد فترة أخرى من الضيق المادي. ففي عصر يوم من أيام ذلك الخريف، بينما كنت جالساً في المقهى متعباً كئيباً، جلس إلى جانبي أحد أصدقائي. وعندما سردت على مسامعه متاعبي وهمومي قال لي:

– «قد يكون هناك فرصة مؤاتية لك. إن (دامرت) قد شرع في تأسيس وكالة أخبار خاصة به –بالتعاون مع وكالة الصحافة المتحدة الأمريكية (يونايتد برس)– هذه الوكالة ستدعى «يونايتد تلكراف» وإني لواثق من أنه سيكون بحاجة إلى عدد من المحررين المساعدين. سأقدمك إليه إذا أحببت».

وكان (دامرت) شخصية معروفة في أوساط برلين السياسية في العقد الثالث من هذا القرن العشرين، ومن هنا استهوتني فكرة العمل تحت إدارته.

وفي اليوم الثاني أخذني صديقي إلى مكتب (دامرت)، وقد بدا الرجل الكهل الأنيق طريفاً دمث الأخلاق. قال لي:

– «هل عملت صحفيّاً قبل الآن»؟.

فأجبته: «كلا، ولكن أتيح لي العمل في مجالات عديدة أخرى. إنني خبير ببلدان أوروبا الشرقية، وأعرف عدداً من لغاتها». (والحقيقة أن اللغة الأوروبية الشرقية الوحيدة التي كنت أتكلمها كانت اللغة البولونية، ولم تكن عندي سوى فكرة غامضة جداً عما كان يجري في ذلك الجزء من العالم، ولكنني كنت مصمماً على أن لا أدع الفرصة تفوتني بسبب من التواضع الذي لم يكن في محله آنذاك).

فابتسم (دامرت) نصف ابتسامة وقال : «آه، هذا ممتع، إن لي ميلاً إلى الخبراء ولكنني لا أستطيع أن أستخدم خبيراً في الشؤون الأوروبية الشرقية في هذا الوقت بالذات » .

لاحظ (دامرت) أثر الخيبة على وجهي، فتابع حديثه : « ومع ذلك فيمكنني أن أتيح لك نوعاً من البداية، ولو أنها قد تكون دون مستواك » . فاستوضحت بلهفة، وأنا أفكر في إيجار المنزل الذي لم أدفعه بعد : « وما هي البداية »؟ .

– « إنني بحاجة إلى مزيد من عمال الهاتف ينقلون الأخبار إلى صحف المقاطعات » .

لقد كان هذا في الحق دون ما كنت أطمح إليه . ونظرت إلى (دامرت) ونظر هو إليّ، ثم أجبته متنهداً وضاحكاً في الوقت نفسه : « لقد رضيت » .

وبدأت عملي في الأسبوع الثاني . لقد كان عملاً مملاً، ولا يمت بصلة إلى مهنة الصحافة التي كنت أحلم بها . لم يكن لديّ ما أعمل سوى أن أنقل بالهاتف أخباراً مطبوعة على قصاصة من الورق إلى العدد الكبير من صحف المقاطعات المشتركة بالوكالة . ولكنني أصبحت عامل هاتف ممتاز، وكان المرتب ممتازاً أيضاً .

واستمر ذلك قرابة شهر، وفي نهاية الشهر أتيحت لي فرصة لم أكن أنتظرها .

في تلك السنة –١٩٢١– حلت بروسيا السوفياتية مجاعة كبيرة . وكان مئات الألوف من الناس يموتون من الطوى . وكانت الصحف الأوروبية كلها تملأ أعمدتها بأوصاف مروّعة للوضع في روسيا، ووُضِعَت الخطط لعدد من أعمال الإغاثة الأجنبية على رأس أحدها (هربرت هوفر) الذي كان قد أسدى إلى أوروبا الوسطى أيادي بيضاء عديدة بعد الحرب .

وقاد مكسيم (كوركي) الروائي البلشفي إحدى الحملات داخل روسيا، وكانت نداءاته المؤثرة تحفز العالم كله . وفي ذلك الحين ترددت شائعات بأن زوجته ستزور قريباً عواصم أوروبا محاولة تعبئة الرأي العالمي لإسداء معونة أكثر فعالية وجدوى .

ولما كنت عامل هاتف فحسب، فإني لم أشترك مباشرة في هذه الحادثة المحركة للإحساس والعواطف، إلى أن ألقتني في وسطها ملاحظة عابرة سمعتها من صديقي البواب الليلي في فندق (إسبلاناد) أفخم فنادق برلين، وكانت الملاحظة: «هذه السيدة (كوركي) سيدة لطيفة جداً. إن أحداً لا يمكن أن يظنّ أبداً أنها من البلاشفة».

– «السيدة كوركي؟ وأين رأيتها بربك»؟.

وخفض صديقي من صوته حتى قارب الهمس وتابع قائلاً: «إنها تنزل في فندقنا تحت إسم منتحل». إنها لا تريد أن يرهقها مخبروا الصحف».

أية قصة مثيرة أستطيع أن أكتب إذا تمكنت من الحصول على مقابلة فريدة مع زوجة (كوركي) قبل أن تصل إلى الصحف كلمة واحدة عن وجودها في برلين.

وسألت صديقي: «هل تستطيع أن تمكنني من رؤيتها»؟

– «لا أدري، إنها عازمة على أن لا تقابل أحداً، ولكن إذا جلست في الردهة هذا المساء فقد أكون قادراً على أن أدلك عليها».

وعدت بسرعة إلى مكتبي في (اليونايتد تلكراف) وكان محرّر الأخبار –لحسن حظي– لا يزال جالساً إلى مكتبه، فأمسكت بتلابيبه:

– «هل تعطيني بطاقة صحفية إذا وعدت بإحضار قصة مثيرة»؟ فسألني والشك يخامره: «من أي نوع تكون قصتك هذه»؟.

– «أنت تعطيني البطاقة وأنا أعطيك القصة. فإذا لم أفعل، فإن باستطاعتك أن تستعيد البطاقة».

وأخيراً وافق الرجل العجوز، وغادرت المكتب فخوراً بامتلاكي البطاقة التي كانت تُسمّيني ممثلاً لليونايتد تلكراف. وقضيت الساعات التالية في ردهة فندق (اسبلاناد). وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً، التقطت إشارة صديقي المختلسة إلى امرأة كانت في تلك اللحظة تدخل من الباب الدوّار، لقد كانت امرأة صغيرة ناعمة في الخامسة والأربعين على وجه التقريب، مرتدية ثوباً أسود حسن التفصيل، وعلى

كتفيها دثار حريري طويل. لقد كانت ارستوقراطية خالصة في مظهرها، بحيث أنه كان من العسير الظنّ بأنها زوجة لشاعر الإنسان الكادح.

اعترضت طريقها، وشرعت في مخاطبتها بأعذب لهجة لي: «مدام كوركي». وبدا لي أنها أجفلت لحظة واحدة، إلا أن ابتسامة ناعمة أضاءت عينيها الجميلتين، وأجابتني بلغة ألمانية يشوبها أثر ضئيل من اللكنة السلافية: «أنا لست مدام كوركي، أنت مخطئ، إسمي»، وذكرت اسماً سلافياً.

فأصررت قائلاً: «لا، يا مدام كوركي. أنا أعرف أنني لست مخطئاً، وأعرف أيضاً أنك لا تريدين أن يزعجك الصحفيون، ولكن سماحك لي بالتحدث إليك بضع دقائق يعني شيئاً كثيراً جداً بالنسبة إليّ. إن هذه هي فرصتي الأولى للتقدم في عملي، وإنني لعلى ثقة من أنك لا تحبين أن تفوّتي عليّ تلك الفرصة». وأظهرتها على بطاقتي الصحفية وأردفت: «لقد حصلت عليها اليوم بالذات، وإن عليّ أن أعيدها، إلا إذا أبرزت قصة مقابلتي لك».

واستمرت السيدة تبتسم قائلة: «وإذا أقسمت لك أنني لست مدام كوركي، فهل تصدقني»؟.

- «إنني مستعد لتصديقك دون أن تقسمي، ولكنني مضطر للتّشبث بموقفي».

وانفجرت ضاحكة: «إنك تبدو ولداً صغيراً لطيفاً، لن أكذب عليك أكثر مما فعلت. أنت الرّابح ولكننا لا نستطيع أن نمضي بقية المساء هنا في الردهة، فهل لك أن تتناول الشاي معي في شقتي»؟.

وهكذا أُتيح لي تناول الشاي مع زوجة (كوركي) في جناحها. وقضتْ ساعة ونصف تقريباً وهي تصف لي أهوال المجاعة وفظائعها. وعندما فارقتها بعد منتصف الليل، كنت أحمل في جيبي حزمة كبيرة من الأوراق.

وفتح المحررون الثانويون الليليون عيونهم دهشاً لرؤيتي في تلك الساعة، ولكنني لم أزعج نفسي بإيضاح السبب، وذلك أنه كان عليّ أن أؤدي عملاً عاجلاً. وإذ جلست أكتب تفاصيل مقابلتي بأسرع ما أستطيع، طلبت -دون أن

أنتظر موافقة المحرّر– الاتصال هاتفياً، وبصورة عاجلة بجميع الصحف التي كنا نمدّها بالأخبار.

وفي صباح اليوم التالي حدثت المفاجأة، ففي حين أن كلّ كبريات صحف برلين لم تشر بكلمة واحدة إلى وصول زوجة (كوركي) إلى المدينة فإن جميع صحف المقاطعات التي كانت وكالتنا تزودها بالأخبار ذكرت في صفحاتها الأولى مقابلة ممثّل (اليونايتد تلكراف) الفريدة مع زوجة (كوركي). لقد أحرز عامل الهاتف انتصاراً من الدرجة الأولى.

وبعد ظهر ذلك اليوم عُقد مؤتمر للمحررين في مكتب (دامرت). ودعيت إلى الدخول، وبعد مقدّمة أوضح لي فيها ألا أعود إلى إرسال مادة إخبارية مهمّة دون أن يطّلع عليها محرر الأخبار أولاً، أُعلمت بأنني قد رقّيت إلى رتبة مخبر.

وهكذا صرت صحافياً.

– ٤ –

خطوات خفيفة على الرمل، إنه زيد عائداً من البئر يحمل قربة مملوءة بالماء. لقد وضعها على الأرض قرب النار، واستأنف عمله في طبخ عشائنا: أرز ولحم من جَمَل صغير ابتاعه من القرية قبل قليل. وبعد أن حرّك الأرز مرة أخيرة بمغرفته، استدار إليّ وقال:

– « هل تريد أن تأكل الآن، يا عم »؟ ودون أن ينتظر جوابي الذي كان يعرفه سلفاً، سكب محتويات القدر في صينية كبيرة ووضعها أمامي وملأ إبريق القهوة بالماء كيما أغسل يدي.

– « بسم الله، حيّاك الله ».

وجلسنا متربعين متقابلين، وشرعنا نأكل بأصابع اليد اليمنى.

لقد كان الصمت مخيماً علينا ونحن نأكل. إن أحداً منا لم يكن محدّثاً ممتازاً. فضلاً عن أنني استغرقت في الذكرى، أتذكّر تلك الأزمنة التي انقضت قبل مجيئي إلى جزيرة العرب، بل قبل لقائي زيد.

وبعد أن انتهينا من تناول عشائنا -إذ كنت متكئاً على رحلي وأصابعي تداعب الرمل وعيناي تحدقان في نجوم السماء العربية الصامتة- تمنيت لو أن بقربي أحداً أستطيع أن أقص عليه كل ما حدث لي في تلك السنوات البعيدة، ولكن لم يكن معي غير زيد. لقد كان رجلاً طيباً أميناً، وكان رفيقي في أيام وحدتي، وكان أريباً ثاقب الفكر مرهف الحس عارفاً بعاداتي وطرائقي. ولكنّي إذا نظرتُ إلى وجهه الحاد الأسارير، المحاط بالضفائر الطويلة، وهو ينحني تارة فوق إبريق القهوة باستغراق جاد، ويلتفت طوراً إلى الراحلتين وهما مستريحتان على الأرض تجتران بهدوء ووداعة، عرفتُ أنني كنت بحاجة إلى مستمع آخر، مستمع لم يلعب دوراً في ماضيّ البعيد، ولا حاضري القريب، مستمع أستطيع أن أكشف له عن ذكرياتي واحدة بعد أخرى، بحيث تراها عيناه، وبحيث تراها عيناي كرة أخرى.

ريـاح

-١-

كنا نسير ونسير، رجلان على راحلتين، بينما كان الصباح يتقدم ببطء. وقطع صوت زيد حبل الصمت عندما قال:

- «غريب، غريب جداً».

- «وما هو الغريب يا زيد»؟.

- «أليس غريباً يا عمي، أننا منذ بضعة أيام ونحن نحاول بجهد الوصول إلى تيماء، والآن تتغير وجهتنا نحو مكة؟. إنك متقلب الرأي مثل البدوي، مثلي أنا. أنسمح للرياح بأن تذرونا هكذا، لأننا لا نعرف ماذا نريد»؟

- «كلا يا زيد. نحن نسمح للرياح بأن تذرونا لأننا نعرف حتماً ماذا نريد، إن قلبينا يعرفانه وإن عجزنا أحياناً عن إدراكه».

ولعل قلبي قد عرف ما أريد منذ عشر سنوات خلت، عندما وقفت على سطح الباخرة التي كانت تقلّني في رحلتي الأولى إلى الشرق الأوسط، عبر البحر الأسود. كان البحر رصاصي اللون قاتماً، وكان رشاش الزبد ينتشر أحياناً على سطح الباخرة كما كانت ضربات المحرك شبيهة بخفقان القلب.

ووقفت عند حاجز الباخرة، أنظر إلى الفضاء الكثيف. ولو سُؤلتُ فيمَ كنت أفكر عندئذ، أو عن الآمال التي كانت تجيش في صدري أثناء رحلتي الأولى هذه إلى الشرق، لما استطعت أن أُعطي جواباً واضحاً. الفضول؟ ربما، ولكنه كان يهدف إلى أشياء غير بالغة الأهمية. إن ضباب قلقي، الذي بدا وكأنه ذو صلة بالضباب المتفجر فوق البحر، لم يكن موجهاً نحو بلدان غريبة وشعوب سألقاها في أيامي المقبلة، ولم تحتل تفكيري -إلا قليلاً- صور عن المدن والمظاهر الغريبة وعن الألبسة والعادات الأجنبية التي كان مقدراً لها أن تتكشف لي بمثل تلك السرعة. لقد كنت أنظر إلى

تلك الرحلة نظرتي إلى فترة استراحة بين فصول إحدى التمثيليات، وكنت في تلك اللحظة، قلقاً مذهولاً أفكر فيما مضى من أيامي.

في يوم من ربيع عام ١٩٢٢، تلقيت رسالة من خالي (دوريان) وكان الشقيق الأصغر لأمي. وكانت علاقتنا أقرب إلى أن تكون علاقة بين صديقين لا بين خال وابن أخته. كان طبيباً نفسانياً وكان في ذلك الوقت يرأس مستشفى للأمراض العقلية في القدس. لم يكن صهيونياً ولم يكن يعطف على أهداف الصهيونية، ولم ينجذب إلى العرب أيضاً، ولذا شعر بالوحدة والعزلة في عالم لم يكن يملك ما يقدمه إليه سوى العمل والدّخل. وإذ كان غير متزوج، فقد فكر في ابن اخته ليسلّيه في وحدته. وفي كتابه إليّ أشار إلى تلك الأيام البهيجة في فيينا حيث كان قد قادني إلى عالم التحليل النفسي الجديد، وختمه بقوله: «لماذا لا تأتي وتبقى معي بضعة أشهر هنا؟ إنني سأدفع نفقات رحلتك ذهاباً وإياباً، وستكون حرّاً في أن تعود إلى برلين في أي وقت تشاء. وفي أثناء مكوثك هنا، ستعيش في بيت حجري عربي بهيج. إننا سوف نمضي أوقاتنا معاً، وإن عندي عدداً وافراً من الكتب هنا، فعندما تسأم التطلع إلى المناظر البديعة من حولك، فإن بإمكانك أن تقرأ قدر ما تشاء».

وحزمت أمري بالسرعة التي كانت تتميز بها دائماً قراراتي المهمة، وفي صباح اليوم التالي أعلمت (دامرت) في (اليونايتد تلكراف) أن «قضية عملية مهمة» كانت تضطرني إلى الذهاب إلى الشرق الأوسط وأنه كان عليّ -لهذا- أن أترك الوكالة خلال أسبوع.

ولم أكن أتصوّر في ذلك الحين أن معرفتي الأولى بعالم الإسلام ستذهب أبعد جداً من حدود عطلة اختيارية، وأنها ستصبح نقطة تحوّل جذري في حياتي.

لقد كنت شاباً أوروبياً ناشئاً على الاعتقاد بأن الإسلام وكل تعاليمه لم يكن أكثر من طريق فرعي لتاريخ الإنسان، وأنه لذلك لم يكن ليقارن بالدينين اللذين يعدّهما الغرب جديرين بالنظر إليهما نظرة جدية، المسيحية واليهودية.

بهذا الإنحراف الأوروبي الغامض في فهم حقيقة الإسلام بدأت رحلتي الأولى في صيف عام ١٩٢٢، والآن أقف على سطح الباخرة في طريقي إلى الشرق، بعد أن حملتني في رحلة ممتعة إلى كونستنزا في رومانيا ومن هناك إلى هذا الصباح المليء بالضباب في البحر الأسود.

وبرز شراع أحمر من حجب الضباب ومر قريباً من الباخرة، وكانت القدرة على رؤيته إيذاناً بأن الشمس كانت على وشك الظهور من وراء الضباب.

وسمعت صوتاً عميقاً يقول: «صباح الخير»، فاستدرت وعرفت المعطف الأسود الذي كان يرتديه رفيقي في الليلة السابقة، كان هو القسيس اليسوعي (فالكس)، وكان يدرّس التاريخ في إحدى كليات الاسكندرية، وهو الآن عائد إلى هناك من عطلته. ولقد أمضينا السهرة بعد صعودنا إلى الباخرة في حديث ممتع، وبالرغم من أنه سريعاً ما اتضح أن رأيينا كانا مختلفين اختلافاً كبيراً في كثير من الأمور فقد كنت ناضجاً بحيث اعترفت أنني كنت أمام إنسان جاد ومرح في الوقت نفسه.

- «صباح، أيها القسيس (فالكس)».

وبدا لنا البوسفور طريقاً مائياً عريضاً تحيط به من جانبيه التلال الصخرية. كنا نرى، هنا وهناك، القصور الفسيحة والحدائق الغناء وأشجار السرو الشاهقة والقلاع الانكشارية القديمة، كتلاً ثقيلة من الحجارة المتراصة تتدلى فوق المياه كأعشاش الطيور الجارحة.

ثم ظهرت لنا قلعة «روميلي حصار» ذات البرجين، وكان أحد جدرانها ينحدر حتى يكاد يلامس سطح الماء، وعلى الشاطئ ضمن شبه الدائرة التي كوّنتها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة حالمة.

قلت لرفيق السفر مستأنفاً حديثنا البارحة: «إنني أشعر -وهذا شعور كثير من الناس الذين هم من جيلي- أن هناك خطأ ما في تفريق المسيحية بين الروح والجسد، إنني لا أستطيع أن أقر أن الدافع الجسدي خالٍ من كل صلاح. إن رغبتي تسير في اتجاه مخالف: إنني أحلم بشكل من الحياة يسعى فيه الإنسان كله -روحاً وجسداً- ويجاهد في كل سبيل تحقيق ذاتي أعمق، شكل لا يكون فيه الروح عدواً للجسد، وفيه يستطيع الإنسان أن يُحقّق ذاته، بحيث يستطيع أن يقول في أوج أيامه: إنني أنا مصيري».

- «ذلك كان حلم اليونان» أجاب القسيس، «وإلى ماذا أدى هذا الحلم»؟.

لست دائماً مبشِّراً، ولكن عفوك إذا تكلمت إليك عن إيماني -الذي هو ليس إيمانك-.

فأكدت له قائلاً: «ولكن ليس لي أيّ إيمان».

فأجاب: «نعم إن فقدان الدين، أو بالأحرى عدم القدرة على الإيمان، هو الضعف المركزي في عصرنا هذا. إنك تعيش وأمثالك الكثيرون في وهم كاذب يعود عمره إلى آلاف من السنين: الوهم القائل بأن العقل وحده يستطيع أن يوجّه حياة الإنسان. ولكن العقل لا يستطيع أن يصل إلى المعرفة الحقيقية للحياة، لأنه مستغرق في محاولة تحقيق أهدافه المادية. إن الإيمان -الإيمان وحده- هو الذي يستطيع أن يخلصنا من مثل هذا الضياع».

قلت: «ولكن كيف يتسنى للمرء أن يصل إلى الإيمان إذا لم يكن له إيمان؟ هل هناك طريق إليه نسلكه متى أردنا»؟.

- «يا صديقي العزيز! الإرادة وحدها لا تكفي. إن الطريق لا ينفتح إلا بنعمة الله وهدايته، ولكنه مفتوح دائماً لكل من يدعو الله من أعماق قلبه طالباً الهداية»؟.

- «يدعو الله؟ ولكن كيف يكون المرء قادراً على أن يفعل ذلك، دون أن يكون قد وصل إلى الإيمان فعلاً»؟.

وهز القسيس كتفيه أسفاً، وقال: «إذا لم يكن المرء قادراً على أن يحصل على هداية الله بنفسه، فإن عليه أن يتأسّى بالآخرين الذين حصلوا عليها فعلاً».

وبعد بضعة أيام نزلنا في الاسكندرية، وغادرتها في أصيل اليوم نفسه إلى فلسطين.

وانطلق القطار عصر ذلك اليوم كالسهم عبر أراضي الدلتا الناعمة الرطبة. واعترضت طريقنا قنوات النيل، تظللها أشرعة الكثير من الصنادل، وكانت المدن الصغيرة ومجموعات البيوت الشهباء والمنارات تظهر وتختفي، والقرى المؤلفة من الأكواخ الطينية، وحقول القطن المحصود، وحقول قصب السكر النابت، وأشجار النخيل الباسقة حول مسجد القرية، والجواميس الثقيلة عائدة إلى حظائرها من البرك الموحلة حيث كانت تتمرغ أثناء النهار. وفي المدى البعيد، رجال بأثوابهم الطويلة،

لقد بدوا وكأنهم يسبحون، ذلك أن الهواء كان خفيفاً وصافياً جداً تحت السماء المرتفعة الزرقاء. وعلى ضفاف القنوات كانت قضبان القصب تتمايل في الهواء، والنساء بأثوابهن السوداء يغرفن الماء في الجرار الفخارية، نساء مدهشات، رشيقات القدود، طويلات الأطراف، ذكرتني مشيتهن بالنبات الطويل الساق إذ يتأرجح بلطف -ولكن بقوة كاملة- في الهواء.

وهبط الليل، ووصلنا إلى قناة السويس، واستدار بنا القطار في زاوية مستقيمة، ثم انزلق هنيهة نحو الشمال بمحاذاة الضفة الرمادية. لقد كانت القناة في الليل أشبه بلحن طويل، وأحال ضوء القمر الممر المائي إلى شيء يشبه طريقاً مرصوفاً عريضاً كالذي يتبدى في الحلم، أو شريطاً أسود من المعدن المتألق. وفسحت تربة وادي النيل المجال لسلاسل من الهضاب الرملية أحاطت بالقناة من الجانبين بشحوب وحدّة نادراً ما يراهما الناس في أيّ منظر ليلي آخر.

وفي القنطرة انقطعت رحلة القطار المصري وحملتْ «معدّية» بطيئة المسافرين عبر المياه الصامتة. وكان علينا أن ننتظر ساعة قبل أن يتحرك القطار الفلسطيني، فجلست أمام بناء المحطة.

وحملني القطار عبر صحراء سيناء، وكنت تعباً جداً وفي حاجة إلى النوم ولكن لم يعرف النوم طريقه إلى عيني بسبب برد الليل القارس في الصحراء واهتزاز القطار فوق القضبان المثبتة على الرمال. وجلس قبالتي بدوي ملتف بعباءة كبيرة بنية اللون، وكان هو الآخر يرتجف من البرد. كان جالساً القرفصاء على المقعد، وعلى ركبتيه سيف منحن في غمد محلّى بالفضة. وبدأ الفجر يطلع، وعلى ضوئه النامي، ظهرت مجموعة من بيوت الشعر السوداء ومرت مسرعة.

كانت الصحراء إلى اليمين والبحر إلى اليسار، وكان على الشاطئ راكب بعير منفرد، لعله ظل راكباً طيلة الليل. لقد بدا لي الآن وكأنه نائم، غائر في الرّحل، وكان الإنسان والحيوان يتأرجحان معاً بتناغم واتساق. وظهرت بيوت الشعر مرة أخرى، وكانت النسوة قد خرجن منها يحملن على رؤوسهن الجرار الخزفية في طريقهن إلى البئر.

وأرتفعت الشمس في كبد السماء، ودخلنا واحة العريش التي تحف بها أشجار النخيل. ولقد رأيت امرأة على رأسها جرة مملوءة بالماء عائدة ببطء من البئر فوق طريق ممتدّ تحت النخيل. كانت ترتدي ثوباً ملوناً بالأزرق والأحمر يجرّ وراءه ذيلاً طويلاً، وكانت أشبه بأميرة من أميرات الأساطير.

وأختفت حدائق النخيل فجأة كما ظهرت فجأة، وكنا الآن نسير عبر الضياء البراق. وفي الخارج وراء زجاج القاطرة المترجرج كان هدوء لم أستطع تصوره من قبل. ومرة أو مرتين رأيت بدواً حفاة الأقدام وقافلة من الجمال محملة بسعف النخيل. وشعرت بنفسي أسير ذلك المنظر الخلوي البديع.

ووقفنا مرات عديدة في محطات صغيرة لم تكن أكبر من أكواخ من خشب وصفائح. وكان الأولاد السمر، وعلى أجسامهم خرق بالية، يركضون هنا وهناك يحملون السلال ويعرضون على المسافرين التين والبيض المسلوق وأرغفة الخبز العربي الطازج. ونهض البدوي الذي كان جالساً قبالتي ببطء وحلّ عمامته ثم فتح النافذة، فإذا به دقيق الوجه أسمر اللون، واحد من تلك الوجوه الحادة التي تتطلع دائماً إلى الأمام بعزمٍ وتصميم. لقد ابتاع قطعة من الفطير ثم استدار، وكان على وشك الجلوس عندما وقعت عيناه عليّ، ودون أن ينطق بكلمة، قسم فطيرته إلى نصفين وقدم إليّ أحدهما. وعندما رأى ترددي ودهشتي ابتسم، ورأيت أن الابتسامة اللطيفة كانت تلائم وجهه مثل التصميم الذي بدا عليه منذ لحظة، وقال: تفضل. وأخذت قطعة الفطير وشكرته بإيماءه من رأسي. وتطوع للترجمة مسافر كان يرتدي باستثناء طربوشه الأحمر ـ الثياب الأوروبية، فقال بلغة انكليزية متقطعة:

– «إنه يقول إنك أنت مسافر، وهو مسافر، وطريقكما واحدة» وعندما أفكر الآن بذلك الحادث البسيط، يخيل إليّ أن حبي للخُلُق العربي في ما بعد قد تأثر به. ذلك أن في بادرة هذا البدوي الذي شعر رغم جميع حواجز الغربة بصداقة رفيق عابر له في السفر فقاسمه الخبز، نفحةً من الإنسانية أحسست بها خالية من أي تصنع أو تكلّف. وبعد هنيهة قصيرة وصلنا إلى غَزّة، فبدت مثل قلعة قديمة، تعيش حياتها المنسية على رابية رملية بجوار البحر. وجمع رفيقي البدوي أخراجه وحيّاني بابتسامة رزينة وإيماءة

من رأسه، ثم غادر العربة ساحباً معه التراب بذيل عباءته الطويل. ووقف بدويان آخران ينتظرانه فصافحاه مرحبين به، وطبعا قبلة على كلٍّ من خدّيه.

ووضع المسافر الذي تطوع للترجمة يده على ذراعي وقال: «تعال، لا يزال أمامنا ربع ساعة».

وكانت قافلة مخيمة وراء بناء المحطة، وكان أفرادها، كما أخبرني رفيقي، بدواً من شمالي جزيرة العرب كانت وجوههم سمراء مغبرة حادة، وكان صديقنا البدوي واحداً منهم. وقد ظهر لنا أنه شخص مهم، ذلك أنهم وقفوا حوله في نصف دائرة، وأخذوا يجيبون على أسئلته. وتحدث رفيقي فالتفتوا نحونا وأمارات الود على وجوههم. لقد كان يغمرهم جو من الحرية، وشعرت برغبة قوية في أن أفهم حياتهم. وبدا يتضح لي أن أولئك الناس الذين يأتون من محيط الصحراء لا بد أن يحسوا الحياة بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن أولئك الذين يعيشون في المدن الأوروبية، إنهم لا بد أن يكونوا متحررين من كثير من القيود الوهمية التي تتميز بها حياة سكان البلاد الأكثر برودة وغنى، وأن يكون لهم مقياس مختلف للقيم يقيسون به شتى الأمور. ولعل شعوراً داخلياً بانقلابات مقبلة في حياتي استولى عليّ في ذلك اليوم الأول من أيامي في بلد عربي لدى رؤية البدو، شعور داخلي بعالم لا حدود له ولكنه ليس عديم الشكل عالم كان من المقدر أن يصبح سريعاً عالمي أنا.

– ٢ –

وعصفت ريح شديدة في الصحراء، مما جعل زيداً يظن هنيهة أننا سنواجه عاصفة رملية أخرى. ومع أن العاصفة الرملية لم تهب، فإن الريح ظلت تلازمنا وتتبعنا بعزيف واحد غير منقطع بينما انحدرنا في أحد الأودية الرملية. وكانت القرية في وسط الوادي كثيرة النخيل، مؤلفة من عدة بيوت منفصلة يحيط بكل منها حائط من طين، وتكتنفها الرمال من كل جانب.

كانت هذه المنطقة (جحر رياح) في كل يوم، من مطلع الفجر حتى غروب الشمس تعصف الرياح بأجنحتها القوية، ولا تهدأ إلا في الليل لتهب في الصباح

التالي بقوة متجددة . وكانت أشجار النخيل بسبب من ضغط الريح الدائم، لا تستطيع أن تنمو نمواً كاملاً، بل تظل قريبة من الأرض، تنشر سعفها العريض على جوانبها في خطر دائم من الكثبان الزاحفة، ولا شك في أن القرية لا بد أن تكون قد دفنت تحت الرمال منذ زمن طويل لو لم يعمد سكانها إلى زرع شجر الأثل حول كل حديقة من حدائقها، ذلك أن هذه الأشجار الصّامدة تشكل جذوعها القوية وأغصانها الدائمة الخضرة جداراً حياً حول المزروعات وتسبغ عليها أمناً مبهما .

وحططنا الرحال أمام بيت أمير القرية المبني من الطين، وعزمنا على أن نستريح هناك ونتفادى حر الظهيرة، وكانت قاعة القهوة المخصصة لاستقبال الضيوف جرداء خالية إلا من حصير موضوع قرب موقد القهوة الحجري. ولكن الضيافة العربية -كالعادة- تغلب كل فقر. ذلك أننا لم نكد نجلس على الحصير حتى أخذت النار تتقد في الموقد وأسبغ رنين الهاون -الذي كانت حبوب البن المحمّص الطازج تدق فيه- حياة على القاعة، وقدمت إلينا قصعة مليئة بالتمر.

ودعانا مضيفنا -وكان شيخاً قصيراً في عينيه ضعف وعلى جسمه رداء قطني وعلى رأسه عمامة- إلى الطعام قائلاً :

- «أطال الله عمركما. البيت بيتكما فكُلا باسم الله. هذا كل ما عندنا» ثم قام بحركة اعتذارية من يده، وكانت حركة بسيطة تجلّى فيها وزن حاله العسير، «ولكن التمر ليس رديئاً، فكلا أيها المسافران مما نستطيع أن نقدمه اليكما».

والحق أن ذلك التمر كان من أفضل ما طعمتُ طول حياتي، وكان واضحاً أن مضيفنا كان مسروراً من جوعنا الذي كان بمقدوره أن يذهب به ، وتابع قائلا :

- «الريح، الريح. إنها تجعل حياتنا قاسية، ولكنها إرادة الله. إن الريح تهلك نخيلنا،وإن علينا دائما أن نناضل حتى لا تغطيها الرمال. ولم تكن هذه حالنا دائما. في السابق لم تكن الريح بهذه القوة، وكانت القرية كبيرة وغنية. أما الآن فقد صغرت، وإن كثيراً من شبابنا يهجروننا،إذ ليس كل واحد يستطيع احتمال حياة كهذه. ولكننا لا نشكوا، فكما تعلمان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبو الدهر فإن الله هو الدهر».

ولابد أنني قد أجفلت، ذلك أن الرجل توقف عن الكلام ونظر إليّ بانتباه وكأنما عرف سبب إجفالي،ثم ابتسم ابتسامة عذبة رقيقة –نادراً ما تراها على شفتي مثل ذلك الوجه التعب المنهوك القوى ـ قائلاً : «نعم إن الله هو الدهر ، فهو خالقه ومدبره»، وفي تلك الإيماءة التي كانت تصاحب كلماته، كان يظهر ذلك الرضى الفخور الصامت بمكانه الخاص في الحياة، ولم أر قط في حياتي، حتى لدى السعداء من الناس انصياعاً للحقيقة معبراً عنه بمثل هذا القدر من الهدوء والإطمئنان.

وعادت بي الذاكرة إلى ذلك اليوم من أيام الخريف في القدس منذ عشر سنوات، عندما تحدث إلي شيخ آخر قائلاً : «إن الرضى بقدر الله والتسليم لأمره ضمان لطمأنينة النفس وسعادة العيش في الدنيا وحسن المصير في الآخرة».

في ذلك الخريف من عام ١٩٢٢، كنت أعيش في بيت خالي دوريان، داخل مدينة القدس القديمة، وكانت السماء تمطر كل يوم تقريباً، مما لم يمكني من الخروج إلا قليلا. ولذا فإني كثيراً ما كنت أجلس إلى النافذة التي كانت تطل على فناء متسع وراء البيت. وكان هذا الفناء ملكاً لرجل عربي هرم كان يؤجر الحمير للركوب وحمل الأثقال، وهكذا صار الفناء نُزُلاً لمبيت القوافل.

وفي كل صباح، قبيل الفجر، كان يؤتى بأحمال الخضرة والفاكهة إلى ذلك الفناء على الجمال من القرى المجاورة، لترسل من هناك على الحمير إلى الأسواق الضيقة في المدينة. وفي أثناء النهار كانت الجمال الثقيلة ترى مضطجعة على الأرض، والرجال منهمكين في العناية بها وبالحمير،إلا إذا لجأوا إلى الاسطبلات وقاية لأنفسهم من المطر المنهمر. لقد كانوا فقراء لا تستر أجسامهم سوى ثياب رثة بالية، ولكنهم كانوا يتصرفون كالسادة العظام. وعندما كانوا يجلسون معاً لتناول الطعام على الأرض، ويأكلون أرغفة الخبز المنبسطة مع قليل من الجبن أو حبات الزيتون، لم أكن أستطيع إلا أن أعجب بنبل جَلَدهم واحتمالهم وهدوئهم الداخلي، وكنت أرى أنهم يكنون الاحترام لأنفسهم ولأمور حياتهم اليومية. وكان صاحب الفناء يتجول بينهم مستنداً إلى عصاه . ورأيت أنهم يطيعونه دون تردد أو سؤال. وكان يجمعهم خمس مرات في اليوم للصلاة وكانوا يؤدونها في الخلاء إذا لم يكن المطر منهمراً بغزارة.

كانوا يتطهرون للصلاة بغسل وجوههم وأطرافهم، ثم يقفون جميعاً في صف طويل واحد، وكان هو إمامهم يتقدّمهم. كانوا كالجنود في دقة حركاتهم ـ ذلك أنهم كانوا يركعون معاً باتجاه مكة، ثم يسجدون حتى تستقر جباههم على الأرض. وكانوا ينصتون إلى قراءة إمامهم المتأنّية وحركاته الخاشعة وكان يقف في صلاته واضعاً يديه فوق صدره، تالياً كتاب ربّه في استغراق عميق؛ لقد كان من الواضح أنه كان يصلي بجسمه وقلبه معاً .

أزعجني أن أرى مثل تلك الصلاة الخاشعة مقترنة بحركات جسدية، فسألت الشيخ ذات يوم، وكان يفهم الإنكليزية قليلاً :

– «هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له احترامك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه وأن يصلي في نفسه»؟ ولم أكد انطق بهذه الكلمات حتى شعرت بالندم ذلك أنني لم أكن أريد أن أجرح شعورهم الديني، ولكن لم يبد عليه قط أمارات الاستياء، لقد افتر فمه، الخالي من الأسنان، عن ابتسامة، وأجاب :

– «بأية طريقة أخرى، إذن يمكن أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسد والنفس معاً؟ أفلا يجب أن يصلي الأنسان بجسده كما يصلي بقلبه؟ اسمع مني سأفهمك كيف نصلي نحن المسلمين، إن الله أمرنا أن نستعد للصّلاة بتطهير أجسامنا وذلك بغسل وجوهنا وأفواهنا وأنوفنا وأيدينا وأرجلنا ونمسح رؤوسنا وآذاننا، وأمرنا بعد ذلك أن نولي وجوهنا جميعاً حيثما كنا نحو الكعبة، بيت الله الحرام في مكة، وأن نجعل الله هو محور تفكيرنا جميعاً. نحن نقف أولاً مستقيمين ثم نقول : الله أكبر، مذكرين أنفسنا بأنه ما من أحد يستحق أن يعبد إلا الله. ونقرأ شيئاً من القرآن الكريم، ذاكرين أنه كلمة الله أنزلها على الإنسان كيما يكون مستقيماً في الحياة، ثم نركع لله ، ونسبح بحمده وعظمته. وبعد أن نرفع من الركوع ونحمد الله، نسجد على الأرض ونسبّح باسم ربنا الأعلى. ثم نرفع وجوهنا عن الأرض ، ونستوي جالسين داعين الله أن يغفر ذنوبنا وأن يرحمنا ويهدينا الصراط المستقيم، وأن يهبنا العافية والرزق. ثم نسجد ثانية على الأرض تأكيداً لخضوع أجسامنا وقلوبنا تجاه علوّ الواحد الأحد وعظمته.

وبعد ذلك نستوي جالسين وندعو الله أن يصلي على النبي محمد الذي أبلغنا رسالته وعلى آله، كما صلى على النبي إبراهيم وعلى آلة من قبله، وأن يبارك عليه وعلى آله كما بارك عليهم، ونسأله أن يعيذنا من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال، وأن يعيننا على شكره وذكره وحسن عبادته، وفي النهاية نلتفت بوجوهنا إلى اليمين قائلين: (السلام عليكم ورحمة الله) ثم إلى الشمال قائلين مثل ذلك ، وبذلك نحيّي كل من كانوا صالحين من عباد الله حيثما كانوا . هكذا كان النبي يصلي، وهكذا علّم الناس الصلاة، كيما يُسلموا أنفسهم إلى الله مختارين طائعين، وهذا هو معنى الإسلام، ويصرفوا إليه حياتهم ومصائرهم في الدنيا والآخرة .

وبعد ذلك بسنوات عده أدركت أن الشيخ قد فتح لي أول باب للدخول في دين الإسلام، وقبل أن يخالجني الأمل بأن الإسلام يمكن أن يصبح ديناً لي، بدأت أشعر بخضوع غير عادي كلما رأيت رجلاً يقف على الأرض العارية، يداه فوق صدره، ساكن الحركات ،مستغرقاً بالكلية في عبادة الله كما أمره الله، سواء كان ذلك في أحد المساجد أو على رصيف أحد الشوارع المكتظة .

وجدت أن (البيت العربي الحجري) الذي كتب إلى خالي دوريان عنه كان جميلاً يبعث على البهجة والإنشراح، كان يقوم في طرف المدينة القديمة قرب (بوابة يافا) . وكانت غرفه الرحبة ذات السقوف العالية تبدو وكأنها مشبعة بالذكريات عن الحياة الكريمة التي مرت بها الأجيال الماضية، وجدرانه ترجع الحاضر الحي، يصطخب فيها من السوق المجاورة مناظر وأصوات وروائح لم أعرفها من قبل .

ومن السطح كنت أرى المدينة القديمة بشوارعها وأزقتها الملتوية كأنها منحوتة من الصخر . وفي الطرف الآخر كنت أرى المسجد الأقصى، أكثر المساجد قدسية بعد مسجد مكة ومسجد المدينة .

كانت القدس عالماً جديداً عليّ . كانت هناك ذكريات تاريخية تنبعث من كل زاوية من زوايا المدينة القديمة، الشوارع التي أصغت إلى موعظة النبي أشعيا،

والأحجار التي مشى عليها النبي عيسى صلّى الله وسلم على جميع أنبيائه ورسله، والجدران التي كانت قديمة عندما رجّعت خطو الجيوش الرومانية، والأقواس فوق المداخل تذكر بالعمارة البيزنطية . وكانت هناك زرقة السماء الداكنة، المألوفة لدى من يعرفون بلدان البحر الأبيض المتوسط الأخرى. أما أنا الذي نشأت في بلاد لا تتمتع بمثل ذلك الجو البديع، فإن هذه الزرقة كانت لي بمثابة نداء ووعد، وكانت البيوت والشوارع تبدو وكأنها مكسوة بطلاء خزفي متموج لطيف، وكان الناس من العرب يوحون إلى من يراهم أنهم أصحاب الأرض، نشأوا من ترابها وتاريخها، وكانوا جزءاً لا يتجزأ من الهواء الذي يحيط بها.

وأمام بيت خالي دوريان، على مسافة أربعين متراً، ارتفعت جدران القلعة القديمة، التي عفى عليها الزمن، تلك القلعة التي كانت جزءاً من استحكامات المدينة القديمة، قلعة عربية نموذجية من العصور الوسطىٰ لعلها بنيت على أسس هيرودية ذات برج نحيل للمراقبة يشبه المئذنة. وعلى جانب المدينة القديمة كان هناك برج عريض منخفض يمتد خلاله المدخل وجسر حجري يصل الخندق القديم بالبوابة.

وذات يوم لاحظت بدوياً طويل القامة يقف هناك دون حراك، وكان وجهه الذي تميزه لحية قصيرة حمراء، يحمل معنى الجد والرزانة العميقين.

كان واقفاً كأنما كان يتوقع شيئا لم يكن متفائلا به، كانت عباءته الفضفاضة المقلمة بالأحمر والأبيض، بالية مهلهلة. وخطرت لي فكرة خيالية ـ لم أدر لها سبباً ـ أن تلك العباءة قد بليت خلال زمن طويل من المخاطرة والهرب، فهل هو أحد المحاربين الذين صحبوا النبي داود. ينتظر هنا مجيء رفيقه غير مستبشر بما سيجري لداود على أيدي أعدائه؟ .

وتحرك البدوي فجأة ، ثم شرع يهبط الجسر، واستفقت من تلك الفكرة الخيالية التي خطرت لي. وعندها تذكرت: هذا الرجل هو عربي، في حين أن أولئك القوم الذين جاء ذكرهم في التوراة كانوا عبرانيين! ولكن دهشتي لم تدم إلا لحظة واحدة، ذلك أني عرفت حالاً ـبذلك الوضوح الذي يلتمع فينا أحيانا كالبرقـ أن داود وزمن داود شأن إبراهيم وزمن إبراهيم، كان أقرب إلى جذورهما العربية وكذلك إلى هذا البدوي من يهودي اليوم، القادم من أطراف الدنيا.

وكثيراً ما كنت أجلس على حجر تحت بوابة يافا أراقب الجماهير المزدحمة تدخل المدينة القديمة أو تخرج منها: كان الناس هنا يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب يهوداً وعرباً على اختلاف ألوانهم. كان هناك الفلاحون الأشداء بعمائمهم البيضاء أو البنية أو البرتقالية اللون. وكان هنالك البدو بوجوههم الصارمة النحيلة، يرتدون عباءاتهم بطريقة توحي بالثقة بالنفس، ويضعون أيديهم على خواصرهم مباعدين بين مرافقهم كأنما هم واثقون أن كل من يراهم لا بد أن يخلي لهم الطريق.

وهناك الفلاحات بحللهن المصنوعة من الخام الأسود أو الأزرق المشرب بالأبيض عند الصدر، يحملن غالباً السلال على رؤوسهن ويخطرن برشاقة لدنة سهلة، ولو قدر لك أن تَراهُنّ من الوراء إذن لحسبت من كانت منهن في سن الستين فتاة في مقتبل العمر.

وكان هنالك اليهود، يهود محليون، يلبسون الطرابيش والعباءات المتسعة الكثيرة الطيات ويشبهون العرب إلى حد بعيد، ويهود من بولندا وروسيا يبدون وكأنهم يحملون معهم كثيراً من تفاهة حياتهم الماضية في أوروبا وضيقها، حتى أنك لتدهش من دعواهم أنهم من الأرومة نفسها التي ينتمي إليها اليهودي من مراكش أو تونس ببرنسة الأبيض. إلا أنه بالرغم من أن اليهود الأوروبيين كانوا غير منسجمين مع الصورة المحيطة بهم، فقد كانوا هم الذين يرسمون الحياة والسياسة اليهودية، مما جعلهم يبدون مسؤولين عن الاحتكاك أحياناً بين اليهود والعرب. ماذا كان الأوروبي العادي يعرف عن العرب في تلك الأيام؟ لا شيء تقريباً، لقد حمل معه عندما جاء إلى الشرق الأوسط بعض الأفكار الخيالية. وأنا أيضاً، قبل أن آتي إلى فلسطين لم يخطر ببالي أنها أرض عربية. لقد كنت أعرف أن بعض العرب يعيشون هناك، ولكنني لم أتصورهم سوى قوم رحل في خيام صحراوية، وسكّان واحات رعاة. وبسبب من أن ما كنت قد قرأته عن فلسطين في الأيام السابقة كان بأقلام الصهيونيين، فإنني لم أدرك أن المدن كانت مليئة بالعرب، وأنه كان في فلسطين في ذلك العام -١٩٢٢- خمسة من العرب مقابل كل يهودي واحد، وأن فلسطين - بالتالي - كانت بلداً عربياً أكثر منه يهودياً إلى درجة بعيدة جداً.

وعندما أبديت هذه الملاحظة لأوسيشكين، رئيس اللجنة الصهيونية التنفيذية، الذي التقيته حينذاك وجدت أنه ـ مثل بقية الصهيونيين لا يكن احتراماً لمقاومة العرب للصهيونية ولم يظهر سوى الازدراء بالعرب. قال لي:

- «ليس هناك حركة عربية حقيقية ضدنا؛ إن كل ما تعتبره مقاومة للصهيونية إن هو في الحقيقة إلا صراخ عدد ضئيل من المشاغبين الساخطين. إنها ستنهار من تلقاء نفسها خلال بضعة أشهر أو بعض سنين على الأكثر».

ولكن هذا القول ما كان يقنعني. لقد شعرت منذ البداية أن فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين فكرة مصطنعة من أساسها وأنها كانت تهدد بنقل جميع مشاكل الحياة الأوروبية وتعقيداتها غير القابلة للحل إلى بلد كان يمكن أن ينعم بقدر أكبر من السعادة دونها. إن المهاجرين اليهود لم يكونوا يأتون إلى فلسطين كما يعود المرء إلى وطنه، ولكنهم كان يعتزمون تحويلها وطناً يهودياً على النمط الأوروبي. لقد كانوا أعداء داخل الأسوار، وهكذا فإنني لم أجد أيّ خطأ أو جور في عزم العرب على مقاومة فكرة الوطن اليهودي في صميم بلادهم، بل على العكس، أدركت أن العرب هم الذين كانوا يُخدعون، وأنهم كانوا على حق بدفاعهم عن أنفسهم ضد هذه الخديعة.

في تصريح بلفور عام ١٩١٧، ذلك التصريح الذي وعد اليهود (وطناً قومياً) في فلسطين، رأيت مناورة سياسية ظالمة. ذلك أنه في عام ١٩١٦ كان الإنكليز قد وعدوا الشريف حسيناً بدولة عربية مستقلة تضم جميع البلدان الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي ـ الفارسي، ثمناً لمساعدته إياهم ضد الأتراك، ولكنهم أخلفوا وعدهم بعد سنة بعقدهم معاهدة سايكس بيكو السرية مع فرنسا (تلك المعاهدة التي ثبّتت السيطرة الفرنسية على سوريا ولبنان) واستثنوا فلسطين من الإلتزامات التي كانوا قد أخذوها على عاتقهم نحو العرب.

وبرغم أنني من أصل يهودي، فقد كنت أرى أن من الظلم أن يأتي الغرباء تسندهم دولة أجنبية كبرى من الخارج وهم يعلنون عزمهم على أن يصبحوا أكثرية في البلاد وينتزعوا بالتالي ملكيتها من الشعب الذي كانت ملكاً له منذ عهد مغرق

في القدم. وتبعاً لذلك فقد وجدت أني آخذ جانب العرب كلما دار الحديث عن المسألة العربية ـ اليهودية.

لا أزال أذكر مناقشة قصيرة جرت بهذا الصدد بيني وبين (حاييم وايزمن) زعيم الحركة الصهيونية . لقد كان يقوم بإحدى زياراته الدورية إلى فلسطين فالتقيته في بيت أحد أصدقائي اليهود. وإن المرء لا يمكنه إلا أن يشعر بقوة هذا الرجل، تلك القوة التي كانت تتجلى في حركات جسمه، وفي القوة العقلية التي تكشف عنها جبهته العريضة ونظراته النافذة.

كان يتكلم عن المصاعب المالية التي كانت تكتنف حلم الوطن القومي اليهودي، وعن ضعف الاستجابة لهذا الحلم في الخارج، وكانت لديّ القناعة المقلقة أن وايزمن نفسه، شأن معظم الصهيونيين الآخرين كان ميالاً إلى أن ينقل مسؤولية ما يحدث في فلسطين إلى العالم الخارجي، وهذا ما حملني على أن أساله :

– « وماذا عن العرب »؟

ولا بد أنني قد اقترفت زلة بإبدائي مثل هذه الملاحظة أثناء الحديث، ذلك أن (وايزمن) أدار وجهه إليّ ببطء ووضع الفنجان الذي كان ممسكا به بيده، وكرر سؤالي : وماذا عن العرب؟ فقلت :

– « كيف تأملون في جعل فلسطين وطناً لليهود تجاه المقاومة العنيفة المتوقدة التي يبديها العرب الذين يشكلون الأكثرية في هذه البلاد »؟

وهز الزعيم الصهيوني كتفيه وأجاب بجفاء : « إننا نتوقع أن لا يعودوا أكثرية بعد بضع سنوات » .

– « لعل الأمر كذلك . لقد مضت عليك عدة سنوات وأنت تعالج هذه المشكلة فيجب أن تكون ملمّا بالوضع أكثر من إلمامي به، ولكن بغضّ النظر عن المصاعب السياسية التي قد يضعها العرب في طريقكم ألا تزعجك الناحية الأخلاقية للمشكلة أبداً؟ ألا تعتقد أنه من الظلم أن تحلوا اليهود محل الناس الذين عاشوا دائما في هذه البلاد »؟ .

– «ولكنها بلادنا، أجاب وايزمن رافعاً حاجبيه، إننا لا نفعل شيئاً أكثر من استعادة ما انتزع منا ظلماً».

فأجبته: «ولكنكم كنتم بعيدين عن فلسطين قرابة ألفين من السنين، وقبل ذلك حكمتم هذه البلاد أقل من خمسمئة عام، ألا تعتقد أن العرب باستطاعتهم على هذا الأساس نفسه أن يطالبوا بإسبانيا لأنهم حكموها سبعمئة سنة تقريباً، ولم يفقدوها بالكلية إلا منذ خمسئة سنة»؟.

وكان جلياً أن صبر وايزمن كان قد نفد إذ قال: «هراء، إن العرب لم يستولوا على إسبانيا إلا بطريق الفتح، إنها لم تكن وطنهم الأصلي قط، وهكذا فإن العدل قد قضى في النهاية بخروجهم على أيدي الإسبانيين».

– «عفوك ولكن العبرانيين أيضاً جاءوا إلى فلسطين فاتحين. وقبلهم بزمن طويل كان كثير من القبائل السامية وغير السامية الأخرى مستقراً هنا: العموريون والأدوميون والفلسطينيون والمؤابيون والحثيون، وتلك القبائل ظلت تعيش هنا حتى في أيام مملكتي إسرائيل ويهوذا، وظلت أيضاً تعيش هنا بعد أن طرد الرومانيون أجدادنا، وهي تعيش هنا اليوم، إن العرب الذين قدموا إلى سوريا وفلسطين بعد فتحهما في القرن السابع كانوا أقلية صغيرة، أما الباقون الذي نطلق عليهم اليوم اسم العرب الفلسطينيين، أو العرب السوريين فإنهم –في الحقيقة– سكان البلاد الأصليين المستعربين، وبعض هؤلاء أصبحوا مسلمين على مرّ العصور، في حين أن الآخرين منهم ظلوا مسيحيين، والنتيجة أنّ من يتكلمون العربية في فلسطين سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين هم نسل السكان الإصليين حيث أنهم عاشوا في هذه البلاد قبل أن يجيء إليها العبرانيون بقرون».

وابتسم (وايزمن) ساخراً، ووجه الحديث نحو موضوعات أخرى.

لم أتوقع، طبعاً من الحاضرين –وآخرهم (وايزمن) نفسه– أن يشاركوني الرأي بأن الفكرة الصهيونية قابلة للانتقاد وعرضة للهجوم على الصعيد الأخلاقي، ولكنني كنت أمل أن ينشئ دفاعي عن القضية –على الأقل– نوعاً من القلق لدى القيادة الصهيونية، قلق قد يؤدي إلى قدر أكبر من التأمل ولربما –بالتالي– إلى استعداد أكبر

للاعتراف بوجود مسوغ للمقاومة العربية. ولكن بدلا من ذلك وجدت نفسي أواجه جداراً مسدوداً من الأعين المحملقة المنكرة لتهوري ونزقي، وجرأتي على الشك في أن لليهود حق السيطرة على أرض أجدادهم . وعجبت كيف يمكن لقوم وهبهم الله تلك الفطنة المتقدة أن يفكروا بالمشكلة العربية ـ اليهودية من وجهة النظر الصهيونية فحسب، ألم يكونوا يدركون أن مشكلة اليهود في فلسطين لا يمكن أن تحل إلا عن طريق التعاون مع العرب؟ هل كانوا عمياً بحيث أنهم لم يتبينوا المستقبل المؤلم الذي لابدّ أن ينتج عن سياستهم تلك؟ عمياً عن المنازعات والأحقاد والضغائن التي لا بد أن تظل الجزيرة اليهودية عرضة لها وسط ذلك الخضم العربي الغاضب؟

وقلت لنفسي: أليس غريباً أن تكون أمة عانت ضروباً كثيرة من الجور عبر تاريخها الطويل المؤلم، على استعداد الآن لانزال الظلم الفادح بأمة أخرى، أمة كانت بريئة من كل آلام اليهود الماضية.

في ذلك الوقت لم يكن استغراقي في المشهد السياسي في فلسطين قائماً على أساس من عطفي على العرب وقلقي على التجربة الصهيونية فحسب، بل أيضاً على أساس من انتعاش ميولي الصحفية، ذلك أنني كنت قد أصبحت المراسل الخاص لجريدة (فرانكفورتر تزايتونك) التي كانت عندئذ من أبرز الصحف في أوروبا وأكثرها قراء. وقد نشأت هذه العلاقة بيني وبين الجريدة المذكورة عن طريق الصدفة المقدّرة.

ففي ذات مساء بينما كنت أنسق اوراقي القديمة وجدت البطاقة الصحفية التي كانت قد أصدرت لي قبل ذلك بعام واحد في برلين مندوباً (لليونايتد تلكراف) وكنت على وشك أن أمزقها عندما أمسك (دوريان) بيدي وهتف مازحاً:

ـ «لا تفعل، إنك إذا أبرزت هذه البطاقة في مكتب المندوب السامي، فإنك خليق بأن تتسلم بعد بضعة أيام دعوة إلى الغداء في دار الحكومة. إن الصحفيين مخلوقات مرغوبة في هذه البلاد.

ومع أنني مزقت البطاقة العديمة النفع، فقد أحدثت نكتة خالي (دوريان)، تأثيراً في نفسي. إنني لم أكن لأهتم بالدعوة إلى الغداء في دار الحكومة، ولكن لماذا لا أنتهز

الفرصة النادرة من وجودي في الشرق الأدنى في زمن لم يكن يستطيع فيه إلا القلائل من صحفيي أوروبا الوسطى السفر اليه؟ لماذا لا أستأنف عملي الصحفي، لا مع (اليونايتد تلكراف) بل مع إحدى الصحف اليومية الكبرى؟ وقررت أن أنفُذ إلى صميم الصحافة.

وبالرغم من أنني كنت قد عملت سنة كاملة في (اليونايتد تلكراف) فإنه لم يكن لي أي اتصال مباشر مع أية صحفية مهمة. وإذ لم أكن قد نشرت بعد أي شيء باسمي، فإنني كان مجهولاً بالكلية من الصحافة اليومية. إلا أن هذا لم يثبط من عزيمتي، وكتبت مقالاً عن بعض انطباعاتي في فلسطين وأرسلت نسخاً منه إلى ما لا يقل عن عشر صحف ألمانية، مع عرض بكتابة سلسلة من المقالات عن الشرق الأدنى.

كان ذلك في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٢، عندما كان التضخم يهدد بأكبر كارثة عرفتها ألمانيا، وكانت الصحافة الألمانية في أزمة خانقة جعلتها تلجأ إلى الاقتصاد في سبيل الاستمرار، ولم تستطع سوى صحف قليلة أن تدفع مرتبات مراسليها الأجانب بالعملة الصعبة. وهكذا لم يكن عجيباً على الإطلاق أن ترفض طلبي صحيفة بعد أخرى. ولكن واحدة من تلك الصحف العشر قبلت عرضي، وعينتني مندوبها المتجول في الشرق الأدنى، وأرسلت لي عقداً يقضي بأن أكتب لها كتاباً بعد عودتي. تلك الصحيفة الواحدة كانت: (فرانكفورتر تزايتونك). لقد كدت أتضعضع عندما رأيت أنني لم أنجح في إنشاء علاقة مع واحدة من أكبر الصحف الأوروبية فحسب بل نجحت في الحصول على مركز يمكن أن يحسدني عليه أي صحفي قديم.

إلا أن الـ (فرانكفورتر تزايتونك) بالنظر إلى التضخم، لم تستطع أن تدفع لي بالعملة الصعبة بل بالماركات الألمانية. لقد كنت أعرف - كما كانت إدارة الصحيفة تعرف أن مرتبي لم يكن يكفي لشراء الطوابع للمغلفات التي تحتوي مقالاتي، ولكن كوني المراسل الخاص لجريدة (فرانكفورتر تزايتونك) كان امتيازاً رجح كثيراً على هذا العائق المؤقت.

أخذت أكتب المقالات عن فلسطين، راجياً أن أتمكن عاجلاً أو آجلاً من القيام برحلة إلى أقطار الشرق الأدنى جميعاً. وأصبح لي الآن في فلسطين أصدقاء من العرب واليهود. إن الصهيونيين كانوا ينظرون إليّ بريبة وإنكار بسبب عدلي مع العرب الذي كان يتجلى في رسائلي إلى (فرانكفورتر تزايتونك). وواضح أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يقرروا ما إذا كان العرب قد(اشتروني، ذلك أن الناس في فلسطين يفسرون كل ما كان يحدث بلغة المال) أو أني مجرد رجل منفرد برأيه حباً للبيئة الشرقية العربية.

ولكن ليس كل اليهود في فلسطين –ذلك الوقت– كانوا صهيونيين. إن بعضهم لم يجئ إلى فلسطين سعياً وراء تحقيق هدف سياسي ولكن بدافع من الحنين الديني إلى الأرض المقدسة وذكرياتها التوراتية.

وإلى هذه الفئة كان ينتمي صديقي الهولندي (يعقوب دي هان) ذلك الرجل القصير ذو الجسم الممتلئ واللحية الشقراء. كان في مطلع العقد الرابع من العمر، وكان –من قبل– مدرساً للقانون في أحدى كبريات جامعات هولندا، ويعمل الآن مراسلاً خاصّاً لجريدة (أمستردام هاندلسلاد) و (ديلي إكسبرس) اللندنية، وإذ كان رجلا متمسكاً بالدين مثل أكثر يهود أوروبا الشرقية، فإنه لم يكن ليوافق على فكرة الصهيونية. ذلك أنه كان يعتقد أن عودة قومه إلى أرض الميعاد كان يجب أن تنتظر مجيء المهدي الموعود في الكتب اليهودية المقدسة.

– «نحن اليهود» كذلك قال لي في أكثر من مناسبة واحدة، «أُخرجنا من الأرض المقدسة وتشردنا في أنحاء العالم لأننا قصرنا في المهمة التي كان الله قد انتدبنا لها. لقد اختارنا الله كي نبشر بكلمته، ولكننا أمعنّا في الزهو والكبرياء وأخذنا نعتقدأن الله قد جعلنا (شعباً مختاراً) إكراماً لقوميتّنا. أما الآن فلم يبق لنا إلا أن نندم وأن نطهّر قلوبنا، وحين نصبح جديرين مرة أخرى بأن نحمل رسالة الله فعندئذ يرسل الله المهدي الموعود ليعود بعباده إلى أرض الميعاد».

وسألته: «ألا تشمل الحركة الصهونية أيضاً الفكرة المهدية هذه؟ أنت تعرف أنني لا أوافق الصهيونية، ولكن ألا تعتقد أن من الطبيعي أن يرغب كل شعب في أن يكون له وطن خاص به»؟

ونظر إليّ الدكتور (دي هان) هازلاً وقال: « هل تعتقد أن التاريخ سلسلة من الصدف؟ إنني لا اعتقد ذلك. إن الله لم يجعلنا نخسر أرضنا ويشردنا دون أن يكون له من وراء ذلك غاية. ولكن الصهيونيين لا يريدون أن يعترفوا بهذا . إنهم يعانون ذلك العمى القلبي نفسه الذي سبّب سقوطنا . إن بقاء اليهود منفيّين أشقياء طيلة ألفين من السنين لم يعلّمهم شيئاً، فبدلا من أن يقوموا بمحاولة لتفهم أسبا ب محنتهم تراهم الآن يحاولون أن يراوغوها ببناء (وطن قومي) على أسس تُقدمها سياسات الدول الغربية، وفي بنائهم هذا الوطن القومي تراهم يقترفون جريمة حرمان شعب آخر من وطنه.

وآراء (يعقوب دي هان) السياسية جعلته بالطبع غير محبوب من الصهيونيين وقد عرفت بعد مغادرتي فلسطين بوقت قصير أنه قُتِل في إحدى الليالي برصاص الإرهابيين الصهيونيين، وعندما عرفته كان اتصاله مقصوراً على عدد قليل جداً من اليهود -الذين كانت لهم طريقته نفسها في التفكير- ومن الأوربيين والعرب. ولقد كان يبدو لي أنه كان يكنّ للعرب وداً عظيماً، وأنهم هم كانوا يحترمونه ويجلّونه، وكثيراً ما كانوا يدعونه إلى بيوتهم ولم يكن العرب -في ذلك الحين- قد تحزّبوا ضد اليهود عموماً ، ذلك أنهم لم يعدّوا اليهود أعداءهم السياسيين إلا بعد وعد بلفور، أي بعد قرون من حسن المجاورة .

تلك الأشهر الأولى من إقامتي بين العرب حركت سلسلة طويلة جداً من التأملات والخواطر. لقد قابلت وجهاً لوجه إدراكاً لمعنى الحياة كان جديداً عليّ وبدأت أجد في المسلمين شيئاً طالماً فقدته؛ معالجة دينية لمسائل الحياة جميعاً.

ومع الزمن أصبح أهم شيء عندي أن أفهم أولئك المسلمين -لا لأن دينهم كان قد استمالني، ذلك أنني لم أكن أعرف عنه في ذلك الحين إلا القليل- بل لأنني وجدت فيهم الالتئام العضوي بين العقل والأحاسيس، ذلك الالتئام الذي كنا نحن الأوربيين قد فقدناه.

وما لم يكن في البداية أكثر من عطف على أهداف العرب السياسية، تحوّل إلى ما يشبه التحقيق الشخصي. لقد بدأت أشعر تدريجيّاً برغبة ملحّة في أن أعرف أساس ذلك الأمن العاطفي الذي يجعل الحياة المسلمة تختلف هذا الاختلاف البين عن الحياة الأوروبية، وبدأت أبحث عن مجالات تمكنني من أن أنفذ إلى أخلاق العرب وأدركها إدراكاً أفضل. وبدأت أقرأ كثيراً عن تاريخهم وثقافتهم ودينهم.

أصوات

- ١ -

وركبنا، وزيد يحدو، والتلال الآن أكثر انخفاضاً واتساعاً، والرمال تغيب عن أعيننا مرة بعد أخرى لتظهر مكانها امتدادات من الحصى، وأمامنا - في الجنوب البعيد - بدت سلسلة من الهضاب: جبل شَمّر.

وكانت أبيات الأنشودة التي كان زيد يحدو بها تصل إلى مسامعي غير واضحة للنّعاس الذي كان مستحوذاً عليّ، إلا أنه خيل إلي أن كلماتها كانت تكتسب معنى أوسع وأعمق من معناها الظاهر.

لقد كانت أنشودة من أناشيد رجال القوافل التي كثيراً ما تسمعها في جزيرة العرب؛ أناشيد يحدو بها الرجال لمطاياهم لتبقى منتظمة الخطو سريعة الحركة، وليطردوا النعاس عن أعينهم، أناشيد رجال الصحراء الذين ألفوا فضاء لا يعرف الحدود ولا الأصداء، ذات طبقة واحدة لا تتغير، مسترخية مبحوحة إلى حد ما، تصدر من أعلى الحلق وتتلاشى بحنان في هواء الصحراء الجاف. إن أحداً من الذين سافروا عبر الأراضي الصحراوية لا يمكن أن ينسى أبداً هذا الصوت.

زيد يحدو، كما لا بد أن يكون أبوه قد حدا وأجداده منذ آلاف السّنين.

لقد ولدت هذه الألحان منذ أمد طويل نتيجة للجو الصحراوي، وإيقاعات الرياح، والحياة البدوية، والشعور بالمدى الفسيح. وكما أن شؤون الحياة الأنسانية الأساسية لا تتبدل، فإن هذه الألحان لا يحدّها زمن ولا يعتريها أي تبديل.

وسألت نفسي: إلى متى يستطيع زيد وقوم زيد أن يحتفظوا بتماسكهم الثقافي والديني في وجه الخطر الذي يطبق عليهم؟ نحن نعيش في زمن لم يعد الشرق فيه قادراً على البقاء ساكناً في وجه الحضارة الصناعية الآخذة بالإطباق عليه. إن آلافاً من القوى - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - تطرق أبواب العالم المسلم، فهل

يتعايش معها ويبقى على تميُّزه وأصالته، أو يفقد خلال التعايش معها جذوره الدينية والثقافية.

جئت إلى مصر عام ١٩٢٣ رغبة في توسيع دائرة عملي لصحيفة (فرانكفورتر تزايتونك) بحيث تشمل بلداناً أخرى خارج فلسطين.

وكانت ظروف (دوريان) المادية لا تسمح له بتمويل مثل هذه الجولة، ولكنه عندما لمس رغبتي في القيام بها، أقرضني مبلغاً صغيراً كافياً لكي أنتقل بالقطار من القدس إلى القاهرة، ولقضاء خمسة عشر يوماً هناك.

وفي القاهرة وجدت منزلاً في أحد الأزقة الضيقة في حي يقطنه الصناع العرب وأصحاب الدكاكين الصغيرة من اليونانيين، وكانت صاحبة المنزل امرأة من (تريستا) متقدمة في السن. لقد كانت ذا جبلة صارمة حادة سريعة الانفعال، إلا أنها كانت تظهر مودَّتها لي، مما جعلني أشعر براحة في بيتها.

وبعد أسبوع أو نحو ذلك، أصبح ما كان معي من مال على وشك النفاد. وإذ لم أكن أرغب في العودة بمثل هذه السرعة إلى فلسطين، فقد أخذت أبحث عن طريقة أخرى، تمكّنني من كسب شيء يعينني على الحياة.

وكان صديقي في القدس (الدكتور دي هان)، قد زوّدني بكتاب تعريف إلى تاجر في القاهرة، فذهبت إليه بقصد الحصول على مشورته، ووجدته هولندياً أنيساً ضخم الجسم ذا ميول عقلية تتعدى نطاق أعماله الخاصة. ولقد عرف من كتاب يعقوب دي هان أنني مراسل (لفرانكفورتر تزايتونك)، ولكن صديقي الجديد لم يكن يستطيع أن يسند إلي أيما عمل عنده، إلا أنه اعتقد أن بإمكانه تعييني في مؤسسة مصرية كانت له معها علاقات تجارية.

وكان المكتب الذي أرسلني إليه يقع في حيّ غير بعيد من منزلي؛ زقاق ضيق وسخ تقع على جانبيه بيوت كانت في ما مضى منازل للأغنياء وانقلبت الآن إلى مكاتب وغرف رخيصة للسكن. كان مخدومي المقبل مصرياً كهلاً بحاجة إلى كاتب يعمل بعض الوقت في كتابة رسائله باللغة الفرنسية، وكنت قادراً على القيام بالمهمة

المطلوبة رغم افتقاري إلي الخبرة في الأمور التجارية. ووصلنا سريعاً إلى اتفاق يقضي بأن أعمل ثلاث ساعات يومياً لقاء مرتب ضئيل نسبياً، ولكنه كان كافياً لدفع إيجار المنزل، والعيش على الخبز واللبن والزيتون إلى ما شاء الله.

ومقابل بيتي كان يقوم مسجد صغير ذو مئذنة دقيقة ينادى منها للصّلاة خمس مرات في اليوم الواحد، فيظهر في أعلى المئذنة رجل متعمّم بعمامة بيضاء، ويبدأ بالنداء: "الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله". كان صوته ناعماً وقوياً، قادراً على أن يصل إلى مسامع الكثيرين، وكانت العاطفة والحماسة – لا الفن– هما اللتان كانتا تجعلانه على مثل ذلك القدر من الجمال.

وكان ذلك النداء قريني في الأيام والليالي التي قضيتها في القاهرة، كما كان مقدراً له أن يكون طيلة أسفاري في البلاد المسلمة في ما بعد، مع الفرق في الترتيل.

وفي صيف عام ١٩٢٣، عدت إلى القدس، بعد أن ألممت بقدر أكبر من الفهم عن حياة الناس في الشرق الأدنى.

وعن طريق صديقي (يعقوب دي هان)، تعرفت إلى الأمير عبد الله، أمير شرقي الأردن المجاورة، الذي دعاني إلى أن أزور بلاده شرقي نهر الأردن، وهناك رأيت –لأوّل مرة– بلاداً بدوية حقيقية. كانت عمّان –العاصمة المبنية على أطلال (فيلادلفيا)، مستعمرة (بتوليمايوس فيلادلفوس) اليونانية– في ذلك الوقت مدينة مغمورة لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة. كانت شوارعها مليئة بالبدو، بدو السهول المنبسطة الحقيقيين الذين نادراً ما كان يراهم المرء في فلسطين على حقيقتهم؛ محاربين أحراراً ومربي إبل. وكانت الجياد المدهشة ترمح في الشوارع، كما كان كل رجل يحمل خنجراً في حزامه وبندقية على ظهره. وكانت عربات الثيران الجركسية (ذلك أن المدينة يسكنها أيضاً الجراكسة الذين هاجروا إليها بعد أن غزا الروس وطنهم في القرن التاسع عشر) تتهادى متثاقلة عبر السوق التي كان يسودها لغط وهرج جديران بمدينة أكبر جداً من عمّان.

وإذ لم يكن في المدينة أبنية مناسبة، فقد كان الأمير عبد الله يعيش في تلك الأيام في مخيم على رابية تشرف على عمّان. وكانت خيمته أكبر من سائر الخيام، مؤلفة من عدة غرف تفصل بينها قواطع من القماش وتتميّز بالبساطة المتناهية.

وباستثناء خادم زنجي يرتدي ثوباً من نسيج حريري موشّى وفي منطقته خنجر مذهّب، فإن أحداً لم يكن في الخيمة عندما دخلت إليها صحبة الدكتور (رضا توفيق بك)، مستشار الأمير الأوّل. كان رضا بك رجلاً تركياً، شغل من قبل منصب أستاذ جامعي، كما كان طيلة ثلاث سنوات - قبل عهد كمال أتاتورك - وزيراً للمعارف في الوزارة التركية. ولقد أخبرني أن الأمير عبد الله سيعود بعد دقائق، وأنه كان في تلك اللحظة يبحث مع بعض زعماء البدو الغزوة الأخيرة التي قام بها النجديون على جنوبي شرق الأردن. أولئك "الوهّابيون"، النجديون -كما أوضح لي الدكتور رضا- لعبوا في الإسلام دوراً لا يختلف عن الدور الذي لعبه المصلحون الأصوليون في العالم، من حيث أنهم كانوا يعارضون بشدة عبادة الأولياء والمزارات، وينكرون الخرافات التي كانت قد ظهرت في بلاد المسلمين بعد القرون المفضلة.

وفي رأي الدكتور رضا، لم يكن بالإمكان رفض آراء النّجديين الدينية بداهة وارتجالاً؛ ذلك أنها -في الحقيقة - أقرب إلى القرآن والسنة من الأفكار المنتشرة بين عامة الناس في معظم الأقطار المسلمة، ويمكن - بالتالي - أن تحدث مع الزمن تأثيراً خيّراً مفيداً في التطوّر الإسلامي الثقافي. إلا أن التشدّد لدى أولئك القوم - في رأي الدكتور رضا - جعل من العسير على كثير من المسلمين أن يقدروا الحركة النجدية حق قدرها. هذا العائق - كما قال محدثي - قد يجد الترحيب لدى (بعض الأوساط الأعجمية) التي تنظر إلى إمكان وحدة العرب على الدّين الحق بهلع واضطراب.

ودخل الأمير بعد قليل، وكان رجلاً يناهز الأربعين من العمر، معتدل الجسم، ذا لحية قصيرة شقراء. كان يخطو خطواً خفيفاً وفي رجليه خف صغير من الجلد اللماع الأسود، مرتدياً ثياباً عربية فضفاضة من الحرير الأبيض، فوقها عباءة صوفية بيضاء تكاد تشف عما تحتها. وقال الأمير:

- « أهلاً وسهلاً ».

وكانت تلك أول مرة سمعت فيها هذه التحية العربية اللطيفة. لقد كان في شخصية الأمير عبد الله ما يجذبك إليه، كما كان يتميّز بروح فكاهية قوية وحرارة في التعبير، وإذ كنا نحتسي القهوة من الفناجين الدقيقة التي كان يدور بها علينا خادم أسود، أخذنا نتحدث –وكان يشترك معنا في الحديث أحياناً الدكتور رضا الذي كان يتكلم الفرنسية بطلاقة– عن المصاعب الإدارية في ذلك البلد الجديد –شرقي الأردن– حيث تعوّد كل شخص أن يحمل السلاح، وأن لا يطيع سوى قوانين عشيرته.

قال الأمير عبد الله: "ولكن العرب يتمتعون بقدر كبير من الإدراك وحسن التفهم. حتى البدو شرعوا يدركون الآن أن عليهم أن يقلعوا عن طرائقهم الفوضوية إذا شاؤوا أن يتحرروا من سيطرة الأجنبي. إن العداوات والضغائن المستحكمة بين القبائل – لا بد أن تكون قد سمعت بها – آخذة الآن في الخمود تدريجيّاً".

ثم أخذ يصف لي القبائل البدوية، الصعبة المراس القوية الشكيمة، التي كانت تتقاتل لأتفه الأسباب. كانت عداواتهم الدموية كثيراً ما تدوم أجيالاً عدة، ويتوارثها الأبناء عن الآباء، مما يؤدي إلى تجدّد الحروب والأحقاد بعد أن يكون السبب الأصلي قد نُسي أو كاد. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لإقرار السلام؛ إذا تمكن شاب ينتمي إلى قبيلة الضحية من اختطاف فتاة عذراء من قبيلة الجاني والزّواج منها، فإن دماء ليلة الزفاف «تثأر» رمزياً وبصورة نهائية – للدم المهراق.

قال لي الأمير عبد الله: "لقد عينت لجاناً مهمتها النظر في هذه العداوات الدموية مهمتها التجول في أنحاء البلاد وتدبير عمليات الاختطاف والزيجات بين القبائل المتخاصمة.

وظهر صبي يناهز عمره الثانية عشرة من وراء أحد الحواجز، واجتاز الغرفة المعتمة التي كنا فيها بخطوات سريعة صامتة، وقفز – دونما ركاب – إلى ظهر الجواد الذي كان يثب مرحاً خارج الخيمة، والذي كان أحد الخدم ممسكاً به استعداداً لقدوم الصبي. كان ذلك الصبي ابن الأمير البكر طلال. وفي جسمه النحيف الأهيف، وفي قفزته السريعة إلى ظهر الجواد، وفي عينيه البراقتين، رأيت – مرة أخرى – ذلك الاتصال الحقيقي بالحياة الخاصة الذي كان يمتاز به العرب.

وإذ لاحظ الأمير عبد الله إعجابي الواضح بابنه، قال: "إنه شأن كل طفل عربي آخر يكبر ونصب عينيه هدف واحد: الحرية. نحن العرب لا نعتقد أننا معصومون من الخطأ، ولكننا نريد أن نرتكب أخطاءنا بأنفسنا فنتعلم بذلك كيف نتفاداها. لا نريد أن يرشدنا إلى الحكمة أناس لا يملكون الحكمة، أناس ليس لديهم سوى القوة والسلاح والمال، ولا يعرفون سوى إضاعة الأصدقاء الذين كانوا يستطيعون بسهولة أن يحتفظوا بهم أصدقاء".

في هذه الكلمات القليلة أوضح الأمير عبد الله قضية الخلاف بين العرب والغرب.

وإذ كان (يعقوب دي هان صحفياً) معروفاً، فقد كانت له اتصالات واسعة في أوروبا كلها. وعن طريق توصيته بي تمكنت من الفوز بعقدين مع صحيفتين صغيرتين، إحداهما في هولندا والثانية في سويسرا، لكتابة سلسلة من المقالات تُدفع أثمانها بالعملتين الهولندية والسويسرية. ولما كانت هاتان الصحيفتان من صحف الريف التي لا تتمتع بسعة الانتشار، فإنهما لم تكونا قادرتين على أن تدفعا لي أجراً كبيراً، ولكن المال الذي كنت أتسلمه منهما – بما فطرت عليه من البساطة – كان في نظري كافياً لتمويل الرحلة التي كنت قد أعددت خططها لزيارة بقية أقطار الشرق الأوسط.

أردت أن أذهب إلى سوريا – أولاً – ولكن السلطات الفرنسية –وكانت حديثة العهد بالمنطقة وسط سكان يناصبونها العداء – لم ترغب في منح تأشيرة الدخول إلى نمسوي "أجنبي وعدو سابق". وإذ لم أستطع أن أفعل شيئاً، فقد قررت أن أذهب إلى حيفا، ومن هناك بالباخرة إلى اسطنبول التي كانت خُطّة رحلتي تشملها على أي حال.

ولكن مصيبة حلت بي في أثناء رحلتي بالقطار من القدس إلى حيفا. وذلك أنني فقدت معطفاً كنت قد وضعت فيه محفظة نقودي وجواز سفري، ولم يبق معي سوى بضع قطع من النقود الفضية. لذلك وجدت أن من المستحيل عليّ أن أتابع رحلتي إلى اسطنبول، وأنه لم يبق لي إلا أن أعود بالحافلة إلى القدس. وإذ كنت خالي الوفاض، فقد كان عليّ أن أدفع أجرة الركوب عند وصولي، بعد أن أقترض المال من خالي (دوريان) ثم أنتظر أسابيع ريثما يصل إليّ جواز سفر آخر، من القنصلية النمسوية في القاهرة، ومبالغ زهيدة أخرى من هولندا وسويسرا.

وهكذا وجدت نفسي في صباح اليوم التالي أمام مكتب السّفر في ضواحي حيفا، وأنهيت المفاوضات مع إدارة المكتب بشأن الأجرة. وإذ كان قد بقي ساعة واحدة على قيام الحافلة، فقد أخذت أذرع الطريق جيئة وذهاباً. إن الانتظار شيء مكروه، والتفكير في العودة إلى القدس على عقبي مهزوماً أحدث في نفسي مرارة وأسى، وفوق ذلك، فقد قُدّر عليّ أن لا أرى سوريا الآن، والله وحده يعرف ما إذا كنت سأعود إلى هذا الجزء من العالم.

ولكن هل قُدّر عليّ حقاً أن لا أرى دمشق؟ طبعاً فلا جواز سفر ولا مال. ولكن هل من الضروري أن يكون لديّ جواز سفر ومال؟ وإذ قد وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة، جمدت فجأة في مكاني. إن المرء ليستطيع إذا كان له قدر كاف من الشجاعة والحزم، أن يسافر مشياً على قدميه، مستفيداً من كرم القرويين العرب وحسن ضيافتهم. وإن المرء ليستطيع أن يجتاز الحدود خلسة دون أن يكون بحاجة إلى جوازات السفر والتأشيرات عليها. وقبل أن يتسنى لي أن أفكر في ذلك أكثر، كنت قد اتخذت قراري: سأذهب إلى دمشق.

ولم أحتج إلى أكثر من دقيقتين اثنتين كي أوضّح لإدارة مكتب الحافلة أنني قد بدّلت رأيي وأنني لم أعد أرغب السفر إلى القدس.

كذلك لم أحتج إلى أكثر من بضع دقائق أخرى لابتياع قميص وسروال أزرق من القماش الذي تصنع منه ألبسة العمال، وعمامة عربية وضعتها على رأسي، ولترتيب شحن حقيبة سفري الصغيرة إلى خالي (دوريان) على أن يدفع هو الأجرة، ومن ثم شرعت في رحلتي الطويلة إلى دمشق سيراً على الأقدام.

وغمرني شعور بالسعادة، رغم أنه لم يكن في جيبي غير بضع قطع نقدية فقط، وكنت مقدماً على عمل يمكن أن يقودني إلى السجن. لقد كنت أجازف بكل شيء معتمداً على عقلي وحده، ولكن إدراكي أنّ مصيري كله في كفة القدر بعث فيّ شعوراً بالسعادة.

وسرت في طريقي إلى الجليل. وبعد الظهر أشرفت على مرج ابن عامر ثم مررت بالناصرة. وقبل مغيب الشمس وصلت إلى قرية عربية تظللها أشجار

الكافور والسرو. وعند باب البيت الأول كان يجلس ثلاثة أو أربعة من الرجال والنساء. وتوقفت عن المسير، وسألت القوم ما إذا كانت تلك قرية (الرينة). ولما أجابوني بالإيجاب، كنت على وشك أن أستأنف سيري، إلا أن المرأة نادتني قائلة:

- «أيها الرجل، ألا تريح نفسك قليلاً»؟ ثم قدّمت إلي ماء بارداً، كأنما تكهنت بما كنت أعانيه من العطش. وبعد أن ارتويت، سألني أحد الرجال:

- «ألا تحب أن تشاركنا طعامنا وتقضي ليلتك في بيتنا»؟

إنهم لم يسألوني من أنا ولا من أين أتيت ولا إلى أين أذهب، وما هي غايتي. ونزلت تلك الليلة ضيفاً عليهم.

أن تكون ضيفاً على عربي إنما يعني نفاذك لبضع ساعات نفاذاً صادقاً إلى صميم حياة أولئك الناس الذين يريدون أن يكونوا أخوة لك وأخوات، وليس مجرد تقليد قومي نبيل ذلك الذي يمكّن العرب من أن يكونوا مضيافين بهذه الطريقة الفياضة، إنها حريتهم الذّاتية. كانوا متحررين من الشك والريبة في أنفسهم إلى درجة تجعل من اليسير عليهم أن يفتحوا قلوبهم لأي إنسان آخر، دون حاجة إلى تلك الجدران التي يقيمها كل شخص في البلاد الصناعية بينه وبين جاره.

وتعشينا معاً - رجالاً ونساء - جالسين القرفصاء على حصير، متحلقين حول طبق كبير مملوء بالثريد المصنوع من اللبن والحنطة المجروشة الخشنة. وكان الذين يضيفونني يأخذون قطعاً من أرغفة الخبز الرقيقة ويغرفون بها الثريد بحذق ومهارة، إلى درجة أنهم كانوا لا يلمسونه بأصابعهم قط. أما أنا فقد قدّموا إليّ ملعقة، ولكنني رفضتها وحاولت بنجاح أشاع السّرور في نفوسهم أن أباريهم في طريقتهم البسيطة في الأكل.

وعندما اضطجعنا لننام - وكنّا نحواً من اثني عشر في غرفة واحدة - أخذت أحدّق في السقف فوق رأسي تتدلى منها خيوط نُظِم فيها الفلفل والباذنجان المجفف، وفي الكوى الكثيرة المملوءة بالأواني النحاسية والفخارية، وفي أجسام الرّاقدين من

الرجال والنساء، وتساءلت ما إذا كان باستطاعتي أن أحس بالأمن والسّكينة أكثر لو كنت في بيتي في النمسا.

وفي الأيام التالية مشيت عبر كثبان الجليل الناعمة الجذلة. وكانت الينابيع تظهر لي فجأة، كما أصبحت النباتات أكثر غزارة مما هي عليه في جنوبي فلسطين. وانتصبت أشجار الزيتون ذات الأوراق الكثيفة وأشجار السرو القائمة الطويلة، وكنت لا أزال أرى آخر أزهار الصيف على جوانب الربى.

وكنت أحياناً أسير قسماً من النهار مع الجمّالين، وأنعم هنيهة بحرارتهم البسيطة. كنا نشرب الماء من حافظتي، وندخن معاً لفافة من التبغ، ثم أمشي بمفردي. وكنت أقضي الليالي في بيوت العرب آكلاً خبزهم معهم، وأجوب أياماً طويلة عبر التجويف الحار على طول بحيرة طبرية وعبر البرودة الناعمة حول بحيرة الحولة. وبقرب الشاطىء كان يعيش صيادوا الأسماك العرب في أكواخهم المبنية من حصائر القش المتدلية حول إطار من الأغصان. لقد كانوا فقراء جداً، ولكنهم لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من هذه الأكواخ الطلقة، والأثواب الحائلة اللون على ظهورهم، وقبضة من الحنطة يصنعون منها خبزهم، والسّمك الذي يصطادونه بأنفسهم. وكان يظهر دائماً أن لديهم من الطعام ما يكفيهم لدعوة المسافر إلى أن يشاركهم فيه.

في أقصى نقطة من شمالي فلسطين كانت تقع مستعمرة المطلة اليهودية التي كانت ثغرة بين فلسطين البريطانية وسورية الفرنسية. وبموجب اتفاق بين الحكومتين، كانت تلك المستعمرة مع اثنتين غيرها ستنضم قريباً إلى فلسطين. ولذلك فإن أيّاً من الحكومتين لم تكن تشرف على شؤون مستعمرة المطلة في تلك الأسابيع القليلة إشرافاً فعالاً، مما جعلها في نظري مكاناً مثالياً أستطيع أن أنفذ منه إلى سوريا. وقد كانت أوراق الهوية لا تُطلب من المسافر إلا عند بلوغه الطريق العام في ما بعد، إلا أن المراقبة السورية كانت شديدة جداً ذلك أنه كان من شبه المستحيل على المسافر أن يتوغل كثيراً دون أن يعترضه رجال الشّرطة. وإذ كانت المطلة لا تزال – رسمياً – جزءاً من سوريا، فإن كل واحد من سكانها كان يحمل وثيقة تعريف بشخصه، تصدرها السلطات الفرنسية، وهكذا أصبح الحصول على مثل هذه الوثيقة لنفسي همّي العاجل.

واقتادني أحدهم إلى بيت رجل آنس فيه الاستعداد للتخلي عن وثيقته لقاء مبلغ من المال. وكان ذلك الرجل ضخم الجثة في أواخر العقد الرابع من العمر، وكانت هذه الأوصاف مذكورة في الورقة المجعدة الملوثة بالشحم التي سحبها من جيبه. إلا أنه لما كانت الورقة لا تحمل أية صورة له، فإن المشكلة لم تكن مستعصية الحلّ.

وبعد دقائق قليلة من المساومة اتفقنا على مبلغ خمسة وثلاثين قرشاً دفعتها إليه وأخذت الوثيقة. كانت عبارة عن ورقة مطبوعة ذات عمودين أحدهما بالعربية والثاني بالفرنسية، ولم أقلق كثيراً لما جاء في الوصف الشخصي لحامل الوثيقة ذلك أنه كان – كالعادة – مبهماً إلى درجة تبعث على الدهشة، إلا أن العمر المذكور في الورقة كان ٣٩ سنة، في حين أنني كنت في سن الثالثة والعشرين، مما يجعل ملاحظة التباين بين العمرين سهلاً، وهكذا كان من الضروري أن أحدث تبديلاً على الوثيقة. وبالرغم من حذري الشديد وعنايتي الفائقة، فقد توصلت إلى ما يمكن أن يوصف بالتزوير الذي لا ينطلي على أحد، إلا أنه لم يكن لي حيلة، وكان عليّ أن أعتمد على حظّي وإهمال رجال الشرطة. وفي الصباح التالي قادني صديقي الذي دلني على صاحب الوثيقة إلى واد صغير وراء القرية، وأشار إلى بعض الصخور على مبعدة نصف ميل وقال: «هناك سوريا».

وسرت عبر الوادي، وكان الجو حاراً بالرغم من تلك الساعة المبكرة من الصباح. ولا بد أن المرأة العجوز العربية التي كانت جالسة هناك تحت شجرة بالقرب من الصخور التي كانت تقع سوريا وراءها، عانت أيضاً ما كنت أعانيه من حرّ، ذلك أنها هتفت لي بصوت الأجش:

– «هل لك أن تسقي امرأة عجوزاً شربة من الماء يا بني»؟ وحللت حافظة الماء التي كنت قد ملأتها حديثاً وناولتها إياها، فشربت حتى ارتوت ثم أرجعتها إليّ قائلة:

– «ليباركك الله، ويحفظك آمناً، ويحقق لك أماني قلبك».

– «شكراً يا أماه، إنني لا أريد أكثر من ذلك».

وعندما استدرت ونظرت إليها ثانية، رأيت شفتي المرأة العجوز تتحركان كأنما تدعوان، وشعرت بابتهاج غريب.

وكان الوقت ظهراً عندما وصلت إلى جدول صغير يقطع السهل. وإذ جلست لأخلع حذائي وجوربي، رأيت عن بعد أربعة فرسان متجهين نحوي من رجال الشرطة. وخُضت في الجدول ثم جلست على الضفة المقابلة وبدأت أجفّف رجليّ بهدوء، منتظراً اقتراب رجال الشرطة مني. وعندما أصبحوا على مقربة مني نظروا إليّ بريبة، فقد كان واضحاً أنني أوروبي، بالرغم من العمامة العربية التي كانت على رأسي.

وسألني أحدهم باللغة العربية: «من أين»؟

– «من المطلة».

– «وإلى أين»؟

– «إلى دمشق».

– «لأي غرض».

– «مجرد رحلة ممتعة فقط».

– «هل معك أوراق»؟

وقفز قلبي إلى فمي بينما كنت أخرج الوثيقة المزوّرة من جيبي، ونشر الشرطيّ الورقة وتطلع إليها، وعاد قلبي إلى مكانه وبدأ ينبض ثانية، ذلك أنني رأيته ممسكاً بالوثيقة رأساً على عقب مما يدلّ على عدم معرفته القراءة. لقد اكتفى على ما يظهر بالختمين أو الثلاثة الأختام الحكومية إذ طوى الورقة وأعادها ثانية إلي:

– «نعم إنها كما ينبغي. اذهب».

وأحسست – لحظة – بدافع إلى أن أهزّ يده، ولكنني آثرت أن تظل علاقاتنا متّسمة بالطابع الرسمي. وأدار الرجال الأربعة رؤوس جيادهم وابتعدوا، بينما واصلت أيضاً مسيري.

وبالقرب من (بانياس) ضللت طريقي، ذلك أن ما كانت خريطتي تصفه بأنه «طريق صالح للعربات» لم يكن إلا درباً لا يكاد يُرى، يتعرج فوق أرض موحلة وعبر جداول صغيرة، وكان هناك جدول صاف ضيق ينساب بسرعة بجانب الطريق، فتمددت على بطني، وغطست رأسي حتى أذنيّ في مياهه الباردة كالثلج، وشربت حتى ارتويت.

ومع أنني كنت متعباً جداً، فإنني لم أكن أنوي البقاء في بانياس، إذ قدرت أنها لا بد أن يكون فيها مركز للشرطة، لكونها أول بلدة في الأراضي السورية.

تعمدت السير بخطوات سريعة في الأزقة الضيقة والطرق الثانوية، متجنباً الشارع العام الذي يوجد فيه المركز عادة. وفي أحد الأزقة سمعت نغماً ينبعث من عود وصوت رجل يغني للناس الذين كانوا يصفقون له بأيديهم. وجذبتني الجلبة فاقتربت منها. وجمدت في مكاني؛ ذلك أنّي رأيت على بعد عشر خطوات تقريباً باباً كتب عليه «مخفر الشرطة»، ورأيت عدداً من رجال الشرطة السّوريين جالسين في الشمس يشنفون آذانهم بموسيقى رفيقهم. ولم أجد فائدة من التراجع، ذلك أنهم كانوا قد رأوني. وناداني الضابط قائلاً:

- «تعال هنا».

فتقدّمت ببطء ثم خطرت لي فجأة فكرة، فأخذت آلة تصويري، وحييت الضابط بالفرنسية، وتابعت كلامي دون أن أنتظر أسئلته:

- «إنني آت من المطلة في زيارة قصيرة، ولكنني لا أحب أن أعود دون أن آخذ صورة لك ولصديقك الذي طربت لصوته أيما طرب».

إن العرب يحبون الثناء، ويُسَرّون بأن تؤخذ لهم الصور. وهكذا وافق الضابط مبتسماً، ورجاني أن أرسل إليه الصور بعد تظهيرها (وقد فعلت ذلك في ما بعد مع تحياتي). ولم يخطر له بعد ذلك أن يسألني عن وثيقتي بل دعاني بدلاً من ذلك - إلى تناول فنجان من الشاي الحلو، وتمنى لي سفرة سعيدة عندما نهضت أخيراً وعدت من حيث أتيت، ثم درت حول البلدة، وأكملت طريقي إلى دمشق.

وبعد أسبوعين تماماً من مغادرتي حيفا وصلت إلى (مجدل شمس) التي كانت أكثرية سكانها من الدروز وبعض المسيحيين. واخترت بيتاً بدت عليه آثار النعمة، فطرقت بابه وطلبت من الشاب الذي فتح لي أن يسمح لي بالمبيت عندهم تلك الليلة، فرحب بي قائلاً كالعادة: «أهلاً وسهلاً» وفتح الباب على مصراعيه، ولم تمض بضع دقائق حتى وجدت نفسي بين أصحاب الدار.

وإذ كنت الآن في أعماق سوريا، وكانت هناك عدة طرق تؤدي إلى دمشق، فقد قررت أن أأتمن مضيفي الدرزي على سري وآخذ مشورته. ولما كنت أعرف حق المعرفة أنه لن يغدر بضيفه، فقد أفضيت إليه بالحقيقة كاملة، وأعلمته أيضاً أنني ليس معي سوى وثيقة مزورة. عندئذ أخبرني أنه من الخطر علي أن أسلك الطريق العام بسبب أنها كانت مراقبة من مجدل الشمس حتى دمشق من قبل رجال الشرطة الفرنسيين الذين لن يدعوني أمرّ بسهولة كما فعل السوريون.

قال مضيفي وهو يشير بيده إلى ابنه الذي فتح لي الباب: «سأرسل ولدي معك وسوف يقودك عبر الجبال، ويساعدك على اجتناب الطرق العامة».

وبعد تناول العشاء جلسنا على الشرفة المكشوفة أمام البيت ودرسنا الطريق التي يتعين عليّ سلوكها في الصباح التالي. وقد نشرت على ركبتي مخطّطاً ألمانياً مصغّراً لفلسطين وسوريا كنت قد جلبته معي من القدس، وكنت أحاول أن أتتبع عليه الطريق التي أشار صديقي الدرزي بسلوكها. وبينما كنا مستغرقين في ذلك، أقبل رجل يرتدي زي ضابط شرطة سوري يتمشى في شارع القرية. ولقد كان ظهوره من وراء زاوية الشارع مفاجئاً جداً حتى أنني لم أجد متسعاً من الوقت كي أطوي المخطّط وأخفيه عن ناظريه. وعرف الضابط أنني غريب، ذلك أنه لم يكد يجتاز شرفتنا، بعد أن حيّى مضيفي بإيماءة من رأسه، ويصل إلى الزاوية التالية، حتى عاد ومشى نحونا ببطء.

وسألني بالفرنسية بلهجة لم تخل من اللطف: «من أنت»؟

فأعدت على مسامعه لغوي المعهود من أنني كنت أحد سكان مستعمرة المطلة وأنني أقوم برحلة للترويح عن النفس. وعندما طلب أن يرى وثيقتي، لم أجد مفرّاً من تقديمها إليها. فتطلع إليها بانتباه، ثم افترت شفتاه عن ابتسامة وقال:

– «وما ذاك الذي في يدك»؟ مشيراً إلى المخطط الألماني. فأجبت أنه لم يكن شيئاً يؤبه له، فأخذه ونشره بمهارة الرجل المعتاد استعمال المخططات، وبعد أن نظر فيه بضع ثوان طواه وأعاده إلي وهو يبتسم، ثم قال بلغة ألمانية محطمة:

– «لقد خدمت في الجيش التركي أثناء الحرب جنباً إلى جنب مع الألمان»، ثم حيانا بالتحية العسكرية، وابتسم وانصرف.

قال مضيفي: «لقد فهم أنك ألماني. إنه يحبهم ويكره الفرنسيين، ولذا فإنه لن يزعجك».

وفي الصباح التالي شرعت – مصحوباً بالدرزي الشاب – في أشق رحلة قمت بها في حياتي مشياً على قدميّ. لقد سرنا أكثر من إحدى عشرة ساعة – لم نتوقف أثناءها سوى مرة واحدة عند الظهر مدة عشرين دقيقة تقريباً – صعوداً فوق التلال الصخرية ونزولاً في الأودية العمودية الانحدار، وعبر المهاد النهرية الجافة، وبين الصخور الكبيرة المستديرة، وفوق الحصباء المدببة، حتى شعرت أنني لم أعد أقوى على المسير أكثر من ذلك. ولم نكد نصل بعد الظهر إلى بلدة (قَطَنا)، في سهل (دمشق)، حتى كان التعب قد أخذ مني كل مأخذ، وتمزق حذائي وتورمت قدماي، فأردت أن أتوقف وأقضي الليلة في ذلك المكان، ولكن صديقي الشاب عارض بقوة، وكانت حجته أن كثيراً من رجال الشرطة الفرنسيين يجوبون المكان، وأن (قَطَنا) كانت بلدة لا قرية، وأننا لا نستطيع أن نجد مأوى لنا دون أن نلفت الأنظار. وأضاف أن الطريقة الوحيدة الباقية هي أن أستقل سيارة من تلك السيارات التي كانت تعمل بين قَطَنا ودمشق. وكانت قروشي العشرون لا تزال معي، ذلك أنني طوال رحلتي من حيفا لم أنفق قرشاً واحداً، ولحسن الحظ كانت أجرة الركوب إلى دمشق عشرين قرشاً.

وفي مكتب شركة النقل قيل لي إن عليّ أن أنتظر نصف ساعة إلى أن يحين موعد قيام السيارة التالية، فودعت دليلي فعانقني كما يعانق الأخ أخاه. وقفل عائداً إلى قريته. وإذ جلست عند باب مكتب الشركة منتظراً السيارة غفوت تحت أشعة شمس الأصيل، ولم أفق إلا عندما شعرت بيد تهزني بخشونة من كتفي؛ لقد كان شرطياً سورياً. وانهالت الأسئلة المعتادة، فأتبعتها بالأجوبة المعهودة، ولكن الشرطي لم يقتنع بها على ما يظهر وقال لي:

– «تعال معي إلى مركز الشرطة وتحدث هناك إلى الضابط المسؤول».

وكنت مجهداً إلى درجة أنه لم يعد يهمّني احتمال اكتشاف أمري.

ودخلت إلى غرفة المركز فوجدت جاويشاً فرنسياً فظاً ضخم الجثة، وكان ثملاً غاضباً مزمجراً، وحدق بعينين يكاد الدم ينفر منهما إلى الشرطي الذي أدخلني عليه وصاح:

– «ماذا دهاك الآن»؟

وأوضح له الشرطي باللغة العربية أنه رآني غريباً فشك في أمري، وأوضحت له بدوري باللغة الفرنسية أنني لم أكن غريباً بل مواطناً متقيداً بالقانون.

فصرخ الجاويش عندئذ: «مواطن متقيد بالقانون! إنكم كلكم محتالون نصابون تطوفون البلاد من عاليها إلى دانيها لإزعاجنا. أين أوراقك»؟

وبينما كنت أتحسس بأصابع متيبسة وثيقتي المزورة ضرب بقبضة يده على الطاولة وجأر:

– «أخرج من هنا».

ما أعذب الراحة التي وجدتها في ركوب السيارة من قَطَنا على الطريق العام إلى غوطة دمشق بعد ذلك المشي الطويل. هناك في الأفق البعيد كانت غايتي، بحر لا نهاية له من رؤوس الأشجار، وقليل من القباب والمآذن البراقة. وبعيداً إلى اليمين انتصبت تلة منفردة عارية كانت قمتها لا تزال مضيئة بأشعة الشمس، بينما أخذت الظلال الخفيفة تدب صعوداً من قاعدتها. وفوق التلة كانت غمامة ضيقة طويلة تتلألأ بلون الذهب تحت السماء الزرقاء الشاحبة. وفوق السهل شفق وديع أشهب، وجبال بعيدة شامخة إلى اليمين وإلى اليسار، ونسيم عليل منعش.

ومن ثَمَّ جنائن باسقة الأشجار محوّطة بأسوار من طين. ثم دمشق، ضجة صاخبة بعد صمت الخلاء. كانت الأضواء الأولى تثب من النوافذ وفي الشوارع، وشعرت بحبور لم أستطع له وصفاً.

ولكن حبوري ما لبث أن انتهى فجأة عندما توقفت السيارة أمام مركز للشرطة في ضاحية دمشق.

فسألت السائق إلى جانبي قائلاً: «ما الأمر»؟

- «لا شيء. كل السيارات القادمة من الخارج يجب أن تقف أمام مركز الشرطة عند وصولها».

وانبرى شرطي سوري من المركز وسأل: «من أين أنت قادم».

فأجاب السائق: «من قطنا».

- «إذن يمكنك أن تكمل طريقك».

وتحركت السيارة، ومرة أخرى عاد إلي الأمل. إلا أنني ما لبثت أن سمعت صوتاً ينادي السائق من الشارع: «لقد أفلت الغطاء»، وعلى بضع خطوات من مركز الشرطة أوقف السائق السيارة القديمة كيما يغلق غطاء المحرّك. وبينما كان منهمكاً في ذلك، اقترب الشرطي منّا متمهلاً مرة أخرى غير مهتم على ما ظهر لي إلا بمشكلة السيارة. غير أن نظره ما لبث أن وقع عليّ، فتيبست أطرافي عندما رأيت عينيه قد أخذتا تحملقان بي. لقد أخذ يقلب نظره فيّ، ثم اقترب وحوّل بصره إلى أرض السيارة حيث كنت قد وضعت كيسي. وسألني بارتياب: «من أنت»؟

وبدأت: "من المطلة"، ولكن الشرطي كان يهزّ رأسه غير مصدّق قولي، ثم همس بضع كلمات في أذن السائق، واستطعت أن أتبين كلماته: «جندي إنكليزي هارب». ولأول مرة أدركت أن ثيابي الزرقاء وكيسي المصنوع من القماش العسكري تجعلني أبدو شبيهاً بمأموري الضبط الأيرلنديين الذين كانت حكومة فلسطين تستخدمهم في ذلك الحين، وذكرت أنه كان هناك اتفاق بين السلطات الفرنسية والبريطانية على تسليم الهاربين من الخدمة العسكرية.

وحاولت أن أوضح للشرطي أنني لم أكن هارباً من الجندية، ولكنه أبى أن يصدقني وقال:

- «أوضح هذا للمفوّض».

وهكذا أجبرت على الدخول إلى مركز الشرطة، بينما اعتذر السائق وأدار محرك سيارته واختفى عن الأنظار. وكان المفوض خارج المركز، إلا أنني أُخبرت أنه قد يعود في أية لحظة، وكان عليّ أن أنتظر في غرفة لم يكن فيها سوى مقعد واحد وبابين،

وعلى أحد البابين كان مكتوباً بالفرنسية "حارس السجن" بينما كان مكتوباًعلى الباب الثاني "السجن" وانتظرت وسط تلك البيئة المشؤومة أكثر من نصف ساعة، وكانت كل دقيقة تمر تزيد في اقتناعي بأن رحلتي انتهت عند ذلك الحدّ.

وفجأة سمعت صوت سيارة توقفت عند باب المركز ودخل إلى الغرفة بخطوات سريعة رجل يرتدي الثياب المدنية والطربوش الأحمر، يتبعه الشرطي الذي كان يحاول – باندفاع – أن ينقل إليه خبري. وكان واضحاً أن المفوض على عجلة من أمره.

لا أعرف كيف حدث ذلك تماما، ولكني اقتربت من المفوض، ودون أن أنتظر أسئلته، رحت أمطره بالفرنسية بوابل من الشكاوى ضد ذلك الشرطي الأخرق الذي أهانني إذ حسبني – أنا المواطن البريء – أحد الجنود الهاربين، فسبّب لي بذلك تخلّفي عن الوصول إلى البلدة. وحاول المفوض أن يقاطعني، ولكنني لم أدعه يتكلم بل تابعت الاحتجاج بشدة وعنف، حتى رفع يديه آخر الأمر يائساً وصرخ:

– «كفى! هل معك أوراق»؟

وذهبت يدي تبحث عن وثيقتي بينما ظل ذلك السيل من الاحتجاج يتدفق من فمي، ودسست الورقة في يديه. ولا شك في أن الرجل المسكين كان يشعر وكأنه آخذ في الغرق، ذلك أنه اكتفى بأن قلب إحدى زوايا الورقة المطوية، ونظر إلى خاتم الحكومة ورمى بها إلي قائلاً:

– «اذهب، فقط اذهب»، ولم أنتظر حتى يعيد طلبه كرة أخرى.

كنت قبل بضعة أشهر قد التقيت في القدس معلّماً دمشقيّاً دعاني إلى أن أحلّ ضيفاً عليه متى أتيت إلى دمشق، ولذلك أخذت في السؤال عن بيته. وقد تطوّع صبي صغير بأن يكون دليل إليه وسار بي ممسكاً بإحدى يدي.

كانت الظلمة دامسة وكنا نسير في المدينة القديمة، في الأزقة الضيقة التي كانت النوافذ البارزة تجعلها مظلمة أكثر. وقال الولد: "هنا". فقرعت الباب وأجابني أحدهم من الداخل، ودخلت إلى فناء مرصوف. وفي الظلام استطعت أن أميّز أشجار الليمون الهندي مثقلة بثمارها الناضرة وبركة حجرية في وسطها فوارة، وسمعت صوتاً ينادي من عل:

– « تفضل »، فارتقيت سلماً ضيقاً ملاصقاً لأحد الجدران الخارجية وسرت في ردهة مشكوفة حيث تلقفني صديقي وضمني إلى صدره مرحباً بي.

وإذ كنت متعباً منهوك القوى، فقد ألقيت بنفسي فوق الفراش الذي قُدّم إليّ، وكانت الريح تصفر خلال أشجار الفناء أمام البيت وخلال أشجار الحديقة خلفه، ومن بعيد انبعثت أصوات مكتومة كثيرة، أصوات مدينة عربية كبرى آخذة في النوم.

وبانفعال نفساني توّاق إلى تفهم جديد، وبعينين مفتوحتين على أشياء لم أتخيّلها من قبل، كنت أتجول إبان تلك الأيّام الصيفية في أزقّة السوق الكبير في دمشق، ووقفت على ذلك الاستقرار النفسي في حياة سكانها الذي يُحَسّ في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر؛ في الاعتبار الكبير الذي كانوا يلقون به ويودعون به بعضهم بعضاً، وفي الطريقة التي كان اثنان منهما يمشيان معاً، يمسك أحدهما بيد الآخر كالأطفال؛ لأن كلا منهما كان يشعر بالود الفطري نحو صاحبه، وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بها بعضهم بعضاً. أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة، الذين بدوا لي وكأنما ليس في قلوبهم أي قدر من الخوف أو الحسد، وإن صاحب الدكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومنافسه كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت راغباً في الشراء يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه، فيتقدم التاجر المجاور ويسأل الزبون عن حاجته، ويبيعه ما يطلبه من بضاعة جاره الغائب، ويترك له الثمن على مقعده.

وكانت بعض شوارع السوق تغص بالبدو في ألبستهم الفضفاضة، إنهم لا يتكلمون كثيراً بينهم، ذلك أن كلمة جُملة واحدة، تُلقى بانتباه وتُسمع بانتباه مثله لتغني عن محادثة طويلة. أولئك البدو لم يكونوا يعرفون الثرثرة، وبدا لي ذلك إحدى الفضائل البدوية.

وفي يوم الجمعة كنت تشاهد تبدّلاً في أسلوب الحياة في دمشق، مرح بهيج، وفي الوقت نفسه خشوع ومهابة.

إن يوم الجمعة عند المسلمين ليس فرصة لنسيان عملهم، لأن عملهم لم يكن يبدو أنه يتعارض مع رغباتهم الشخصية؛ مما جعل الراحة غير ضرورية إلا إذا شعروا بالتعب، ولذلك لم يُفرض في الإسلام راحة إجبارية يوم الجمعة. كان الصناع وأصحاب الدكاكين الصغيرة في أسواق دمشق يعملون ساعات قليلة، ثم يتركون دكاكينهم بضع ساعات ينصرفون خلالها إلى المساجد فيؤدون صلاة الجمعة، ويلقون أصدقاءهم بعد ذلك في أحد المقاهي، ليعودوا من ثَمّ إلى دكاكينهم حيث يعملون بضع ساعات على رِسْلِهم وكما يشاء كلٌّ منهم.

وفي يوم من أيام الجمعة ذهبت مع مضيفي إلى الجامع الأموي واسترعى انتباهي ما حَمَل طرازُ بنائه من شكل بيزنطي وبخاصة القبة والأقواس ، وتذكرت أن أصل المبنى كنيسة، وحمل من التقاليد الكنيسية أيضاً ما أُلحق به من مقامات للأنبياء أو الصالحين، ولم أُنْكر شيئاً من ذلك لأني لم أكن عرفت بَعْدُ أن كلّ ذلك أجنبيّ عن الأسلام وغيره من الأديان السماوية.

وفي صفوف طويلة مستقيمة كان يقف مئات من الرجال وراء الإمام. كانوا يركعون لله ثم يسجدون له بوضع جباههم على الأرض، ثم ينهضون ثانية في وحدة منظمة. وكان كل شيئ هادئاً، وبينما كان الحشد وقوفاً، كان باستطاعة المرء أن يسمع صوت الإمام يتلو آيات من القرآن، حتى إذا ما ركع أو سجد تبعه الجميع، يركعون ويسجدون لله كأنما هو ماثل أمام أعينهم. في تلك اللحظة أدركت مبلغ قرب المسلمين الصالحين من ربهم ومن دينهم. إن صلاتهم لم تكن تبدو منفصلة عن يوم عملهم مستقلة عنه، بل كانت قسْماً منه، ولم يقصد بها أن تساعدهم على نسيان الحياة، بل على أدائها بطريقة أفضل.

وقلت لصاحبي إذ كنا نغادر المسجد: «ما أغرب أن تشعروا أن الله قريب منكم إلى هذا الحد! أود لو أستطيع أن أشعر هذا الشعور»، فأجابني: «وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك يا أخي، والله تعالى يقول في كتابه الطاهر: ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾؟

وقد كان لهذا أبلغ الأثر في نفسي، فقضيت معظم أيامي في دمشق، أقرأ كل ما تصل إليه يدي من الكتب عن الإسلام. ومع أن معرفتي باللغة العربية كانت كافية للتحدث بها، فإنها لم تكن قد بلغت في ذلك الحين من القوة بحيث أستطيع أن أقرأ عن الإسلام بلغته الأصلية، وهكذا كان علي أن ألجأ إلى ترجمتين للقرآن – فرنسية وألمانية – استعرتهما من إحدى المكتبات. ومهما كانت تلك الدراسة مؤلفة من نتف وشذرات فإنها رفعت الغشاوة عن عيني. لقد بدأت أميّز عالماً من الحكمة كنت حتى ذلك الحين أجهله جهلاً كلياً.

بدا لي الإسلام طريقاً يقينياً في الحياة، ومنهاجاً للسلوك الذاتي والاجتماعي قائماً على ذكر الله. لا يجيز اتخاذ واسطة بين الله وعبده من أجل "الخلاص"، وليس فيه دعوى عن "خطيئة أولى" موروثة تقف بين الفرد ومصيره، ذلك: ﴿ **أن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾، ولا يتطلب فتح باب خفي إلى الطهارة، ذلك أن الطهارة حق يرثه الإنسان بالولادة، والخطيئة ليست سوى زلة طارئة تمحوها التوبة وفعل الحسنة بعدها. وليس فيه من أثر للثنائية في الطبيعة الإنسانية، ذلك أن الروح والجسد فيه وحدة متكاملة.

لقد أجفلت في أول الأمر لاهتمام الإسلام بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي دنيوية تافهة، إلا أنني – مع الزمن – بدأت أفهم أنه إذا كان الإنسان حقاً وحدة متكاملة من جسد وروح فإنه ليس هناك وجه من وجوه حياته يمكن أن يكون من "التفاهة" بحيث لا يقع داخل نطاق الدين. ومع كل هذا، فإن الإسلام لا يدع أتباعه مطلقاً ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة من طريق الإنسان إلى حياة أخرى هي الحياة الحقيقية.

إن الرخاء المادي مطلب مشروع: ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾، ولكنه ليس غاية في ذاته، ولذلك فإن شهوات الإنسان يجب أن ترضى فقط عن طريق الالتزام الديني بشريعة الله في علاقة الإنسان بخالقه وعلاقاته بغيره من المخلوقات. وساءلت نفسي: «ألا يمكن أن تكون الأحكام الشرعية سبباً في الأمن الداخلي الذي أحسسته في بلاد المسلمين»؟.

روح وجسد

- ١ -

سرنا - زيد وأنا - على راحلتين. ومرت الأيام، وكانت الليالي قصاراً. ونحن نسير باتجاه الجنوب بخطوات رشيقة. كان ذلولانا في حالة ممتازة، ذلك أنهما قد ارتويا منذ وقت يسير، وتسنى لهما أن يرعيا في مروج خصبة. وكان يتعين علينا أن نسير أربعة عشر يوماً أخرى قبل أن نصل إلى مكة ,وقد تطول هذه المدة فيما إذا قضينا بعض الوقت في حايل والمدينة، وكلتاهما كانت تقع على طريقنا.

كنت حتى ذلك الحين قد اعتدت أن أستمتع بالسفر على مهل، دون أي دافع للعجلة. أما الآن فقد بدأت أشعر بما لم أشعر به من قبل في السنوات التي قضيتها في جزيرة العرب؛ رغبة ملحة بالوصول عاجلاً إلى نهاية طريقي. وأية غاية؟ أن أرى مكة؟ لقد ذهبت إلى المدينة النبوية مراراً عديدة، وعرفت حياتها معرفة جيِّدة إلى درجة أنني لم أعد أتوقّع أن أكتشف فيها جديداً. ولكن أملاً وترقباً كانا يجذبانني إلى مكة، كأنما ذلك المركز الديني للعالم المسلم بما كان يكتظ فيه من شعوب عديدة من جميع أنحاء العالم، كان ضرباً من الوعد بعالم أوسع من ذلك الذي عشت فيه من قبل. لم يكن ذلك لأنني سئمت جزيرة العرب. لا، لقد أحببت صحاريها وبلدانها وعادات أهلها كما أحببتها دائماً، إلا أنه منذ ليلتي عند البئر منذ يومين اقتنعت بأن جزيرة العرب قد أعطتني كل ما كان لها أن تعطيني.

لقد كنت شاباً قوياً صحيح الجسم. كان باستطاعتي أن أركب ساعات كثيرة دون أن يعتريني تعب. وكنت أستطيع أن أرتحل كما يرتحل البدوي، دون خيمة ودون أيّ من وسائل الراحة التي كثيراً ما كان سكان المدن في نجد يرونها ضرورية في الرحلات الطويلة عبر الصحراء. لقد كنت في وطني الجديد أعيش دقائق الحياة البدوية، وأتبع عادات النجديين وطرائقهم. ولكن هل كان ذلك كل شيء؟ هل عشت كل تلك المدة الطويلة في جزيرة العرب لأصبح عربياً فحسب؟ أم إن ذلك كان إعداداً لشيء يخبئه الغيب عنّي؟.

كان ذلك الملل الذي اعتراني في هذه الرحلة مع زيد عام ١٩٣٢ شبيهاً نوعاً ما بذلك الملل الشديد الذي خبرته عندما عدت إلى أوروبا بعد أول رحلة قمت بها إلى الشرق الأدنى عام ١٩٢٣؛ الشعور بأنني قد قصرت عن تحقيق رؤى عظيمة كان يمكن أن تتكشف لي لو أنه كان هناك متسع أكبر من الوقت.

ولقد خف ذلك التأثير الأول الذي أحدثه في نفسي اجتياز العالم العربي أثناء عودتي إلى أوروبا، وذلك بفعل الأشهر التي قضيتها في تركيا بعد مغادرتي سوريا في خريف سنة ١٩٢٣. كانت تركيا (أتاتورك) لم تدخل في تلك الأيام مرحلتها الأخيرة في التقليد، كانت لا تزال تركية أصيلة في حياتها وتقاليدها، كما كانت -بسبب من رابطة الإسلام - لا تزال على صلة بمجرى الحياة العربية العام، ولكن دم الأتراك بدا لي ثقيلاً مقارنة بخفة الدم العربي، ولقد كانوا أقرب إلى الغرب في شعورهم. فعندما سافرت براً من اسطنبول إلى صوفيا فبلغراد لم أُحسّ بانتقال مفاجىء من الشرق إلى الغرب، إلى أن وجدت نفسي فجأة - عند الحدود الإيطالية - في أوروبا ثانية.

وإذ جلست في القطار الذي كان يُقلّني من تريستا إلى فيينا، أخذَتْ انطباعاتي الحديثة عن تركيا تفقد كلَّ حيويتها. والواقع الوحيد الذي بقي كان تلك الأشهر الثمانية عشرة التي كنت قد قضيتها في البلدان العربية. ولقد أحسست بصدمة ما عندما أدركت أنني كنت أنظر إلى تلك المشاهد الأوروبية بعين الغريب. وفجأة عرفت أنه بالرغم من ظهور الأوروبيين بمظهر الذي يعرف هدفه في كل ما كانوا يصدرون عنه، فإنّهم كانوا يعيشون -دون أن يدركوا ذلك- في عالم من الادعاء والتظاهر. وكان واضحاً أن اتصالي بالعرب كان قد بدل بالكلية نظرتي إلى ما كنت أعتبره جوهرياً في الحياة.

ولقد جاءني تأكيد هذا الشعور من (فان درمولن) وزير هولندا المفوض في جدة. كان ذا ثقافة واسعة الأفق وكان متمسكاً بدينه المسيحي بقوة يندر وجودها الآن بين الغربيين؛ ولذلك لم يكن صديقاً للإسلام. ومع ذلك فقد اعترف لي أنه أحبَّ جزيرة العرب أكثر من حبه لأيِّ بلد آخر رآه من قبل، دون أن يستثني وطنه. وعندما أشرفَتْ خدمته في جزيرة العرب على نهايتها قال لي مرة: «أعتقد أنه ما من شخص ذي لبّ

يستطيع أن يبقى دائماً غير متأثر بسحر الحياة العربية، أو أن ينتزعها من قلبه بعد أن يعيش مع العرب وقتاً كافياً».

توقفت في فيينا بضعة أسابيع حيث احتفلت بمُصالحة أبي. لقد خبا الآن غضبه لتركي دراساتي الجامعية وللطريقة غير اللائقة التي هجرْتُ بها العيش في كنفه؛ لقد أصبحت الآن مراسلاً (لفرانكفورتر تزايتونك) مما صدّق ادّعائي بأنني "سأصل إلى القمة".

ومن فيينا سافرت إلى (فرانكفورت) لأقدِّم نفسي إلى الصحيفة التي راسلتها أكثر من سنة. ولقد فعلت ذلك باطمئنان كبير، ذلك أن الرسائل التي تسلمتها من (فرانكفورت) بيّنت لي أن عملي كان محل التقدير. ودخلت صرح (فرانكفورتر تزايتونك) القديم المعتم، وأرسلت بطاقتي إلى رئيس التحرير (الدكتور سيمون) الذي كان يتمتع بشهرة عالمية وقتئذ.

والظاهر أن اكتشاف (سيمون) صغر سني قد قوى اقتناعه بأنه قد وجد فيّ مراسلاً يرجى منه خير كثير، ولذا وافق على اقتراح عودتي إلى الشرق الأوسط بأسرع ما يمكن.

إلا أنه كان يُنتظر مني، قبل أن أترك ألمانيا مرة أخرى، أن أنجز الكتاب الذي كانت الجريدة قد تعاقدت معي من قبل على إخراجه. ولذلك فقد قررت الإدارة أن ألتحق بمكتب رئاسة التحرير كي يتسنى لي أن أكتسب خبرة وافية بأعمال الصحف الكبرى.

وبالرغم من تلهفي على السفر مرة أخرى، فقد كانت تلك الأشهر التي قضيتها في (فرانكفورت) منعشة مثيرة إلى حد بعيد، ذلك أن (فرانكفورتر تزايتونك) كانت مؤسسة كبرى للبحث والاستقصاء. لقد كانت تستخدم نحواً من خمسة وأربعين محرراً من الطراز الأول، عدا الكثيرين من المحررين الثانويين والمساعدين في مكاتب الأخبار. وكان العمل التحريري اختصاصياً؛ فكل مكان من العالم، وكل موضوع سياسي أو اقتصادي قد وضع في عهدة خبير شهير بارز في حقله، وذلك اتباعاً للتقليد القديم الذي يقضي بأن لا تكون مقالات (فرانكفورتر تزايتونك)

ورسائلها مجرد انعكاسات زائلة للأحداث العابرة، بل مؤيّدة بالأدلة والوثائق الخطية التي يمكن للسياسيين والمؤرخين أن يرجعوا إليها. وكان معروفاً لدى الجميع أن وزارة الخارجية في برلين كانت تحيط مقالات (فرانكفورتر تزايتونك) الافتتاحية والتحليلية بالاحترام نفسه الذي كانت تسبغه على مذكرات الحكومات الأجنبية. والحق أن العضوية في مثل تلك المؤسسة كانت مبهجة ومرضية إلى حد كبير لشاب في مثل سني، خصوصاً وأن آرائي عن الشرق الأوسط قد لاقت انتباهاً جدّياً من المحررين، وكثيراً ما كانت موضوع مؤتمراتهم اليومية. وجاء النصر النهائي في ذلك اليوم، عندما طُلب إليّ أن أكتب مقالاً افتتاحياً عن مشكلة نشأت في الشرق الأوسط حينذاك.

لقد أسبغ عملي في (فرانكفورتر تزايتونك) عليّ قوة دافعة عظيمة، وبدأت، بصفاء ووضوح أكبر من أيّ وقت مضى، أروي خبراتي الشرقية إلى العالم الغربي الذي عدت مرة أخرى جزءاً منه. وكما كنت قد اكتشفت منذ أشهر صلة بين الأمن النفسي عند العرب والدين الذين كانوا يدينون به، كذلك بدأ يتضح لي أن افتقار أوروبا إلى الوحدة الداخلية الذاتية، وحالتها الأدبية والأخلاقية المضطربة، ربما كانا ناتجين عن فقدانها ذلك الاتصال بمعتقدها الديني.

في أثناء عملي في هيئة تحرير (فرانكفورتر تزايتونك) قمت بزيارات متكررة إلى برلين، حيث كان يقطن معظم أصدقائي، وفي إحدى تلك الرحلات التقيت (إلسا) المرأة التي قُدّر لها أن تصبح زوجتي فيما بعد. وإذ كنت أحمل تلك الانطباعات الكثيرة عن العالم العربي فقد نقلتها بالطبع إلى (إلسا). وأظهرت هي بدورها -بخلاف أكثر أصدقائي- تفهماً للمشاعر والأفكار غير الكاملة حتى ذلك الحين التي أحدثتها تلك الانطباعات في نفسي وعطفاً عليها، إلى درجة أنني شعرت شعوراً قوياً أنها - هي وحدها - تستطيع أن تفهم ما أقصد إليه، وتستطيع أن تساعدني في بحثي. وتزوّجنا.

-٢-

وانقضى يوم آخر من أيام الارتحال. لقد ران عليّ صمت وهدوء، بينما كان الليل وديعاً من حولي. كانت الريح تنزل على الكثبان وتموّج الرمال عند انحدارها. وفي دائرة

ضوء النار الضيقة استطعت أن أرى صورة زيد وهو يعتني بقدوره وأباريقه، وأخراجنا قابعة بالقرب منها حيث قذفنا بها عندما وقفنا لقضاء الليل غير بعيد منا. كانت الذلولان جاثمتين على الأرض، متعبتين بعد ذلك المسير الطويل، وعنقاهما ممدودتان فوق الرمل، ووراءهما الصحراء الخالية لا تكاد تُرى تحت ضوء النجوم الخافت.

إن الصحراء بخشونتها وعريها تُجرّدنا من الخداع والمراوغات ومن الأوهام والأضاليل المتعددة المتشعبة التي بها يمكن لطبيعة أكثر ترفاً أن تخلب عقل الإنسان وتجعله يسلط تخيلاته الخاصة على العالم من حوله.

ومنذ أن بدأ الإنسان يفكر، كانت الصحراء مهد كل اعتقاداته بإله واحد؛ فمن الصحراء كلم الله موسى، وفي الصحراء تلقى المسيح رسالة الله، وفي التلال الصحراوية قرب مكة أوحى الله إلى محمد ﷺ أول كلماته.

وكان الصباح قد اقترب، والنار قد خبت. وكان زيد نائماً وهو ملتف بغطائه، وكان بعيرانا قابعين دون حراك كأنهما رابيتان من الأرض. كانت النجوم لا تزال ترى، مما يحملك على الاعتقاد بأنه لا يزال لديك متسع من الوقت للنوم، إلا أن خيطاً أبيض من النور ينبثق من السماء مؤذناً بانبلاج الفجر، وقت صلاة الصبح.

-٣-

وبدا لأعيننا نخيل حايل. وتوقفنا بجانب برج خرب، لنستعد لدخول البلدة.

وحايل بلدة عربية أكثر من بغداد أو دمشق أو القاهرة إلى حدّ بعيد، فليس فيها رجل واحد غير عربي أو غير مسلم إنها صافية غير مخلوطة ككأس من الحليب الطازج، وليس في سوقها أثر لأيّ لباس أجنبي، وكانت شوارعها أكثر نظافة من شوارع أية مدينة أخرى في الشرق الأوسط. أما بيوتها فكانت مبنية من طبقات أفقية مستوية من اللبن المرصوص، ومكسوة بالطين.

وإذ وصلنا إلى قلعة الأمير، حيث عزمنا أن نقضي اليومين التاليين، وجدنا مضيفنا يترأس اجتماعاً في الخلاء خارج أبواب القلعة. وبسبب من أنه كان من أقوى حكام

الملك ابن سعود، فقد كان يدعى "أمير الشمال"؛ لأنه لم يكن يسيطر على مقاطعة جبل شمر فحسب بل على جميع الجزء الشمالي من نجد، حتى حدود سوريا والعراق، وهي مساحة تعادل مساحة فرنسا تقريباً.

كان الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي (من آل سعود، وصديق قديم لي) وبضعة شيوخ من البدو جالسين على مقعد طويل ضيق من الطّين، مبني بمحاذاة جدار القلعة. وفي صف طويل على الأرض كان يجلس رجال ابن مساعد، أولئك الحراس ببنادقهم وسيوفهم الحدباء، لا يتركونه طوال النهار، لا لحمايته فحسب، بل إظهاراً لهيبته وسلطته. وإلى جانب هؤلاء كان مربّوا الصقور بطيورهم الجاثمة على قبضاتهم المكسوة بالقفازات، فالخدم، فعمّال الاسطبلات؛ كلهم يشعرون أنهم بشر سواء، بالرغم من الفروق بين منازلهم ووظائفهم .وفي مواجهتهم كان هناك كثير من البدو وأهالي البلدة جالسين القرفصاء، جاءوا يحملون شكاواهم ويعرضون خلافاتهم على الأمير.

وأنخنا راحلتينا خارج الدائرة، وعهدنا بهما إلى اثنين من الأتباع هرعا إلينا، وسرنا إلى الأمير فنهض ونهض معه كل من كان جالساً إلى جانبه على المقعد وعلى الأرض، ومد إلينا يده وقال مرحّباً:

– «أهلاً وسهلاً، حياكم الله وعافاكم».

وقبّلت الأمير علي مقدمة أنفه على جبهته، وقبّلني على خدي، وجذبني نحو المقعد إلى جانبه. أما زيد فقد وجد لنفسه مكاناً بين أقرانه من الحاشية. وقدمني ابن مساعد إلى ضيوفه الآخرين. ثم نادى: "قهوة".

وأعاد الخادم الأقرب إلى الأمير النداء: "قهوة"، فتناوله الخادم الذي كان واقفاً في الطرف الأقصى: "قهوة"، وهكذا إلى أن بلغ النداء باب القلعة ورجع صداه من الداخل. وما هي إلا لحظة حتى ظهر خادم يحمل إبريق القهوة النحاسي في يده اليسرى وبضعة فناجين صغيرة في يده اليمنى، وصبّ في الفنجان الأول للأمير، وفي الثاني لي، ثم للضيوف الآخرين حسب منازلهم. وكان الفنجان يُملأ مرة أو مرتين، حتى إذا ما أشار الضيف إلى أنه قد اكتفى مُليء الفنجان مرة أخرى وقُدّم إلى الرجل الذي يليه.

وكان الأمير، على ما بدا لي، في شوق إلى أن يقف على نتائج رحلتي إلى حدود العراق، ولكنه كبت شوقه واكتفى بأسئلة موجزة عما حدث لي في الطريق، مؤجلاً الحصول على معلومات أوفى إلى حين انفراده بي، ثم تابع جلسته القضائية التي كانت قد توقفت بسبب وصولي.

مثل هذه المحكمة غير الرسمية لا يمكن تصورها في الغرب. فالأمير يُنظر إليه بكل تبجيل واحترام، إلا أنه ليس هناك أثر للخنوع أو الذل في الاحترام الذي يظهره البدو له. إن كلاً من المدّعي والمدّعى عليه يظل واعياً، بفخر وزهو، لإنسانيته الحرة. إن حركاتهما وإشاراتهما لا تتوقف ولا تنقطع، وكثيراً ما تكون أصواتهما مرتفعة توحي بوثوقهما من أقوالهما، وكل منهما يخاطب الأمير كما يخاطب أخاً كبيراً له، فيدعوه - كما هي عادة البدو مع الملك ابن سعود نفسه - باسمه الأول، لا بلقبه. ومن ناحية أخرى؛ فليس هناك من أثر للعجرفة أو الغطرسة في سلوك ابن مساعد. إن وجهه الوسيم بلحيته القصيرة السوداء، وقامته المعتدلة، وجسمه المربوع تعبر كلها عن ذلك الكبح الذاتي الطبيعي وعزة النفس السهلة التي كثيراً ما تصاحب القوة والسطوة في جزيرة العرب. إنه رزين وحازم لا يطيل الحديث، وبكلمات جازمة يعطي أحكامه في القضايا الإداريّة، ويحيل الفقهية منها إلى قاضي المنطقة.

ليس من السهل أن يتولى المرء السلطة العليا في منطقة بدوية واسعة، ذلك أن المعرفة الدقيقة بالقبائل المختلفة وبالمراعي والتاريخ والطباع كلها ضرورية لإصابة الحلول الصحيحة لشكاوى البدو وقضاياهم. ولعل ابن مساعد من خير من تتوفّر فيه صفات الحاكم بين أمراء ابن سعود. إنه هادىء وخال من التناقضات؛ بحيث أن غريزته تكاد تدله دائماً على الطريق الصحيح كلما واجه مشكلة عويصة. إنه في الحياة كالسبّاح الماهر الذي يدع المياه تحمله فيسيطر عليها بالتكيّف معها.

كان بدويانِ عليهما عباءتان رثّتان يعرضان الآن خلافهما على ابن مساعد بكلمات وإشارات مهتاجة. والبدو ليس التعامل معهم بالأمر اليسير. وإن فيهم دائماً شيئاً لا يمكن التنبؤ به، سرعة في التهيج لا تعرف التراضي ولا التسوية. ولكنني استطعت أن أرى الآن كيف يخمد ابن مساعد عواطفهم الفائرة ويسكن من روعهم

بكلماته الهادئة. إنّك لتظن أنه لا بد أن يأمر أحدهما بأن يلزم جانب الصمت بينما يثبت الآخر صحة ما يدعيه من حق. ولكن لا، إنّه يتركهما يتكلمان معاً في الوقت نفسه، يتباريان في الصراخ أحدهما على الآخر، وبين الفينة والفينة يتدخل بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك، وينغمس مرّة في مناقشتهما الحامية، ثم يتظاهر بالانسحاب منها ليدخل مرة ثانية بعد قليل بإبداء ملاحظة في محلها، إنه لمشهد مدهش هذا التكيف العقلي الذي يصطنعه الأمير إزاء واقع يبسطه رجلان مغضبان بمثل هذا القدر من التناقض، لا بسبيل البحث عن الحقيقة بالمعنى القضائي بقدر ما هو بسبيل الكشف البطيء عن واقع موضوعي خفي. إن الأمير ليقترب من هذا الهدف باستخراج الحقيقة بأناة وصبر وبطريقة لا يكاد يلحظها المدعي والمدعى عليه، إلى أن يتوقفا فجأة وينظر أحدهما إلى الآخر في دهشة، ويدركا أن الحكم قد تقرّر، حُكْماً عادلاً واضحاً بحيث لا يتطلب أي زيادة في الشرح. وعندئذ يقف أحد الاثنين بتردد، ثم يعدّل من عباءته ويجذب خصمه السابق من كمّه جذباً ودّياً: "تعال"، ويتراجعان معاً وقد سُرّي عنهما، وتتمتم شفتاهما بالدعاء للأمير بالسلام والرحمة.

ثم انتقل ابن مساعد – بعد أن اتكأ بتراخ على الحائط من اللّبن – إلى القضية التالية، وكان وجهه المليء بالقوة والحزم، ذو العينين العميقتين، وجه زعيم حقيقي، يمثّل – بصورة كاملة – أعظم فضيلة لبني قومه: رجاحة العقل.

وكان واضحاً أن أكثر الحضور كانوا يحسّون إعجاباً مماثلاً، فقد اتلع واحد من الذين كانوا يجلسون على الأرض قبالتي عنقه نحوي والابتسامة تعلو وجهه وقال:

– «أليس هو كذلك السلطان الذي قال فيه المتنبي:

قد زرته وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم وكان أحسن ما في الأحسن الشيم»؟

ولم أجد من الغريب أن اسمع بدوياً أمياً يورد أبياتاً لشاعر عربي قدير عاش في القرن العاشر.

وكما أن هذا البدوي قد تمكن من أن يذكر أبياتاً من الشعر للمتنبي تناسب المقام وتمثل حالة شهدها بنفسه، كذلك فإن كثيراً من الفُرس الفقراء الذين لم يعرفوا في حياتهم المدرسة – من الحمالين والسّقاة في السوق والجنود في مراكز الحدود النائية – يحملون في ذاكرتهم أبياتاً من شعر الشيرازي أو جامي أو الفردوسي، ويرددونها بمتعة ظاهرة في أحاديثهم اليومية. وبرغم أن هؤلاء المسلمين قد وجدوا في نصوص الوحي خيراً من تراثهم الثقافي مبنىً ومعنىً؛ فلا زال اتّصالهم حيّاً بذلك التراث.

– ٤ –

– «ألا تسعدني بتناولك طعام العشاء معي الآن، يا محمد»؟ كذلك أيقظني صوت الأمير ابن مساعد من هواجسي فرفعت رأسي، وكانت الجلسة القضائية قد انتهت. وأخذ الحاضرون ينصرفون واحداً بعد واحد، ونهض ابن مساعد ونهض معه ضيوفه وحراسه. وانقسم ذلك الحشد من الأتباع كيما يفسحوا لنا طريقاً للمرور. وإذ تخطينا الباب تبعونا إلى فناء القلعة.

– ٥ –

وفي ساعة متأخرة من الليل، بينما كنت أتأهب للذهاب إلى الفراش في الغرفة التي خُصّصت لي في القصر، وجدت زيداً أكثر صمتاً من العادة.

– «ما هو شعورك يا زيد، إذ عدت الآن إلى موطن شبابك»؟.

– «لقد مضت إحدى عشرة سنة منذ أن كنت هنا آخر مرة. أنت تعرف أن قلبي لم يكن يدعني آتي إلى هنا من قبل كي أرى أهل الجنوب يحكمون في قصر ابن رشيد. ولكنني تذكرت قول الله تعالى في كتابه: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾. إن الله قد أعطى الملك لآل الرشيد، ولكنهم لم يعرفوا كيف يسوسونه كما كان ينبغي لهم أن يسوسوه. لقد كانوا كرماء على الناس أشداء على أهلهم، كان الأخ يقتل أخاه، وهكذا نزع الله حكمهم وأعاده إلى ابن سعود. أعتقد أنني يجب أن لا أحزن بعد الآن، ألم يأت في القرآن:

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم ﴾؟.

كان في صوت زيد تسليم حلو، تسليم لا يتضمن أكثر من قبول شيء قد حصل فعلاً فليس بالإمكان إبطاله. هذا التّسليم في شريعة الإسلام بأن كل ما حدث كان لا بد أن يحدث بهذه الطريقة عينها، كثيراً ما يظنّه الغربيون –خطأ– اتكالية مثبّطة عن العمل، ولكن إذعان المسلم للقدر يتعلق بالماضي وليس بالحاضر أو بالمستقبل؛ إنه ليس رفضاً للعمل والأمل ومحاولة الإصلاح، وإنّما هو رفض للقلق على ماضٍ انتهى، وكان قدراً من الخالق لا مفرّ للمخلوق منه.

وأردف زيد: «وأكثر من ذلك، فإن ابن سعود لم يعامل (شمر) معاملة سيئة، وهم يعرفون ذلك؛ ألم يؤيدوه بسيوفهم منذ ثلاث سنوات في فتنة الدويش»؟

لقد فعلوا ذلك حقاً رغم التنافس السياسي الطويل بين الطرفين.

وبالإضافة إلى التنافس السياسي، فإن هناك عاملاً آخر في الاختلاف بين الشمال والجنوب في جزيرة العرب. ففي الجنوب قام المصلح الديني محمد بن عبد الوهاب منذ مئتي عام تقريباً، فأثار في الناس عودة إلى الدين الصحيح وحماسة للدعوة إليه والدفاع عنه. وفي بلدة الدرعية الصغيرة، فاز المصلح بالذراع السياسية التي أعطت قوة عملية لدعوته التجديدية. وفي بضع عشرات من السنين صار جزء كبير من جزيرة العرب تحت لواء الحركة الدينية المتوقدة التي لا تلين والتي سماها أعداؤها بـ:"الوهابية". وفي جميع الحروب والفتوحات السعودية التي حدثت في القرنين الأخيرين كان أهل الجنوب هم الذين رفعوا عالياً أعلام التوحيد، في حين أن الشمال ظلّ بعيداً عن اليقين الديني المتقد عند أهل الجنوب من أهل نجد، ويعود السبب في ذلك إلى أن شمّر، إذ كانت تعيش بالقرب من الشام والعراق وكانت على اتصال دائم بهما من طريق التجارة، قد اكتسبت – خلال العصور – ليونة وميوعة دينية واستعداداً للتنازل والتقليد لم يعرفه الجنوبيون الذين كانوا يعيشون في عزلة أشد.

والحقّ أن من يسمّون "الوهابيين" ليسوا أتباع مذهب مستقل خاص. فالمذهب يستلزم وجود مبادئ وتعاليم مستقلة تميز أتباعه عن الأتباع الآخرين للدين نفسه. ولكن دعوة ابن عبد الوهاب ليس فيها أية مبادىء وتعاليم مستقلّة؛ بل -على العكس- لقد حاولت هذه الحركة أن تقضي على جميع البدع والخرافات التي نمت خلال عصور التخلف فغطّت تعاليم الإسلام الأولى، وأن تعيد الناس إلى رسالة النبيﷺ الأصلية.

ولا شك أن هذه المحاولة كانت بوضوحها الذي لا يرقى إليه الشك، محاولة عظيمة كان يمكن أن تؤدي – مع الزمن – إلى تحرير العالم المسلم تحريراً كاملاً من جميع البدع والخرافات التي حجبت رسالته الصحيحة وأبهمتها. وكثيراً من حركات النهضة الدينية اللاحقة وبخاصة في الهند وإفريقيا يمكن أن ترجع إلى التجديد الديني الذي حركه في القرن الثامن عشر محمد بن عبد الوهاب. إلا أن التجديد النجدي لتعاليم الإسلام – بمحاولة العودة به إلى الأصل – الذي أدى إلى تأسيس الدّولة السعودية في نهاية القرن الثامن عشر، وتوسّعها في الجزء الأكبر من جزيرة العرب في القرن التاسع عشر، وتجديدها مع بداية القرن العشرين بقيادة الملك عبد العزيز، وقفت في طريقها قوى سياسية خوفاً على مصالحها في المنطقة، وبخاصة الدّولة العثمانيّة التي كان اهتمامها بالتوسّع السياسي لا يفيده الإصلاح الدّيني بل يقيّده؛ إذ كان العثمانيون سبباً قويّاً في انتشار البدع والخرافات من قبل، ثم كانوا حرباً على دعوة التجديد في جزيرة العرب باللسان والسّنان من بعد.

أحــلام

-١-

أن تكون صديقاً لأمير عربي عظيم وضيفاً عليه يعني أن تلقى الاحترام والإكرام من كل أحد وفي كل مكان تحت سلطته. فالضيف نادراً ما يعبر عن رغبة دون أن تحقق متى كان بالإمكان تحقيقها، ومن ساعة إلى أخرى يغمره ذلك الكرم الفياض الحماسي في سوق البلدة بمثل ما يغمره في قاعات القصر.

ولقد كان كرم ابن مساعد شديد الشبه بكرم ابن سعود، مما لم يكن مستغرباً إذا عرفنا العلاقة الوثيقة بينهما، ذلك أنهما لم يكونا قريبين فحسب، بل تقاسما – منذ أن كان ابن سعود شاباً وابن مساعد حدثاً – معظم المتاعب والمصاعب التي واجهها الملك في أوائل حكمه.

ولقد كانت جوهرة – أخت ابن مساعد – حبّ ابن سعود الكبير. وحتى الآن بعد أن مضى على وفاتها نحو من ثلاث عشرة سنة، لا يذكرها الملك إلاّ وتقف الغصّة في حلقه. ولكن جوهرة توفيت أثناء وباء الانفلونزا الذي انتشر سنة ١٩١٩ الذي قضى أيضاً على ابنه البكر (تركي) وهذه الخسارة المزدوجة تركت في حياته جرحاً لا يندمل.

ولم يكن حب ابن سعود هذا الحب الكبير وقفاً على زوجته وأولاده، ذلك أنه كان يحب أباه كما لم يحب إلا القلائل آباءهم. إن أباه الإمام عبد الرحمن كان رجلاً لطيفاً وتقياً، ولكنه لم يكن قطعاً شخصية بارزة بمثل ما كان ابنه عبد العزيز، كما أنه لم يشترك مباشرة في بناء مجد ابنه. ومع ذلك فإن ابن سعود، حتى بعد أن أصبح حاكم البلاد غير منازع، كان متواضعاً لأبيه إلى أبعد حدود التواضع، حتى أنه لم يكن يسمح لنفسه مطلقاً ولم يكن يرضى بأن يطأ أرض غرفة من غرف القصر إذا كان والده عبد الرحمن في الغرفة التي تحتها، وكان لا يجلس مطلقاً في حضرة والده إلا إذا دعاه إلى ذلك علانية.

وكنا في مكة حين جاءت الأخبار إلى الملك بوفاة أبيه في الرياض. إنني لن أنسى ما حييت كيف حدق الملك بالرسول بضع دقائق كأنه لم يفهم عنه، والحزن الذي اكتنف الملامح التي كانت في العادي من الأحوال على قدر عظيم من الوداعة والهدوء. لقد رفض، طيلة يومين بعد ذلك، أن يرى أحداً أو يشاركه طعاماً أو شراباً، وكان يقضي آناء الليل وأطراف النهار في الصلاة.

كم من الأبناء في متوسط العمر، كم من الملوك الذين شادوا ملكهم بسواعدهم، كانوا يحزنون لموت آبائهم تلك الميتة الهادئة بعد ذلك العمر الطويل كما فعل ابن سعود؟.

– ٢ –

نعم، إن عبد العزيز بن سعود إنما شاد بساعديه ملكه المتباعد الأطراف. فعندما كان طفلاً، كانت سلالته قد فقدت كل ما كان قد تبقى لها من قوة في أواسط جزيرة العرب، وخَلَفتها السلالة التي كانت في ما مضى تابعة لها: آل الرشيد، من حايل. تلك كانت أياماً مرّة لعبد العزيز. لقد كان على الصبي الأبيّ أن يشهد أميراً غريباً يحكم مدينة آبائه وأجداده باسم ابن رشيد، بعد أن كانت عائلة ابن سعود تسيطر على معظم جزيرة العرب. وضاق عبد الرحمن – والد عبد العزيز – بما آل إليه حالهم فغادر الرياض مع عائلته ليقضي بضع سنين في ضيافة صديقه القديم شيخ الكويت حتى يحدث الله أمراً، ولم يكن عارفاً بما يخبىء قدر الله لعائلته على يد ولده عبد العزيز.

ومن بين أفراد العائلة كان هناك شخص واحد يعرف القليل مما كان يعتمل في ذلك الفؤاد المتحمس؛ عمته الصغرى. إنني لا أعرف عنها الكثير، ولكنني أعرف أن الملك كان يذكرها باحترام كبير كلما تحدث عن أيام شبابه.

– «لقد كانت تحبّني – فيما أعتقد – أكثر مما كانت تحبّ أولادها، كانت عندما تنفرد بي، تضعني في حجرها وتنبئني بالأمور العظيمة التي كان علي أن أحققها إذا ما كبرت. كانت تقول لي: عليك أن تحيي عظمة بيت آل سعود. وكانت تكرر قولها: ولكني أريدك أن تعلم يا عزيّز، أن عظمة بيت آل سعود يجب أن لاتكون غاية مساعيك، إن عليك أن تجاهد لتجديد دين الإسلام كما فعل الأئمة الأُوَل من آل

سعود. إن قومك لفي أمسّ الحاجة إلى قائد يرشدهم إلى طريق النبي ﷺ، وإنك أنت ستكون ذلك القائد - إن شاء الله - لقد بقيت كلماتها هذه في قلبي دائماً».

مثل هذه الذكريات الطفولية كثيراً ما كان يقصها علينا الملك إبّان الاجتماعات الخاصة التي كانت تجري في الرياض بعد صلاة العشاء عادة. فحالما تنتهي الصلاة في مسجد القصر، كنا نتحلق حول الملك في إحدى الغرف الصغيرة لنصغي ساعة إلى قراءة من أحاديث النبي ﷺ أو تفسير القرآن. وكان الملك بعد ذلك، يدعو اثنين أو ثلاثة منا لمرافقته إلى غرفة داخل جناحه الخاص. وفي إحدى الأمسيات بينما كنا نغادر المجلس خلف الملك، لفت نظري مرة أخرى طوله المهيب الذي كان يشمخ به عالياً على كل من حوله. ولا بد أنه لحظ نظرتي المعجبة، ذلك أنه ابتسم ابتسامة مقتضبة ثم أخذني بيدي وقال:

- «لماذا تنظر إليّ مثل هذه النّظرة يا محمد»؟.

- «كنت أفكر يا طويل العمر، في أن أحداً لا يمكن إلا أن يعرف الملك في شخصك عندما يرى رأسك يرتفع إلى مثل هذا العلو فوق رؤوس الجميع».

فضحك ابن سعود وقال وهو لا يزال ممسكاً بيدي: «نعم إن من المبهج أن يكون المرء في مثل هذا الطول. إلا أنه جاءني وقت لم يسبّب لي طولي إلا الأسى. كان ذلك منذ سنوات طويلة، عندما كنت صبياً أعيش في قصر الشيخ مبارك في الكويت. كنت نحيف الجسم فارع الطول، وكان الصبية الآخرون في القصر - أبناء عائلة الشيخ وأبناء عائلتي أنفسهم - يجعلونني هدفاً لعبثهم وهزلهم، لقد سبب لي هذا حزناً وغماً شديدين، وبلغ مني الخجل من طولي مبلغاً عظيماً.

ووصلنا عندئذ إلى الجناح الخاص بالملك، وكان ابنه الأكبر الأمير سعود - ولي العهد[١] - ينتظره هناك. لقد كان في مثل سني تقريباً، ومع أنه لم يكن يبلغ من

---

(١) في عام (١٩٥٣) ارتقى الأمير سعود عرش المملكة العربية السعودية عند وفاة والده. ولقد تحقق ما كان يؤمل منه في الطريقة الجريئة التي يعالج بها مشاكل مملكته وحاجاتها في التعليم والصحّة والمواصلات، واشتهر بكرمه وطيبته، وحدبه على شعبه، وتوقيره علماء أمّته، وتنفيذه شرع الله.

الطول ما بلغه والده، فقد كانت له الهيبة نفسها. وكانت حركاته تنم عن الشمم والاطمئنان الذاتي اللذين يمتاز بهما العربي الأصيل المحتد، وكان تعبير وجهه الجريء الصريح يدلّ على استقامة خلقه التي حببته كثيراً إلى الناس.

وجلس الملك على الوسائد التي كانت مطروحة على الأرض بمحاذاة الحائط وأشار إلينا بالجلوس، ثم نادى: "قهوة"، وتكرر هذا النداء التقليدي على ألسنة الخدم إلى أن وصل إلى "مطبخ القهوة" الخاص بالملك على مبعدة غرف عدة. وفي لحظات ظهر خادم متمنطق بخنجر مذهب يحمل في إحدى يديه الإبريق النحاسي وفي الثانية الفناجين الصغيرة. وتناول الملك الفنجان الأول، وأديرت الفناجين الأخرى على الضيوف بترتيب جلوسهم في مثل هذه المناسبات. كان ابن سعود يتكلم بحرية عن أيّ شيء كان قد حدث له وعما كان يجري في أقطار الدنيا النائية؛ عن اختراع جديد غريب، وعن الناس والعادات والمؤسسات. غير أنه كان يحبّ أكثر التحدث عن خبراته الخاصة، ويشجع الآخرين على الاشتراك في الحديث. وفي تلك الأمسية بالذات، بدأ الأمير سعود الكلام عندما التفت إلي وقال ضاحكاً:

- «لقد أبدى لي أحدهم بعض الشك فيك يا محمد، إذ ظنّ أنك جاسوس، وأنك تدعي الإسلام ادعاء. ولكن لا تقلق، لقد استطعت أن أؤكد له أنّك مسلم بحقّ».

وإذ لم أستطع أن أمسك عن الإجابة، فقد قلت: «لقد كان هذا تلطفاً كبيراً منك أيها الأمير، أطال الله عمرك. ولكن كيف تكون واثقاً من صحة إسلامي إلى هذا الحد؟ أليس الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب»؟.

فأجاب الأمير سعود: "هذا صحيح، ولكنني في هذه الحالة بالذات قد أُعطيت فراسة خاصة، إن حلماً رأيته في الأسبوع الماضي هو الذي أكّد هذه الفراسة. لقد رأيت نفسي واقفاً أمام أحد المساجد، أتطلع إلى مئذنته. وفجأة ظهر في المئذنة رجل وأخذ يدعو إلى الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، وأكمل الأذان حتى نهايته وقال: لا إله إلا الله، وعندما أمعنت النظر في الرجل وجدته أنت، وعندما استيقظت أيقنت - بالرغم من أنني ما شككت في ذلك قط - أنك مسلم صحيح الإسلام».

ولقد تأثرت جداً بذلك التأكيد الذي لم ألتمسه على إخلاصي من قبل ابن الملك، وبالإيماءة الجادة التي أيد بها الملك رواية الأمير سعود.

وتناول الملك الحديث فقال:

- «إن الله كثراً ما ينير قلوبنا بالأحلام التي تبشّر بالمستقبل أحياناً وتضيء الحاضر أحياناً أخرى. ألم تر أنت نفسك مثل هذه الأحلام، يا محمد»؟

فأجبت: «دون شك أيها الإمام، كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل أن أفكر في اعتناق الإسلام بوقت طويل، وقبل أن تطأ قدماي أي بلد مسلم. كنت في التاسعة عشرة من عمري وقتئذ، وكنت أسكن في بيت أبي في (فيينا). لقد كنت مهتماً بالبحث في حياة الإنسان النفسية. وكان من عادتي أن أحتفظ بالقرب من سريري بقلم وورقة كيما أدون عليها أحلامي حالما أستيقظ من النوم لأستطيع أن أذكر أحلامي طويلاً. ومرة رأيت في المنام نفسي في برلين، مسافراً في ذلك القطار الذي يسير أحياناً في نفق تحت الأرض وأحياناً أخرى فوق الجسور الممتدة عالياً فوقها. وكانت الحافلة مزدحمة بحشد كبير من الناس حتى أنه لم يكن هناك محل للجلوس، مما اضطر الجميع إلى الوقوف متلاصقين غير قادرين على الحركة، ولم يكن هناك سوى بصيص من النور ينبعث من مصباح كهربائي واحد. وبعد هنيهة خرج القطار من النفق، ولكنه لم يصعد إلى واحد من تلك الجسور العالية، بل خرج - عوضاً عن ذلك- إلى سهل طيني فسيح. وإذ تشبثت عجلاته في الطين فقد توقف القطار ولم يعد باستطاعته الحركة.

وترك جميع المسافرين العربات وأخذوا يتطلعون حولهم. وكان السهل حولنا لا نهاية له، خالياً من كل شيء، من البيوت والأشجار وحتى من الحجارة. واستولت الحيرة على قلوب الركاب وأخذوا يتساءلون كيف يمكن أن يجدوا طريقهم إلى حيث كان سائر الأحياء يعيشون، وما الذي جاء بهم إلى ذلك القفر الموحش. ولقد غشي السهل نور أشهب، كما لو كان الوقت بعيد الفجر الباكر.

ولسبب خفيّ لم أشارك الآخرين قلقهم وحيرتهم، فقد شققت طريقي بين الجموع ورأيت - على مسافة خطوات مني - بعيراً رابضاً على الأرض. لقد كان موثقاً

بالطريقة نفسها التي رأيت – في ما بعد – الأبل توثق بها. وفوق الرّحل كان يتربع رجل يرتدي عباءة مخططة باللونين الأبيض والبني، أما عمامته فقد كانت مسدلة على وجهه حتى أنني لم أستطع تمييز ملامحه. وأدركت في قلبي أن البعير إنما كان ينتظرني أنا، وأن راكبه إنما كان دليلي. وهكذا، دون كلمة، علوت ظهر البعير خلف الراكب، كما يركب الرديف في بلاد العرب. وفي اللحظة التالية، نهض البعير وسار بخطوات واسعة مرحة وشعرت بسعادة لا أستطيع لها وصفاً. في تلك المشية السريعة الناعمة سرنا ما بدا لي ساعات، ثم أياماً، ثم أشهراً، إلى أن لم أعد أستطيع أن أحصي الزمن. وفي كل خطوة من خطوات البعير كانت سعادتي تزداد وترتفع إلى أن خلت نفسي أسبح في الهواء. وفي النهاية أخذ الأفق إلى يميننا يحمر تحت أشعة الشمس التي كانت على وشك الشروق، إلا أنني رأيت بعيداً في الأفق أمامنا، نوراً آخر منبعثاً من وراء باب ضخم مفتوح، قائم على دعامتين، نوراً أبيض أخذ يزداد بريقاً كلما اقتربنا منه، وجعل السعادة التي كانت تغمرني تفيض إلى درجة لا أستطيع لها وصفاً. وإذ اقتربنا من ذلك الباب ومن نوره، سمعت صوتاً من مكان ما يعلن: «هذه هي مدينة أقصى الغرب! وأفقت من حلمي».

وهتف ابن سعود عندما انتهيت: «سبحان الله لقد بشرك هذا الحلم بأنه كان مقدراً لك أن تعتنق الإسلام».

فهززت رأسي: «وأنّى لي يا طويل العمر أن أعرف ذلك؟ إنني لم أكن قد فكرت قط بالإسلام، ولم أكن قد رأيت مسلماً قط. وبعد سبع سنوات وبعد أن كنت قد نسيت ذلك الحلم اعتنقت الإسلام وأنا لم أذكر هذا الحلم إلا حديثاً، عندما وجدته مكتوباً على إحدى أوراقي إذ أني كنت قد دونته تلك الليلة عندما استيقظت»، فقال الملك: «ولكن الرؤيا الصالحة من المبشرات كما بين الرسول ﷺ، إن مجيء ذلك الحشد من الناس – وأنت معهم – إلى ذلك القفر الخالي من أيّ طريق، وحيرتهم هذه هي حال أولئك الذين وصفهم الله في سورة الفاتحة بـ﴿**الضالين**﴾ والدليل الذي كان ينتظرك مع راكبه هو الهداية، وذلك الباب. والنور الأبيض الذي رأيته في الأفق إنما هو نور الإيمان، إنك لم تدخله إلاّ بعد سبع سنوات عندما اعتنقت الإسلام».

فقلت: «قد تكون على حق يا طويل العمر، ولكن ما قولك في المدينة التي قال الهاتف إنها "مدينة أقصى الغرب"، والتي كان ذلك الباب في الأفق سيؤدي بي إليها؟ لأن الإسلام لم يقدني نحو الغرب، بل قادني بعيداً عن الغرب».

وصمت ابن سعود لحظة مفكراً، ثم رفع رأسه وابتسم تلك الابتسامة العذبة التي أحببتها وقال: «ألا يمكن أن تعني يا محمد، أن بلوغك الإسلام سيكون أقصى نقطة في حياتك، وأن حياة الغرب بعد ذلك لن تعود حياتك»؟.

وبعد هنيهة تكلّم الملك ثانية وقال: «لا يعلم ما في الغد غير الله. وقد يشاء الله أن يبشرنا – في الرؤيا – بما سيحدث لنا في الدنيا أو في الآخرة. لقد رأيتُ مثل هذه الرؤى مرتين أو ثلاثاً، وكانت تصدق دائماً. والحق أن أحدها كان بداية الطريق إلى ما أنا عليه الآن. كنت وقتئذ في السابعة عشرة من عمري، وكنا نعيش عيشة المنفيين في الكويت، ولكنني لم أكن أحتمل التفكير في استمرار حكم ابن رشيد لموطني. وكثيراً ما كنت أستعطف والدي عليه رحمة الله، وأقول: «قاتل يا أبي، واطرد آل الرشيد، فإن أحداً ليس أحق منك بعرش الرياض». ولكن والدي كان لا يصغي إلى التماساتي الحارة بل ينعتها بالأوهام والتخيلات، وكان يذكّرني بأن محمد بن رشيد كان أقوى سلطان في بلاد العرب، وأنه كان المسيطر على المنطقة الممتدة من صحراء سوريا في الشمال إلى رمال الربع الخالي في الجنوب، وأن كل قبائل البدو كانت ترتجف هلعاً أمام قبضته الحديدية. وفي إحدى الليالي رأيت حلماً غريباً: رأيت نفسي ممتطياً صهوة جواد في سهل منعزل في الليل، ورأيت أمامي – على صهوة جواد أيضاً – محمد بن رشيد الهرم، مغتصب مملكة عائلتي. لقد كنا كلانا أعزلين من السلاح، ولكن ابن رشيد كان يحمل في يده المرفوعة سراجاً كبيراً مضيئاً. وإذ رأى اقترابي عرف أني عدوٌّ وأدار وجه جواده حاثّاً إياه على الفرار، ولكنني دفعت جوادي في أثره وأمسكت بأحد أطراف عباءته ثم بذراعه، ثم أمسكت بالمصباح فأطفأته. وعندما صحوت، أيقنت أنني سوف أستخلص الحكم من آل الرشيد».

وفي السنة التي رأى فيها ابن سعود تلك الرؤيا، أي سنة ١٨٩٧، مات محمد بن رشيد. ولقد بدا لعبد العزيز أن تلك كانت الفرصة المواتية كي يضرب ضربته، ولكن

أباه عبد الرحمن لم يكن يميل إلى أن يخاطر ابنه بحياته الآمنة في الكويت في مهمة مشكوك في نجاحها إلى حد كبير. ولكن رغبة الابن كانت أقوى من خوف أبيه على حياته فوافق آخر الأمر. وبمساعدة صديقه مبارك شيخ الكويت، جمع الأب عدداً قليلاً من رجال القبائل المخلصة لعائلته وغزا منطقة من مناطق نفوذ آل الرشيد بالطريقة العربية القديمة؛ بالإبل والجياد والسيوف والبيارق القبلية، ولكنه لم ينجح أمام قوى العدو المتفوقة وعاد إلى الكويت مصمّماً على أن لا يعكّر أواخر أيامه بمثل تلك المغامرات غير المضمونة العاقبة.

ولكن الابن لم يستسلم. لقد كان دائما يذكر الرؤيا التي رأى فيها نفسه ينتصر على ابن رشيد وعندما أقلع أبوه عن كلّ أمل بعودة مُلكه على نجد، أخذ عبد العزيز على نفسه هذه المهمّة . لقد جمع من حوله عدداً من أصدقائه، كان بينهم عبد الله ابن جلوي وعبد العزيز بن مساعد وبعضاً من البدو المغامرين، لم يتجاوزوا الأربعين عدّاً. وخرجوا راكبين من الكويت خلسة، دون بيارق أو طبول أو غناء، وساروا بالليل متفادين طريق القوافل ومختبئين في النهار إلى أن وصلوا إلى جوار الرياض حيث نزلوا في وادٍ منعزل. وفي اليوم نفسه انتقى عبد العزيز خمسة من رفاقه الأربعين، وخاطب الباقين بقوله:

- «ها نحن أولاء الستة قد وضعنا مصائرنا بين يدي الله. إننا ذاهبون إلى الرياض، لنفتحها أو نفقدها إلى الأبد. فإذا سمعتم أصوات القتال من البلدة فتعالوا إلى نجدتنا. أما إذا لم تسمعوا شيئاً حتى غروب شمس الغد فستعلمون أننا قد متنا جميعاً وليرحمنا الله، وعودوا أنتم سرّاً وبأسرع ما تستطيعون إلى الكويت».

وخرج الرجال الستة مشياً على الأقدام، وعند الغروب وصلوا إلى البلدة ودخلوها من إحدى الثغرات التي كان محمد بن رشيد قد أحدثها في سور المدينة المقهورة لإذلال سكانها. وتوجهوا بأسلحتهم المخبأة تحت عباءاتهم إلى بيت الحاكم الرّشيدي ابن عجلان. كان البيت مقفلاً، ذلك أن الحاكم خوفاً من اعتداء السكان، كان من عادته أن يمضي لياليه في القلعة المقابلة للبيت. وطرق عبد العزيز ورفاقه الباب، ففتحه عبد حارس انقضوا عليه فشدوا وثاقه وكموا فمه منعاً له من الصراخ. وحل الشيء

نفسه بسائر سكان البيت، وكانوا في تلك الساعة عدداً قليلاً من الخدم والنساء. ودعا المغامرون الستة أنفسهم إلى تناول التمر من خزانة الأمير، وأمضوا الليلة يتناوبون قراءة القرآن والصلاة.

وفي الصباح فُتحت أبواب القلعة وخرج الحاكم محاطاً بحراسه المسلحين. وتضرع عبد العزيز: «يا رب، إن عبد العزيز بن سعود بين يديك». ثم كرّ ورفاقه القلائل بسيوفهم المجردة على العدو الذي أخذته المفاجأة. ورمى عبد الله بن جلوي الحاكم برمحه، ولكنه تفاداه فنفذ الرمح في باب القلعة المصنوع من الخشب ولا يزال هناك حتى هذا اليوم. وتراجع الحاكم مذعوراً إلى بوابة القلعة، في حين لحق به عبد الله بن جلوي إلى داخلها. أما عبد العزيز ورفاقه الأربعة فقد هاجموا الحراس الذين كانوا مضطربين بحيث لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم. وبعد لحظة ظهر الحاكم فوق سطح القلعة، وعندما وقع على سور السطح وتلقى الضربة المميتة من سيف ابن جلوي، صرخ عبد العزيز: «تعالوا يا أهل الرياض! أنا عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، حاكمكم الشرعي». وهرع أهل الرياض، - الذين - كانوا يكرهون مضطهديهم الشماليين - بسلاحهم إلى نصرة أميرهم، ودخل بقية رجال الحملة المدينة من أبوابها على إبلهم الرامحة، مكتسحين كالعاصفة كل مقاومة اعترضت طريقهم. وفي خلال ساعة واحدة، أصبح عبد العزيز حاكم الرياض دون منازع.

كان ذلك عام ١٩٠١، وكان عبد العزيز في الحادية والعشرين من عمره. كانت أيام صباه تشرف على نهايتها، وكان يقترب من المرحلة الثانية في حياته، مرحلة الرجل الناضج.

وخطوة خطوة، ومقاطعة إثر مقاطعة، استخلص ابن سعود نجداً من آل الرشيد، مرجعاً إياهم عنوة إلى بلاد شمر، وعاصمتها حايل.

واستمرت فتوحاته، وكان محورها الدائم الرياض. ولم يكن ابن سعود يقدم على أية خطوة جديدة قبل أن يثبت قدمه في المنطقة السابقة ويوطد مركزه فيها. ولقد بسط سيطرته بادىء الأمر على المناطق الشرقية والجنوبية من الرياض ثم على المناطق الغربية، أما تقدمه نحو الشمال فكان بطيئاً، ذلك أن آل الرشد كانوا لا يزالون يملكون

هناك قوى لا يستهان بها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأتراك – حلفاؤهم – يساعدونهم ويشدون أزرهم. وكذلك فقد كان الفقر أحد العوامل التي وقفت في طريقه، فالمناطق النجدية الجنوبية لم تستطع أن تقدم لابن سعود موارد تكفي لتموين جماعات كبيرة من المقاتلين.

– «في أحد الأوقات»، كذلك قال لي ابن سعود مرة، «بلغ مني الفقر مبلغاً عظيماً حتى أنني اضطررت إلى أن أرهن سيفي الذي أهدانيه الشيخ مبارك».

ولقد كانت هناك عقبة أخرى كبيرة جعلت مهمة ابن سعود في أوائل عهده عسيراً جداً: موقف القبائل البدوية. إن أواسط جزيرة العرب أرضٌ أهلها من البدو. وكانت مؤازرتهم أو خصومتهم هي التي تقرر الأحداث في الحروب بين ابن سعود وابن رشيد في كل مرحلة. لقد كانوا مترددين متقلبين في الرأي، وكانوا ينضمّون إلى من يتضح لهم في اللحظة ذاتها أن كلمته هي الراجحة أو يتوقعون من الانضمام إليه قدراً أكبر من الغنائم. ومن أبطال هذه المخاتلة كان فيصل الدويش، زعيم قبيلة مطير القوية، وكان ولاؤه يستطيع أن يرجح كفة أي من البيتين المتنافسين. كان يأتي إلى حايل فيحمّله ابن رشيد العطايا والهبات، فلا يلبث أن يخذله ويأتي إلى الرياض فيقسم يمين الإخلاص لابن سعود، ثم يخونه بعد شهر واحد فحسب. لقد كان شجاعاً مكّاراً، مبتلى بنهم شديد إلى القوة والسلطان، وكم من ليلة لم ينم فيها ابن سعود بسبب فيصل الدويش.

وإذ أحدقت هذه المصاعب بابن سعود، فقد فكر في خطّة استطاعت أن تحل مشكلة الولاء المتقلّب في جزيرة العرب: خطة توطين القبائل الرحل. فقد كان واضحاً أن البدو متى استقروا فلا بد أن يقلعوا عن لعبتهم المزدوجة بين الفريقين، ذلك أنه كان من السهل عليهم – في حياتهم البدوية غير المستقرة – أن يطووا بيوت الشّعر في ساعة واحدة وأن يسيروا بأنعامهم من جهة إلى أخرى وأن يتحولوا من جانب إلى جانب، ولكن حياة الاستقرار تجعل ذلك صعباً عليهم، إذ أن انتقالهم إلى محالفة العدو يجلب معه خطر فقدان بيوتهم ومزارعهم، وليس أعزّ على قلب البدوي مما تملك يداه.

وقد جعل ابن سعود توطين البدو أهم نقطة في خطة عمله. وقد ساعدته في ذلك أحكام شريعة الإسلام التي تؤكد فضل الحضارة على البداوة ووجوب طلب العلم؛ فأرسل الملك المعلّمين يفقّهون البدو في الدِّين، وجعل ذلك جزءاً مهمّاً من خطة توطينهم، وبرزت إلى حيز الوجود كلمة: "الإخوان"، كما أخذ البدو المتحضرون يسمون أنفسهم – وأول هجرة توطينيّة للإخوان كانت هجرة مطير – قبيلة الدويش – واسمها (الأرطاوية)، وقد نمت في بضع سنين إلى بلدة عدد سكانها ثلاثون ألف نسمة، ولم تلبث أن حذت حذوها قبائل عديدة أخرى.

وأصبحت حماسة الإخوان الدينية وقوتهم الحربية أداة فعالة في يدي ابن سعود. ومن ذلك الحين اتخذت حروبه مظهراً جديداً، ذلك أنها بعد أن حمل لواءها الإخوان بحميّتهم الدينية، تخلّت عن صفتها السابقة؛ مجرد نزاع عائلي على السلطة، وأصبحت جهاداً دينياً. واستجاب الإخوان استجابة لا تعرف اللين والمهادنة لدعوة المصلح العظيم محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر التي كانت تهدف إلى أن تعيد إلى الإسلام الطهارة والأصالة التي تميز بها في أيام السّلف الصالح وترفض كل البدع التي أُدخلت عليه في عهود الفاطميين والعثمانيين ومَنْ بينهم. وفي سنة ١٩١٣، شعر ابن سعود أخيراً بأنه صار يملك القدرة الكافية على غزو منطقة الإحساء على الخليج العربي الفارسي، والتي كانت في ما مضى تابعة لنجد، واحتلّها الأتراك منذ خمسين سنة.

لم تكن محاربة الأتراك خبرة جديدة بالنسبة إلى ابن سعود، ذلك أنه كان قد لاقى – مرة بعد مرّة – فصائل تركية، وبخاصة مدفعية الميدان، ضمن جيوش ابن رشيد، ولكن الهجوم على الأحساء، التي كان يحكمها الأتراك مباشرة يجعله يصطدم بدولة عظمى وجهاً لوجه. ولكن ابن سعود لم يكن باستطاعته أن يختار، فما لم يُخضع الأحساء وميناءها لسيطرته فإنه يبقى معزولاً عن العالم الخارجي دائماً، وغير قادر على أن يحصل على ما كان في أمسّ الحاجة إليه من الأسلحة والذخائر وكثير من ضروريات الحياة. كانت الغاية تسوغ المغامرة، ولكن الخطر كان كبيراً جداً، حتى أن ابن سعود تردد طويلاً قبل أن يقوم بالهجوم على الأحساء وعاصمتها (الهفوف). وكان مولعاً بأن يروي قصّة اللحظة التي اتخذ فيها قراره النهائي.

- «لقد كنا قريبين من الهفوف، ومن الرابية التي كنت جالساً عليها استطعت أن أرى بوضوح أسوار القلعة الحصينة المشرفة على البلدة. كان فؤادي مثقلاً بالحيرة. وكنت أوازن بين فوائد هذا العمل وأخطاره. ولكني وجدت ألاّ بدّ من الحرب، فقررت مهاجمة الهفوف، ووثقت أن الله ناصري».

وكانت ثقته في محلها، فقد حمل مقاتلوه حملة جريئة وهجموا على القلعة كالصواعق، فاستسلم الأتراك، وأُذن لهم بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الشاطىء حيث أبحروا إلى البصرة. إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن مستعدة للتخلي عن الهفوف بسهولة، فقررت إرسال حملة تأديبية ضد ابن سعود، ولكن نيران الحرب العظمى اندلعت قبل إنفاذها، وأَجبرت الأتراك على إرسال قواهم الحربية كلها إلى أماكن أخرى. وبنهاية الحرب زالت الدولة العثمانية من الوجود غير مأسوف عليها لما أحدثته من فساد دنيوي بالظلم وفساد ديني بنشر البدع والخرافات. وإذ فقد ابن رشيد مؤازرة الأتراك، فإنه لم يعد يستطيع أن يبدي أية مقاومة فعالة ضد ابن سعود. واستطاعت قوات الملك، بقيادة فيصل الدويش الذي كان في ذلك الحين من كبار قواد ابن سعود، أن تستولي على حايل في عام ١٩٢١، وسقط آخر معقل لابن رشيد.

وبلغ توسع ابن سعود الذورة عام ١٩٢٤-١٩٢٥ عندما منحه الله حكم مكة والمدينة حيث ظهر ظهوراً كاملاً مستقلاً أمام أنظار العالم الخارجي - وكان عندئذ في الخامسة والأربعين من العمر - في وقت كان فيه باقي المنطقة يستسلم لتوغل النفوذ الغربي.

وكان ابن سعود رجلاً عادلاً ومنصفاً في أموره الخاصة، مخلصاً لأصدقائه ومؤازريه وكريماً نحو أعدائه، ذا مواهب عقلية تميّزه على سائر قادة العالم العربي، وأنشأ حالة من الأمن العام في مملكته المتباعدة الأطراف لم تعرف في بلاد العرب منذ ألف سنة، وأهمّ من ذلك أزال مظاهر الشرك والبدع التي انتشرت في بلاد المسلمين منذ العهد الفاطمي، وأقام شرع الله مرة أخرى في جزيرة العرب ورفع أعلام التوحيد والسّنّة.

وبالرغم من أنني قد عرفته منذ سنين عديدة، فإن جزءاً من طبيعة ابن سعود قد بقي مغلقاً عليّ. وليس مردّ ذلك إلى أنه كتوم، فالواقع أنه يتكلم عن نفسه بحرية،

ولكنّ لخلقه وسجيته وجوهاً عديدة جداً تجعل من العسير فهمها بسهولة، كما أن مظهره الخارجي البسيط يخفي قلباً مضطرماً كالبحر سواء بسواء.

إن سلطته الشخصية لهائلة، ولكنها لا ترتكز على وسائل القهر بقدر ما ترتكز على قوة شخصيته. وهو معتدل في كلامه وسلوكه، كما أن روحه الديموقرطية تمكّنه من أن يتكلم مع البدو الذين يأتون إليه بثيابهم الرثة القذرة كأنما هو واحد منهم، وأن يسمح لهم بأن ينادوه باسمه الأول: عبد العزيز. ومن ناحية أخرى فإنه يستطيع أن يشمخ على أصحاب المناصب الكبيرة ويحتقرهم كلما آنس منهم الغرور.

لقد كان ابن سعود رجلاً طيباً حازماً وكان بكل تأكيد أبرز حكّام التاريخ العربي الحديث.

منتصف الطريق

-١-

لقد تركنا حايل في طريقنا إلى المدينة النبويّة، ولكننا الآن ثلاثة، ذلك أن واحداً من رجال ابن مساعد يدعى منصور، كان قد رافقنا بعض الوقت في مهمة كلفه الأمير بقضائها.

وكان منصور على قدر كبير من الملاحة وكان فارع الطول، ذا وجه صارم يوحي بالرجولة الكاملة. وكات بشرته بيضاء ضاربة إلى السمرة، وهي علامة على طيب المحتد بين العرب، وعيناه سوداوان تعاينان العالم برغبة وشوق. ولم يكن فيه شيء من رقة زيد أو وداعته. ولكنّه مثله قد رأى الشيء الكثير من الدنيا، ولذا كان رفيقاً تلذّ صحبته في السفر.

وفي التراب الأشهب المفروش بالحصى الذي حل الآن محل رمال النفود، استطعنا أن نلحظ الحياة الحيوانية الصحراوية فيه؛ سحالي شهباء صغيرة تركض بين أقدام راحلتينا بسرعة هائلة وتحتمي تحت شجيرة شائكة لترقب مرورنا بأعين مضطرمة، وجرابيع شهباء صغيرة ذات أذناب كثة تشبه السّناجب الصغيرة يستطيب بدو نجد لحمها، وهو في الحقيقة من ألذ ما ذقت في حياتي. وهناك أيضاً الضب الذي يبلغ طوله قدماً واحداً، وهو ينمو على جذور النبات طعمه برزخ بين الدجاج والسمك، وأحياناً يقفز أرنب أشهب في خطوات واسعة من تحت الشجيرات الشهباء، وقد نصادف غزلاناً على بعد لا يسمح بصيدها، فتختفي بين التلال الزرقاء.

وسألني منصور: «قل لي يا محمد، كيف حدث أن أتيت لتعيش بين العرب، وكيف اعتنقت الاسلام»؟.

وهكذا أخذت أخبر منصوراً عن أول رحلة قمت بها إلى الشرق الأدنى عام ١٩٢٢؛ وأنها كونت فكرتي الأولى عن العرب في صحراء سيناء، وعمّا رأيت وشعرت

في فلسطين ومصر وشرق الأردن وسوريا، وأني تبيَّنت في دمشق بأن طريقاً جديداً إلى الحق أخذ ينفتح أمامي، وأني عدت إلى أوروبا بعد زيارتي تركيا ووجدت أن من الصعب عليَّ أن أعيش مرة أخرى في العالم الغربي.

في ربيع سنة ١٩٢٤، أرسلتني صحيفة (فرانكفورتر تزايتونك) في رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط، بعد أن أنجزت أخيراً الكتاب الذي وصفت فيه أسفاري السابقة.

ومرة أخرى قطعت البحر الأبيض المتوسط، ورأيت أمامي شاطئ مصر. وكانت رحلتي بالقطار من بورسعيد إلى القاهرة بمثابة تقليب صفحات كتاب مألوف. وبين قناة السويس وبحيرة المنزلة كان البط البري يسبح في الماء ونبات الطرفاء تهتز أغصانه ذات الشكل المروحي الجميل. وظهرت القرى في السهل الذي كان يكتسي بالخُضْرة أحياناً، وكانت الجواميس السوداء وإلى جانبها الإبل أحياناً، تجر المحاريث بقوائمها المتكاسلة في تربة الربيع.

كنت هذه المرة مسافراً في الدرجة الأولى. ولم يكن في العربة سوى مسافرين غيري: تاجر يوناني من الاسكندرية سريعاً ما جعلني -بالسهولة التي يتميز بها الشرقيون جميعاً- أخوض معه في حديث لطيف، وكان يرسل النكات الطريفة عن كل ما تقع عليه أعيننا، وعمدة مصري كان يبدو -من القفطان الحريري الثمين الذي يرتديه وسلسلة الساعة الذهبية الغليظة البارزة من حزامه- رجلاً بلغ الغنى، وحالما اشترك معنا في الحديث اعترف بأنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك فقد كان يُظْهِر ذوقاً سليماً حادّاً.

كنّا نتحدث عن مبادئ العدل في الاسلام، تلك المبادئ التي كانت في ذلك الوقت تشغل حيّزاً كبيراً من تفكيري. ولم يوافق رفيقي اليوناني موافقة كلية على إعجابي بالعدالة في الشريعة الإسلامية.

قال: «إن الشريعة الإسلامية ليست عادلة بالمقدار الذي تعتقد، يا صديقي العزيز»، ثم تحول من الفرنسية التي أخذنا نتحدث بها، إلى العربية كي يفهم رفيقنا المصري الحديث، واستدار إليه قائلاً: «إنكم تقولون إن دينكم عادل جدّاً، فهل تستطيع مثلاً أن

تقول لنا لماذا يبيح الاسلام للمسلمين أن يتزوجوا من المسيحيات أو اليهوديات، ولا يبيح لبناتكم وأخواتكم أن يتزوجن من المسيحيين أو اليهود؟ هل تسمى هذا عدلاً»؟.

– «طبعاً أسميه»، أجاب العمدة الوقور دون أن يتردد لحظة واحدة. «وسأخبرك بما يدرك عقلي من سبب مع أن شريعة الله عدل مطلق سواء أدركت عقولنا سبباً أو لم تدركه: نحن المسلمين لا نعتقد بأن المسيح عيسى عليه السلام ابن الله، ولكننا نعتقد أنّه –مثل موسى وابراهيم وسائر الأنبياء– رسول صدق من عند الله، وأنهم جميعاً أرسلوا إلى الناس بالطريقة نفسها التي أرسل بها خاتم النبيين محمد ﷺ. وهكذا، فإذا تزوجت مسيحية أو يهودية من رجل مسلم فإن بإمكانها أن تطمئن إلى أن أحداً من أنبيائها لن يُذكر بين أفراد عائلتها الجديدة إلاّ بكل تبجيل واحترام. في حين أنه إذا تزوجت مسلمة من غير مسلم فإنها ستسمع اسم نبيّها يذم ويساء إليه ويجحد – ولربما من قبل أولادها أنفسهم – أفلا يتبع الأولاد عادة دين أبيهم؟ وهل تعتقد أنت أن من العدل تعريضها لمثل ذلك».

ولم يجد اليوناني ما يجيب به عن هذا إلاّ هزة من كتفيه، أمّا أنا فقد بدا لي أن العمدة البسيط الأمّي قد أصاب الحقّ في قضية يحار فيها كثير ممن هم أكثر منه علماً. ومرة أخرى شعرت أن باباً جديداً إلى الإسلام كان يفتح لي.

وبمقتضى ظروفي المادية التي تبدلت، أصبحت الآن قادراً على أن أعيش في القاهرة بطريقة لم أكن أحلم بها قبل ذلك ببضعة أشهر. لم أعد بحاجة إلى أن أعدّ الملاليم، ومضت الأيام التي كان علي فيها أن أعيش على الخبز والزيتون واللبن إلاّ أنني، من ناحية واحدة، حافظت على «تقاليدي» الماضية؛ فبدلاً من أن أقطن أحد أحياء القاهرة الحديثة، استأجرت غرفة في بيت صديقتي العجوز، تلك المرأة البدينة من تريستا، التي استقبلتني بذراعين مفتوحتين وقبلة أمومية على الخدين.

وفي اليوم الثالث لوصولي سمعت عند الغروب صوت مدفع من القلعة. وفي القاهرة القديمة قامت حركة غريبة وأصبحت خطوات الناس أعجل، وفي الوقت نفسه أكثر ابتهاجاً، كما أصبحت الجلبة المتعددة النغمات في الشوارع أكثر علوّاً ووضوحاً، وأحسست توتراً جديداً يسري ويرتعش في جميع الجهات.

كل هذا حدث لأن الهلال الجديد أعلن قدوم شهر رمضان؛ فقبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً أنزل الله فيه أول ما أنزل من القرآن، إن كل مسلم مفروض عليه أن يصوم أيام هذا الشهر. فالرجال والنساء باستثناء المعذورين شرعاً يحرم عليهم أن يتنالوا طعاماً أو شراباً، منذ اللحظة التي ينبثق فيها الفجر حتى اللحظة التي تغرب فيها الشمس، من بداية الشهر إلى نهايته.

إن على المخلوق أن يطيع الخالق دون تكلّف البحث عن الحكمة في أمره ونهيه، وهذا هو الفرق بين عبادة الله، وعبادة الهوى الذي يمكن أن يَحْكم الفكر، ولكن ممّا يمكن أن يدركه العقل: أن المرء إذا جاع شعر بحاجة الفقير إلى الزّاد، وتذكر حقّ الفقير على الغني، ومما يمكن أن يدركه العقل: أثر الصيام في التدريب على ضبط النفس. ولهذين العنصرين: التعاون وضبط النّفس أهميتهما في شريعة الاسلام.

وعند نهاية شهر الصّوم يبرز تأكيد لحق المسلم على المسلم في شريعة الإسلام؛ إن على كلّ مسلم، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، غنيّ أو فقير أن يتصدّق بصاع من طعام على المحتاجين في قريته، ليسدّ حاجتهم يوم العيد الذي يتلو آخر أيّام رمضان.

ويختار أكثر المسلمين أن يُخرج في شهر رمضان -خاصّة- الزّكاة المفروضة سنويّاً على كلّ من يملك النّصاب المقررّ في الأحكام الشرعيّة للزكاة من النّقد أو الثمار أو الأنعام.

ويختار أكثر المسلمين شهر رمضان أيضاً لاخراج أكبر قدر من صدقاتهم غير المفروضة؛ فهي إذن ثلاثة أنواع من أنواع الاحسان بالمال: نوع مفروض على الجميع، ونوع مفروض على الغنيّ، ونوع غير مفروض ولكن الله يحثّ المسلمين على أدائه في نصوص القرآن والسنة.

قلت لأحد علماء الشريعة: «لماذا يجب أن يقتصر المرء على دين واحد معيّن وعلى مجموعة واحدة معينة من الوصايا؟ ألا يمكن أن يكون من الأفضل له أن يُترك الحكم على سلوكه لفكرة وصوت إلهامه الداخلي»؟

فأجاب: «إن ما تقوله: في الحقيقة، يا أخي الشاب، هو لماذا يجب أن يكون هناك أي دين ينظّم حياة البشر؟ والجواب بسيط: إن معظمنا مقيدون بالمصالح

والرغبات الشخصية، ولو اتبع كل واحد منّا ما يمليه فكره، إذن لسادت بيننا الفوضى الأخلاقية سيادة تامة، ولما استطعنا قط أن نتفق على أي طريقة من طرائق السلوك. إنك تستطيع أن تسأل ما إذا لم يكن من حق المثقفين والمفكرين والعباقرة أن يختاروا ما يرونه هم حقّاً أو باطلاً؟ ولكنني عندئذ أسائلك بدوري: ألا يمكن لكثير من الناس أن يدّعوا هذا الحق الاستثنائي لأنفسهم؟ وماذا تكون النتيجة»؟.

وهكذا تابعت سرد قصة اعتناقي الاسلام على منصور: «لقد ظهر لي الإسلام رويداً رويداً؛ من حديث هنا وكتاب هناك، من نظرة هنا وملاحظة هناك، بروية وبطء إلى درجة لم أشعر معها بأني أسير في طريقي إلى الإسلام».

– ٢ –

وعندما نزلنا في العراء لقضاء الليل، بدأ زيد في إعداد الطعام؛ أوقد النّار على الرّمل حتى حمي، ثم أزاح بقايا النار ووضع قرصاً من عجين القمح وسط الرّمل، وبعد نضجه قدمه لنا مع الزبد والتمر. وأستطيع أن أقول إنه ليس في العالم خبز ألذ من «قرص البَرّ».

وقد شبع بطن منصور، كما شبعت بطوننا، ولكنه لم يكن قد أرضى فضوله بعد. ذلك أنه استمر أثناء جلوسنا حول النار، يمطرني بالأسئلة عن المرحلة الأخيرة من اعتناقي الاسلام. وبينما كنت أحاول أن أفسر ذلك له، عجبت لمقدار الصعوبة في التعبير بكلمات عن الطريق الذي سلكته إلى الإسلام.

وتذكّرت تلك الأيام الماضية التي أنفقتها في رحلتي الثانية إلى الشرق الأوسط، عندما بدأ الإسلام يحتل تفكيري بصورة جدّية؛ في كل يوم كانت هناك انطباعات جديدة، وفي كل يوم كانت تنشأ أسئلة جديدة فأجد عنها أجوبة جديدة. وإذ زادت معرفتي بالاسلام، شعرت مرة بعدمرة أن حقيقة كنت أعرفها دائماً دون أن أشعر بذلك، كانت تتكشف لي بصورة تدريجية.

في أوائل صيف عام ١٩٢٤، خرجت من القاهرة في تجوال طويل. وقضيت عامين اثنين تقريباً في الارتحال عبر بلدان عريقة في تاريخها ولكنها جديدة في تأثيرها على ذهني. كنت أسافر وأتوقف فترات طويلة. لقد زرت شرق الأردن ثانية، وقضيت

بضعة أيام مع الأمير عبدالله أستمتع بتلك الأرض البدوية التي كانت لا تزال على فطرتها ولم تتأثر بعد بشكل الحياة الغربية. ولما كانت صحيفة (فرانكفورتر تزايتونك) قد حصلت لي هذه المرة على تأشيرة فرنسية فقد استطعت أن أرى سوريا للمرة الثانية. واحتوتني حيوية بيروت بعض الوقت، وسريعاً ما نسيتها في وسن طرابلس الشام وسعادتها الصامتة. كانت السفن الشراعية الصغيرة ملقية مراسيها في الميناء المفتوح. وعلى كراسي واطئة دون مساند أمام مقهى على رصيف الميناء جلس الطرابلسيون يحتسون قهوتهم. ووصلت إلى حلب، فذكرتني أبنيتها وشوارعها بالقدس. ولكن حياة حلب الداخلية كانت تختلف تمام الاختلاف عن حياة القدس. كانت التيارات القومية المتنافرة تطغى على حياة القدس، فعلى أنقاض عالم من الأفكار والمذاهب تولدت كغمامة من السم كراهية غامضة استبدت بالناس والأشياء جميعاً. ولكن حلب - بالرغم من كون سكانها مزيجاً من العرب والأرمن، مع لمحة من تركيا المجاورة - كانت متناغمة هادئة. كانت بيوتها، بواجهاتها الحجرية وشرفاتها الخشبية، حية حتى في هدوئها. كما أن إقبال الصناع في أسواقها القديمة على أعمالهم إقبالاً هادئاً، وساحات الخانات الكثيرة بأروقتها المليئة بالبضائع، إلى جانب الجشع المرح الخالي من الحسد، والطمأنينة التي كانت تلف الغريب وتجعله يتمنى لو أن حياته نفسها كانت مطمئنة آمنة، كل ذلك يسيل معاً في لحن قوي أخاذ.

ومن حلب ذهبت بالسيارة إلى دير الزور وهي بلدة صغيرة في الشمال الشرقي من سوريا، ومن هناك سافرت إلى بغداد على طريق القوافل القديم المحاذي لنهر الفرات، في تلك الرحلة لقيت زيداً لأول مرة.

وبخلاف طريق دمشق - بغداد، التي كثيراً ما قطعتها السيارات منذ عدة أعوام، فقد كان الطريق على طول الفرات غير معروف جيداً في ذلك العام ١٩٢٤. وقيل إن سيارة واحدة فقط قطعتها قبلي منذ بضعة شهور. ولم يسبق قط لسائق سيارتي الأرمني أن ذهب إلى أبعد من دير الزور، ولكنه كان واثقاً من أنه يستطيع أن يجد طريقه، ومع ذلك فقد شعر بالحاجة إلى مزيد من المعلومات الثابتة، وهكذا ذهبنا معاً إلى السوق للسؤال عنها.

وكانت سوق (دير الزور) ممتدة من أول البلدة إلى آخرها، كما كانت دير الزور نفسها بلدة سورية قروية وحاضرة بدوية، على أنها كانت أقرب إلى الثانية منها إلى الأولى، إن عالمين اثنين قد التقيا هناك بصورة غريبة لا أثر فيها للتكلف، ففي أحد المتاجر كانت تباع بطاقات البريد المصورة الحديثة المطبوعة طبعاً رديئاً، في حين كان عدد من البدو يتكلمون بجواره عن الأمطار في الصحراء، وعن الخصومات الجديدة بين القبيلة السورية بشر وقبيلة شمر في العراق. وذكر أحدهم الغزوة الجريئة التي شنها الزعيم البدوي النجدي فيصل الدويش منذ وقت قصير داخل جنوبي العراق، وكثيراً ما أتوا على ذكر « رجل الجزيرة العظيم » ابن سعود.

كانت البنادق القديمة التي تحشى من الفوهة وتُطلق بفتيل مشتعل، والبنادق المطعمة بالفضة، والبنادق الحديثة، ورحال الإبل النجدية، وعجلات السيارات، والسُّرُج الألمانية، والعباءات البدوية البنية من الجوف تباع جنباً إلى جنب. غير أن البضائع الغربية لم تبد غريبة وسط البضائع القديمة، ذلك أن فوائدها قد جعلت البدو بما فطروا عليه من شعور يقظ بالحقيقة يعتادونها ويستعملونها دون أن يخلفوا عهدهم مع تراثهم.

وبينما كان سائق سيارتي الأرمني يتقصى المعلومات من جماعة البدو شعرت بشخص يجذب كُمّي جذبة عنيفة فاستدرت ورأيت أمامي عربياً وسيماً قاسي الملامح في أوائل العقد الرابع من عمره.

وقد وجه إليَّ الحديث بصوت متمهل أجش فقال: « العفو، سمعت أنك مسافر بالسيارة إلى بغداد وأنك لست على ثقة من معرفتك بالطريق. دعني أذهب معك فقد يكون بوسعي أن أساعدك ». وسألته من يكون؟ أجاب: « أنا زيد بن غانم. إنني أخدم مع عقيل في العراق ».

ولم ألاحظ إلاّ ساعتئذ كساءه الجيشي والنجمة السّباعية – وكانت شعار شرطة الصحراء في الجيش العراقي على عقاله الأسود. هذا النوع من الجيش المسمّى « عقيل »، كان موجوداً منذ عهد الأتراك، فرقة من المتطوعين معظمهم من أواسط جزيرة العرب، أخرجتهم الحاجة إلى المال والمغامرة من بلادهم القاسية الصارمة إلى عالم فيه مال وحركة وتغيير.

وأعلمني زيد أنه كان قدحضر إلى (دير الزور) مع أحد الضباط في مهمة تتعلق بإدارة الحدود السورية – العراقية. وقد عاد الضابط إلى العراق وبقي زيد لانجاز شأن من شؤونه الخاصة، وهو يفضل الآن أن يعود معي على أن يسلك طريق دمشق التي كانت معروفة أكثر من طريق الفرات، إلاّ أنها أكثر التفافاً وطولاً. وقد اعترف لي زيد أنه لم يسبق له أن سافر على الطريق المحاذية للفرات، وأضاف قائلاً: «ولكن الصحراء هي الصحراء، والشمس والنجوم هي نفسها، وإن شاء الله سنجد طريقنا» لقد أعجبتني ثقته بنفسه، ولذلك وافقت مسروراً على انضمامه إلينا.

وفي الصباح التالي غادرنا دير الزور وراحت سيارتنا من طراز فورد تنهب صحراء الحمادّة الكبرى؛ سهل لا نهاية له من الحصباء، ناعم ومستو أحياناً كالاسفلت، وأحياناً أخرى يمتد في تموجات من الأفق إلى الأفق. وكان الفرات يظهر لنا أحياناً إلى يسارنا، موحلاً هادئاً ذا ضفاف منخفضة كأنه بحيرة صامتة، إلى أن تقع العين فجأة على زورق أو قطعة مسرعة من الخشب، وعندئذ تتضح قوة التيار. كان نهراً عريضاً ملكياً لا صوت له يجري وينحدر دونما عوائق، مختاراً طريقه في انعطافات لا تحصى، هابطاً منحدر الصحراء الطفيف الذي لا يكاد يدرك، ندّاً للصحراء، ذلك أن الصحراء كانت بعيدة الانتشار، قوية هادئة كالفرات سواء بسواء.

وكنّا أحياناً نصادف ركاب جمال يظهرون لنا فجأة من وسط الصحراء، وكانوا يتوقفون لحظة ويحدقون إلى السيارة، ثم يسيرون بجمالهم ويختفون، وكان واضحاً أنهم من رعاة الإبل لوّحتْ الشمس وجوههم وخلعت عليها لوناً بنيّاً عميقاً، وكان نهر الفرات قد اختفى وراء الأفق ورأينا الرمال قد ذرتها الرياح بقوة، وهنا وهناك باقات من العشب، وإلى يميننا تبدت لنا فجأة سلسلة من التلال المنخفضة، عارية متشققة تحت الشمس المحرقة، فحجبت امتداد الصحراء وراءها. ولم يعكر هدوء الأصيل المتموج أي صوت إلاّ هدير المحرك، وحفيف العجلات فوق الحصباء.

وبعد الظهر اكتشف سائقنا أنه كان قد نسي أن يتزود بالماء لتبريد محرك السيارة في آخر نزل لمبيت القوافل توقفنا عنده. وكان النهر بعيداً جدّاً، وكانت الآبار تبعد عنّا أميالاً عديدة. وقال السائق: «ومع ذلك فسنصل إلى مبيت القوافل التالي».

ولكنّ الظاهر أننا لن نصل إليه «مع ذلك». كانت الشمس تتقد، وغلى الماء في جهاز التبريد شأنه في إبريق الشاي. ولقينا رعاة الإبل كرة أخرى. هل هناك ماء؟ كلا، إلاّ على مسير خمس عشرة ساعة على ظهور الجمال!

وسأل الأرمني في يأس: «وماذا تشربون أنتم؟».

فضحكوا وقالوا: «إننا نشرب حليب النياق». وبدا المستقبل سيئاً؛ هل نبقى هنا في الصحراء والمحرك لا يدور، دونما ماء أو طعام، ننتظر مجيء سيارة أخرى، لربما غداً أو بعد غد، ولربما بعد شهر؟

وبمرور الوقت بدأ السائق يفقد ابتسامته، فأوقف السيارة ورفع غطاء جهاز التبريد فانفجر البخار الأبيض الكثيف في الهواء. وقد كان في زمزميتي بعض الماء، فضحيت به لآلة المحرك، وأضاف السائق إليه بعض الزيت، وهكذا استطاعت سيارتنا الشجاعة أن تسير بنا فترة من الوقت.

وقال السائق المتفائل: «قد نجد ماء هناك إلى يميننا، إن تلك التلال لتبدو شديدة الاخضرار، كأنَّ هناك بعض العشب، وحيثما ينبت العشب في هذا الوقت من السنة عندما لا تهطل الأمطار يجب أن يوجد الماء. فلم لا نقود السيارة باتجاه التلال، ونأخذ حاجتنا منه»؟

وهكذا تركنا الطريق وسرنا بضعة أميال نحو التلال، ولكن لم يكن هناك ماء! فالمنحدرات لم تكن مغطاة بالعشب بل بالحجارة الخضراء. لقد بعدنا كثيراً عن طريق القوافل، وقد نبقى هنا في هذه العزلة عاجزين عن صنع أي شيء. وكأنما أصابت الأرمني نوبة من الهستيريا، فكان يبحث عن الماء قائداً سيارته تارة نحو اليمين وتارة نحو اليسار، يدور ويلف كالممثل في ساحة السيرك، ولكن الماء لا أثر له.

واستيقظ زيد من سباته العميق الذي كان متردّياً فيه كل ذلك الوقت، وبدأ يجيل بصره، في أرجاء السهل الصحراوي، متطلعاً بتركيز حَذِر كثيراً ما يتميز به الذين يعيشون في الصحراء إذ اعتادوا الاعتماد على حواسهم. وانتظرنا بشوق وفضول دونما أمل، ذلك أنه لم يسبق له أن جاء هذه الأصقاع قط. ولكنّه أشار نحو الشمال وقال: «هناك».

وكانت الكلمة بمثابة الأمر. وإذ سُرَّ السائق بوجود من يخلصه من المسؤولية فقد أطاع حالاً. وهكذا سارت بنا السيارة لاهثةً نحو الشمال، ولكن زيداً رفع نفسه بعض الشيء ثم وضع يده على ذراع السائق، وأمره بالوقوف. واستمر زيد جالساً فترة من الوقت حانياً رأسه إلى الأمام مثل كلب من كلاب الصيد.

وما لبث زيد أن هتف: «لا، اتجه إلى هناك»، مشيراً نحو الشمال الشرقي، «أسرع»، ومرة ثانية أطاع السائق دون أن ينبس ببنت شفة. وبعد دقيقتين: «قف»، وقفز زيد بخفة من السيارة، وجمع عباءته بكلتا يديه وركض إلى الأمام في خط مستقيم، ثم توقف واستدار بضع مرات كأنما يفتش أو يصغي بانتباه، وللحظات طويلة نسيت المحرك والمأزق الذي كنا فيه وبقيت مسحوراً بالنظر إلى رجل يجهد أعصابه كلها لمواجهة الصحراء، وفجأة شرع يبتعد بقفزات طويلة واختفى في تجويف بين رابيتين. وبعد لحظة ظهر ثانية ولوح لنا بيديه: «الماء».

وركضنا إليه، وهناك وجدنا الماء؛ ففي تجويف تحميه من الشمس صخور متدلية لمعت بركة صغيرة من الماء من بقايا أمطار الشتاء الماضي. كان لونه بنّياً أصفراً إذ كان موحلاً ولكنه مع ذلك ماء. إن غريزة صحراوية لا يدركها من لم يؤتها أظهرت وجود الماء لهذا الرجل النجدي.

وبينما انصرفت والسائق إلى جرف الماء وتعبئته في صفائح البنزين الفارغة وحمله إلى المحرك، كان زيد يخطر مبتسماً هو البطل الصامت جيئة وذهوباً بجانب السيارة.

وعند ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى أول قرية عراقية (عانة) على الفرات، وسرنا ساعات بين حدائق النخيل والجدران الطينية. كان هناك كثير من أفراد فرقة عقيل التابعة للجيش العراقي، ومعظمهم كما قال لنا زيد من قبيلته شمّر. كانوا يخطون خطوات واسعة في ظلال النخيل بين جياد ناعمة الملمس كان ينعكس عليها نور الشمس الصافي؛ ملوك عامرة قلوبهم بالفضل والتلطف. وقد أشار زيد برأسه لبعضهم، فاهتزت ضفائره الطويلة السوداء على جانبي وجهه. وبالرغم من حياته القاسية في الصحراء وحرارتها المحرقة، ربط زيد عمامته حول فمه طيلة مسيرنا كيما

يتفادى ابتلاع الغبار، الغبار الذي لم يزعجنا نحن أبناء المدن المرفهين. وعندما سرنا فوق الحصباء كرة أخرى ولم يبق هناك غبار، رمى بعمامته إلى الوراء بحركة رشيقة وشرع يغني قصيدة نجدية رتيبة اللحن، تسيل كنسيم الصحراء.

ولما وصلنا إلى القرية التالية، طلب زيد إلى السائق أن يتوقف، ثم قفز من السيارة، وشكرني على سماحي له بمرافقتي وعلق بندقيته على ظهره واختفى بين النخيل. وفي السيارة بقيت رائحة دونما اسم، رائحة انسانية كاملة في ذاتها؛ ذكرى متموجة لبراءة النفس التي نسيتها منذ وقت طويل.

وعند ظهر اليوم الخامس من رحلتي بالسيارة من حلب وقعت عيني لأول مرة على مدينة بغداد من بين تيجان ألوف النخيل. ومشيناً بين الجذوع الهائلة والسعف الملتوية، إلى أن انقطعت فجأة بساتين النخيل عند ضفة دجلة. كان نهر دجلة موحلاً ثقيلاً ذا خرير، بالمقارنة مع جريان نهر الفرات الصامت الملكي. وبعد أن قطعناه فوق جسر متحرك، أطبقت علينا حرارة الخليج العربي الفارسي.

لم يبق في بغداد شيء من روعتها العمرانية وعظمتها العلمية الماضيتين، ذلك أن غزوات المغول في العصور الوسطى قد دمرت المدينة تدميراً كاملاً بحيث لم يبق من بغداد سوى مدينة موحشة كئيبة من مساكن بنيت من اللّبِن.

وكانت آثار الحر الشديد ظاهرة على كل شيء، وكان الناس يسيرون ببطء في الشوارع، لقد بدوا فاقدي المرح. وكانت وجوههم تعلوها الكآبة من تحت عمائمهم المنقطة بالأبيض والأسود. وإذا ما وقع نظرك على وجه عربي وسيم يوحي بالأنفة والعزة، فقد كنت ترى فوق رأس صاحبه عمامة منقطة بالأبيض والأحمر، مما كان يعني أن الرجل من الصحراء السورية أو من أواسط جزيرة العرب.

بعد بضعة أسابيع من وصولي إلى بغداد كنت أتمشى في السوق ثم سمعت صرخة من إحدى الممرات المعتمة. ومن خلف زاوية ما ركض رجل، ثم تبعه ثان فثالث، وأخذ الناس في السوق يتراكضون كأنما استولى عليهم رعب عرفوا هم –لا أنا– سببه.

ما حدث؟ لا جواب، بل وجوه شاحبة في كل مكان. وكان هناك صمت عميق، كذلك الصمت الذي يرين أحياناً عند بدء الهزّة الأرضية، لم يكن يُسمع سوى أصوات الأقدام الراكضة.

وإذ حُصرت وسط الحشد عند أحد المفارق، فإنني لم أعد أستطيع أن أتحرك إلى الأمام أو إلى الوراء ولم أعرف إلى أين ذهب. وفي تلك اللحظة شعرت بشخص يمسك بذراعي، والتفت فإذا هو زيد يسحبني إلى خلف حاجز من البراميل بين متجرين.

وهمس في أذني قائلاً: «لا تتحرك»، وأزّ بالقرب منا رصاصة بندقية؟ ومن بعيد أيضاً سمعنا صوتاً خافتاً ثم تقدم الصوت ببطء وأخذ يعلو ويتضح، وعندئذ عرفت مصدره: المدافع الرشاشة.

مرة أخرى هبت بغداد ثائرة ذلك أنه في اليوم السابق -التاسع والعشرين من شهر أيار سنة ١٩٢٤- صدّق البرلمان العراقي على معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى، وها هي ذي الآن أمة يائسة تحاول أن ترفض صداقة دولة أوروبية عظمى.

وقد عرفت في ما بعد، أن جميع مداخل الأسواق قد أقفلت من قبل الجنود البريطانيين لقمع التظاهرة، وأن كثيراً من الناس قد قتلوا ذلك اليوم من جراء إطلاق النار في السوق دونما تمييز. ولولا أن الله أنقذني بنباهة زيد، إذن لكان من المحتمل أن أركض رأساً باتجاه نيران المدافع الرشاشة.

هكذا كانت البداية الحقيقية لصداقتنا. لقد أعجبتني في زيد شهامته إلى حد بعيد، وهو من جانبه قد أحب ذلك الأوروبي الشاب الذي لم يكن يحمل في نفسه أيما تعصب ضد العرب وضد طرائقهم في الحياة. لقد أخبرني بقصة حياته البسيطة: أنه وأبوه من قبله قد ترعرع في خدمة حكام حايل، سلالة ابن رشيد الشمرية، وأن كثيراً من أفراد قبيلة شمر -ومنهم زيد، عندما زال حكم ابن رشيد عن حايل عام ١٩٢١- تركوا وطنهم، مفضلين المستقبل القلق على الخضوع للحاكم الجديد. وها هو زيد الآن يضع النجمة العراقية السّباعيّة على عقاله، ويستبد به الحنين إلى أرض صباه.

وفي الأسابيع التي قضيتها في العراق كنا نلتقي كثيراً، كما أننا بقينا على اتصال طيلة السنوات التي تلت. لقد كتبت إليه مراراً، وكنت مرة أو مرتين في السنة أبعث إليه بهدية صغيرة أشتريها من أسواق إيران أو أفغانستان. وفي كل مرة كان يجيب بخطه الرديء الذي لا يكاد يقرأ، مستعيداً الأيام التي أنفقناها معاً. وأخيراً عندما أتيت إلى جزيرة العرب في سنة ١٩٢٧، طلبت منه أن يلازمني ففعل في السنة التي تلتها، ولا يزال منذ ذلك الحين رفيقي وصديقي أكثر مما هو خادمي.

وبينما كنت أستعيد ذكريات الحوادث التي مرت بي منذ سنوات ثمان، أخذ الظلام في الهبوط تدريجياً، وجاءني صوت زيد:

- «لقد آن أوان صلاة المغرب ووقفنا في صف واحد لأداء أول صلاة من صلوات الليل، مولين وجوهنا شطر مكة؛ زيد ومنصور أحدهما بجانب الآخر، بينما وقفتُ أنا أمامهما، أؤم صلاة الجماعة. ورفعت يديّ وبدأت الصلاة قائلاً: «الله أكبر».

لا شيء يقرب بين الناس كما تقرب بينهم صلاة الجماعة. ومع أن هذا قد يقال في كل دين، فإنه يصح بصفة خاصة في الإسلام الذي يرتكز على الاعتقاد بأنه ليس من واسطة بين الإنسان والخالق. وإن عدم وجود دخلاء الوساطة المبتدعة يجعل كل مسلم يشعر بأنه يشارك مشاركة صادقة في فعل العبادة عندما يصلي مع الجماعة. ولأنه لايوجد أسرار في دين الإسلام، فإن كل مسلم بالغ عاقل يمكن أن يؤدي أي عمل ديني مهما كان، سواء كان إمامة جماعة في الصلاة، أو إجراء عقد زواج، أو دفن ميت من الأموات. لا حاجة بأحد إلى أن «يكرّس» لخدمة الله، فالمسلمون متساوون في عبوديتهم لله. وعلماء الدّين ليسوا سوى رجال يتمتعون بشهرة -يستحقونها أحياناً ولا يستحقونها أحياناً أخرى- في سعة الاطلاع والفقه في العلوم والشرائع الدينية.

واستيقظت عند الفجر، ولكن أجفاني كانت مثقلة بالنعاس. وكان الهواء ينحدر فوق وجهي من الليل الذاوي إلى النهار الآخذ بالشروق.

ونهضت لأغسل النوم عني وأتوضأ لصلاة الصبح وكان الماء أشبه بلمسة من أرض بعيدة، جبال مغطاة بالأشجار المظلمة، وجداول تتحرك وتسيل وتبقى دائماً

صافية. تعيد لي الذكرى الحلوة من كلّ الأيام الباردة، من الجبال والمياه المتدفقة، من الركوب عبر الثلوج والبياض المتلألئ؛ بياض ذلك اليوم -منذ سنوات مضت- عندما ركبت عبر الجبال الايرانية المجللة بالثلوج الخالية من الطرق، اندفع ببطء إلى الأمام، وخطوات الجواد بين غوصٍ في الثلوج وجهاد عنيف مضن لاستخلاصها منه.

وفي ظهيرة ذلك اليوم استرحنا في قرية سكانها قوم غريبون يشبهون الغجر. عشرة ثقوب أو اثنا عشر ثقباً في الأرض، مسقوفة بقباب منخفضة من الأغصان والتراب في الجنوب الشرقي من (إيران) في مقاطعة (كرمان). وكالمخلوقات في قصص الجن، زحف الناس من الفتحات المظلمة ليروا الغرباء وعلى رأس إحدى القباب جلست صبية تسرح شعرها الطويل الأسود المشعث، وقد أدارت وجهها الأسمر مغمضة العينين، نحو شمس الظهيرة الخافتة، وأنشدت بصوت خفيض أغنية بلسان غريب. وكانت الأساور المعدنية تخشخش حول معصميها الدقيقين القويين.

ولكي أدفئ أطرافي الخدرة، أكثرت من شرب الشاي مع الشرطي الذي رافقني وخادمي إبراهيم. وعندما امتطيت جوادي ثانية رأيت العالم كله أمامي عريضاً شفافاً أكثر من أي وقت مضى. رأيت تكوينه الداخلي وشعرت بضربات نبضه في الوحدة البيضاء، ورأيت كل ما كان مخفياً عني منذ لحظة، وعرفت أن الأجوبة كلها بانتظارنا، بينما نحن - البلهاء المساكين - نسأل الأسئلة وننتظر أن تأتينا هداية الله دون تطلع إليها ولا طلب لها. بينما كان علينا أن نبحث عن الهداية في مظانها ونطلبها من الله مالكها وحده.

وبدا لنا مرتفع فلكزت جوازي بالمهماز وطرت عبر النور البلوري الشفاف، وأطارت حوافر الجواد الثلوج من حولي كوشاح من الشرر وأرعدت فوق ثلج الجداول المتجمدة.

أعتقد أنني عندئذ خبرت، دون أن يتّضح لي ذلك كلياً، تفتَّح نعمة الهداية من عند الله، تلك النعمة التي حدثني عنها القسيس (فالكس) عندما شرعت في رحلتي الأولى التي كان مُقدراً لها أن تبدل حياتي كلها، ولكن كان لا بد أن

ينقضي أكثر من سنة بين ذلك الركوب الجنوبي فوق الثلج والجليد وبين اعتناقي الاسلام، ولكني ركبت عندئذ دون أن أعلم مستقيماً كالسهم، نحو مكة.

عندما جفّت آثار الوضوء تراجع ذلك النهار الممطر في إيران منذ أكثر من سبع سنوات إلى الماضي مرة أخرى. لقد تراجع إلى الماضي، ولكن لا ليختفي، ذلك أن ذلك الماضي جزء من هذا الحاضر.

حرّك نسيم الصباح البارد العليل شجيرات الصحراء، وأخذت النجوم تضمحلّ شيئاً فشيئاً. يا زيد، يا منصور، إنهضا، إنهضا لنُصَلِّي لله ونشرب قهوتنا، ومن ثَمَّ نركب عبر نهارآخر، عبر الصحراء التي تنتظرنا مفتوحة الذراعين.

جـن

-١-

كانت الشمس على وشك المغيب عندما اعترضت طريقنا حية كبيرة سوداء كان طولها متر واحد تقريباً. لقد توقفت الحية عن زحفها ورفعت رأسها إلينا فانزلقت من الرحل، ثم جلست وسددت بندقيتي نحوها. وفي اللحظة نفسها سمعت صوت منصور من ورائي وهو يهتف:

- «لا ترم»! ولكنني كنت قد ضغطت على الزناد، وانتفضت الحية وتلوّت وما لبثت أن وقعت ميتة.

ونظرت فوقي فرأيت وجه منصور وقد بدت عليه علائم الاعتراض.

- «ما كان لك أن تقتلها، وبخاصة في وقت الغروب، لأن هذا هو الوقت الذي يخرج فيه الجن من تحت الأرض، وقد يظهر في هيئة الحية».

فضحكت وأجبت: «وهل تؤمن حقيقة يا منصور بتلك القصص التي ترويها العجائز عن ظهور الجن على هيئة الحيات».

فأجاب: «طبعاً أؤمن بالجن. ألم يأت ذكرهم في كتاب الله؟ أمّا في ما يتعلق بالهيئات التي يبدون لنا فيها أحياناً فلقد سمعت أن باستطاعتهم أن يتخذوا مختلف الأشكال.

وقلت في ذات نفسي إن منصوراً قد يكون على حق، فهل من غير المعقول أن نعترف أنه قد يكون هناك -إلى جانب الكائنات التي يمكن لمشاعرنا أن تدركها- بعض الكائنات التي تروغ عن إدراكنا؟ أليس نوعاً من الغطرسة العقلية أن يرفض الإنسان الحديث الاعتقاد بوجود أشكال حياتية غير تلك التي يستطيع أن يلاحظها ويقيسها؟

وبينما كنت أمتطي راحلتي ثانية والأسئلة تتزاحم في مخيلتي وتعلو وجهي نصف ابتسامة تعبر عن شك رجل جعلته نشأته صفيق الجلد أكثر من أولئك الناس الذين عاشوا حياتهم كلها أقرب إلى الفطرة إلتفت زيد إليّ وقد علت محياه أمارات المحبة وقال:

- «إن منصوراً على حق يا عمي، فما كان من الخير قتل الحية. منذ سنوات عديدة، عندما تركت حايل بعد أن استولى عليها ابن سعود، قتلت حية في طريقي إلى العراق، وكانت الشمس على وشك المغيب. وبعد قليل عندما توقفنا لصلاة المغرب شعرت فجأة بثقل غريب في رجلي وبدأ رأسي يهدر هدير المياه عند انحدارها، وأصبحت أطرافي كالنار، ولم أعد أستطيع الوقوف فسقطت على الأرض كالكيس الفارغ، وأصبح كل ما حولي مظلماً، إنني لا أعرف كم من الوقت بقيت في تلك الظلمة، ولكنني أذكر أنني في النهاية وقفت ثانية، ووقف رجل عن يميني وآخر عن شمالي، وقاداني إلى قاعة كبيرة معتمة كانت مليئة بالرجال الذين كانوا يذرعونها جيئة وذهوباً باهتياج ويتحدث بعضهم إلى بعض. وبعد قليل أدركت أن أولئك الرجال كانوا منقسمين إلى فريقين مختلفين، كما ينقسم الناس أمام المحاكم. وكان يجلس على منصة مرتفعة في مؤخرة القاعة رجل مسن قصير القامة، وبدا لي أنه كان قاضياً أو زعيم قبيلة، وعرفت أنني كنت المتهم.

وقال أحدهم: «لقد قتله عند غروب الشمس بطلقة من بندقيته. إنه مذنب». ورد واحد من الفريق المعارض: «ولكنه لم يكن يعرف من كان يقتل، ولقد ذكر اسم الله عندما ضغط على الزناد». ولكن أفراد الفريق المتهم ما لبثوا أن صاحوا: «إنه لم يسم الله»، فكرر أفراد الفريق الآخر معاً: «بلى، لقد سبّح باسم الله»، واستمر الحال على هذا المنوال بين اتهام ودفاع بعض الوقت، إلى أن خيل إليّ في النهاية أن الفريق المدافع قد فاز، ولفظ القاضي حكمه فقال: «إنه لم يكن يعرف من كان يقتل، ولقد سبح باسم الله. أرجعاه».

«وقادني الرجلان اللذان أحضراني إلى قاعة المحكمة في الطريق نفسها إلى تلك الظلمة العظيمة التي خرجت منها ووضعاني على الأرض. وفتحت عيني ورأيت نفسي ممدوداً بين بضعة أكياس من القمح كانت قد كدست إلى جانبي وقد فرشت

فوقها قطعة من القماش لحمايتي من أشعة الشمس. وقد خيل إليّ أن الوقت كان الضحى الباكر، وأن رفاقي كانوا قد ضربوا خيامهم للاستراحة. وفي المدى البعيد استطعت أن أرى إبلنا ترعى عند منحدر إحدى الروابي، وأردت أن أرفع يدي، ولكن أطرافي كانت متعبة إلى حد كبير. وعندما أحنى أحد رفاقي وجهه فوقي، قلت: «قهوة..»، ذلك أني سمعت عن قرب صوت الهاون. وقفز رفيقي بهتف: «إنه يتكلم، إنه يتكلم، لقد عاد إلى وعيه»، وأتوني بقهوة ساخنة طازجة، فسألتهم: «هل غبت عن وعيي طيلة الليل»؟ فأجابوني: «طيلة الليل؟ إنك لم تتحرك أربعة أيام بكاملها. لقد كنا نحملك كالكيس على ظهور إبلنا وننزلك في الليل، واعتقدنا أن علينا أن ندفنك هنا. ولكن سبحان الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت».

-٢-

وفي أصيل اليوم الثالث من مغادرتنا حايل توقفنا كي نسقي راحلتينا من بئري (عرجا)، في واد مستدير واقع بين رواب منخفضة. وكانت البئران كبيرتين مليئتين بالماء العذب تقعان في منتصف الوادي، وكل واحدة منهما ملك لقبيلة، فالبئر الغربية لقبيلة (حرب)، والبئر الشرقية لقبيلة (مطير). وكانت الأرض حول البئرين جرداء كراحة الكف، ذلك أنه في كل يوم عند الظهر تقريباً تساق مئات من الإبل والغنم من المراعي البعيدة كيما تشرب من هاتين البئرين، وكانت كل ورقة من العشب يؤتى عليها بمجرد ظهورها فوق سطح الأرض.

وعندما وصلنا كان الوادي يعج بالأنعام، وكانت قطعان الماشية تظهر باستمرار من بين التلال التي كانت تنصبّ عليها أشعة الشمس. وحول البئرين عدد كبير من البدو ولغط عظيم، ذلك أنه ليس من السهل إرواء ظمأ هذا العدد الكبيُر من الأنعام. وكان الرعاة يسحبون الماء في دلاء جلدية بحبال طويلة، وهم يُنشدون محافظة على انتظام الحركات المتعددة؛ ذلك أن الدلاء كانت كبيرة جداً وثقيلة جداً عندما تملأ بالماء حتى أن سحبها من الأعماق كان يحتاج سواعد عديدة. وعندما يظهر الدلو الكبير على حافة البئر كانت النساء يتلقفنه ويفرغن الماء في أوعية جلدية، فتتدافع الإبل إلى الأمام وهي تهدر وترتجف اهتياجاً، وتتجمع حول

الماء دون أن يخفف من هياجها نداءات الرجال المهدئة. وكان أحدها يدفع بعنقه الطويل المرن إلى الأمام بين أعناق رفاقه وفوقها ليروي ظمأه بأسرع ما يمكن. كان هناك تأرجح وتمايل وتدافع لأجسام مختلفة الألوان، وكانت الرائحة الحادة اللاسعة المنبعثة من عرقها وبولها تملأ الهواء، بينما يُملأ الدلو مرّة بعد مرّة فيسحبه الرعاة وهم يكررون أنشودتهم، ويبدأ من جديد مشهد صب المياه وأصوات الإبل وهي تشرب ونداءات الرجال وغناؤهم.

ورفع الرجل الواقف عند حافة البئر يده باتجاهنا وهتف.

- «حياكم الله يا أهل الطريق! شاركونا في النعمة» بينما شق عدد آخر من الرجال طريقهم نحونا. وأمسك أحدهم بمقود ذلولي وأناخها كيما أترجل براحة، وسريعاً ما أفسح لرواحلنا طريقاً إلى الماء، وأخذت النسوة يسكبن الماء، ذلك أننا كنا مسافرين وكانت لنا الأفضلية.

وقال زيد وهو مستغرق في التأمل: «أليس مدهشاً أن ترى يا عمي كيف تعيش حَرْب ومُطَير في سلام مع أنه لم يمض على انتهاء الحرب بينهما إلاّ القليل»؟ وذلك أنه منذ ثلاث سنوات فحسب كانت مُطَير ثائرة ضد الملك، بينما كانت حَرْب من أعوانه «وهل تذكر - يا عمي - المرة الماضية التي كنا فيها هنا، وكيف أننا مررنا حول (عرجا) في دائرة كبيرة أثناء الليل، دون أن نجرؤ على الاقتراب من البئرين، غير عارفين ما إذا كنا سنلاقي عندهما صديقاً أو عدواً»؟.

كان زيد يشير إلى ثورة البدو الكبرى عام ١٩٢٨ - ١٩٢٩، إلى أوج المأساة السياسية التي هزت مملكة ابن سعود، والتي كان لي صلة بها ردحاً من الزّمن.

عندما ارتفع الستار في عام ١٩٢٧، كان السلام يخيم فوق أرجاء مملكة ابن سعود الواسعة، ولم يعد حكمه في نجد مهدداً من أية منافسة، فقد كانت حايل تابعة له وبلاد شمر، كما كان الحجاز خاضعاً له منذ عام ١٩٢٥. وكان من أبرز قوّاد جيش الملك عبدالعزيز ذلك الشيخ البدوي الجبار (فيصل الدويش) الذي لعب دوراً حاسماً في انتصارات ابن سعود.

والآن، صيف عام ١٩٢٧، كان يجلس فخوراً على رأس قبيلته في هجرة الأرطاوية، على بعد مائتي ميل عن حدود العراق.

ولقد كانت تلك الحدود، طوال سنين عديدة، مسرحاً لغارات البدو المستمرة الناشئة عن هجرات العشائر طلباً للعشب والماء، إلاّ أنه في سلسلة من الاتفاقات بين ابن سعود وبين دولة الانتداب على العراق تقرر أنه لا يجوز إقامة عراقيل في وجه تلك الهجرات الضرورية، وأنه يجب أن لا تنشأ أية استحكامات من أي نوع على كل من جانبي الحدود النجدية العراقية. وفي صيف عام ١٩٢٧ بنت الحكومة العراقية وحصّنت قلعة عند آبار (بسيّة) على الحدود وأعلنت رسمياً عزمها على بناء قلاع أخرى على طول الحدود. وسرت موجة من القلق بين أفراد القبائل في شمالي نجد إذ وجدوا أنفسهم مهددين في رزقهم وحريتهم، معزولين عن الآبار التي كانوا يسقون منها أنعامهم. واحتج ابن سعود على هذا الخرق الواضح للاتفاقات، ولكنه لم يتلق بعد أشهر، سوى جواب مراوغ من المندوب البريطاني في العراق.

وإذ كان فيصل الدويش رجل عمل دائماً، فقد قال لنفسه: «قد لا يكون من المناسب للملك أن يبدأ نزاعاً مع البريطانيين، ولكنني أنا سأفعل». وفي الأيام الأخيرة من شهر تشرين الأول ١٩٢٧ خرج على رأس فرقة من الاخوان من (مطير)، فهاجم قلعة (بسية) ودمرّها دون رأفة بالحامية العراقية. وظهرت الطائرات البريطانية فوق مسرح الحادثة، فاستطلعت الأمر ثم انسحبت خلافاً لعادتها دون أن تطلق رصاصة واحدة. ولقد كان من السهل عليهم أن يصدوا الغارة، وهو عمل كان من حقهم بموجب معاهداتهم مع ابن سعود، ثم ينهوا مشكلة الحدود بطريق المفاوضات السياسية. ولكن هل كانت الحكومة البريطانية تهتم حقّاً بإيجاد حل سلمي سريع للخلاف؟.

وظهرت الوفود من قبائل شمال نجد أمام الملك، والتمست منه إرسال حملة على العراق، ولكن ابن سعود رفض بقوة وأعلن الدويش عاصياً، وأصدر أمره إلى أمير حايل بأن يسهر على مراقبة مناطق الحدود، ثم أوقف مؤقتاً عن القبائل التي كانت تحت سيطرة الدويش المرتبات المالية التي تصرف لهم، كما أمر (الدويش) نفسه بالبقاء في الأرطاوية، وأن ينتظر فيها قضاء الملك. وأحيطت الحكومة العراقية رسمياً

بهذه الإجراءات، كما أُعلِمت بأن (الدويش) سيلقى أشد العقاب، غير أن ابن سعود في الوقت نفسه طلب أن يتقيد العراق في المستقبل بالمعاهدات تقيداً أتمّ.

وهكذا فقد كان من السهل القضاء على هذا الخلاف بسهولة، ولكن المندوب السامي البريطاني في العراق أعلم ابن سعود بأنه سيرسل فرقة جوية لمعاقبة قبيلة الدويش الذي كانوا قد عادوا قبل ذلك بمدة طويلة إلى ديارهم ولإجبارهم على احترام المعاهدات. وإذ لم يكن في ذلك الوقت بريد برقي في الرياض، فقد أرسل ابن سعود على جناح السرعة أحد السعاة إلى البحرين، حيث أرسلت برقية إلى بغداد احتجاجاً على التدبير المنويّ اتخاذه، وطلباً لتطبيق المعاهدات التي كانت تمنع الفريقين من ملاحقة مخالفي النظام عبر الحدود. وقد أكد في البرقية أنه ليس في حاجة إلى « مساعدة » البريطانيين في فرض الطاعة على (الدويش)، وأخيراً أنذر بأن كل عمل حربي جوي بريطاني في الأراضي النجدية من شأنه أن يحدث فتنة بين الإخوان الذين أثيروا حتى ذلك الحين بصورة كافية.

وبقي الإنذار مهملاً. وفي أواخر شهر كانون الثاني من سنة ١٩٢٨، أي بعد مضي ثلاثة أشهر على حادث (بسيّة)، اجتازت فرقة جوية بريطانية الحدود وألقت قنابلها على الأراضي النجدية، فأنزلت الدمار بمضارب خيام (مطير)، وقتلت دون تمييز الرجال والنساء والأطفال والمواشي. وأخذ جميع الاخوان في الشمال يعدّون العدة لشن غارة انتقامية على العراق. غير أن الحركة –بسبب منزلة ابن سعود وحدها بين القبائل– أوقفت في الوقت المناسب، واقتصرت على بعض المناوشات الصغرى عند الحدود. وفي تلك الأثناء أعاد البريطانيون بناء قلعة (بسيّة) المهدومة، كما بنوا قلعتين أخريين في الجانب العراقي من الحدود.

وعندما دُعي فيصل الدويش إلى الرياض رفض الانصياع للأمر، وقد زاد في ألمه ما كان يعانيه من استياء وحنق، فقد كان يرى أنه هو فيصل الدويش الذي خدم الملك بكثير من الولاء والاخلاص، لم يكن سوى أمير على هجرة الأرطاوية، التي لم تكن برغم كثرة سكانها إلاّ قرية كبيرة. لقد كانت قيادته حاسمة في فتح (حايل)، ولكن ابن عم الملك ابن مساعد – لا هو – الذي عُيّن أميراً على (حايل). وفي إبّان

الحملة على الحجاز كان هو – فيصل الدويش – الذي حاصر المدينة عدة أشهر مما أجبر حاميتها أخيراً على الاستسلام، ولكنه لم يعين أميراً عليها. إنه لم يعرف طعم الراحة بسبب من عدم تحقق رغبته الملحة الجامحة في الحكم. وقال في نفسه: «إذا كان ابن سعود من قبيلة (عنزة)، فأنا من قبيلة (مطير). نحن متساوون في شرف المحتد، فَلِم أعترف أنا بسلطة ابن سعود»؟ مثل هذا التفكير، كان بداية الشقاق في التاريخ العربي، فليس من أحد يقر بأن هناك من يفضله.

وبدأ زعماء الاخوان الغاضبين – واحداً بعد واحد – ينسون فضل ابن سعود عليهم. ومن بين هؤلاء كان سلطان بن بجاد، شيخ قبيلة (عتيبة) وأمير الغطغط من أكبر هجرات الاخوان في نجد. لقد كان هو بطل معركة (تربة) عام ١٩١٨، وكان من قادة الجيش الذي فتح الطائف ومكة عام ١٩٢٤، فلماذا يقنع بمنصب أمير الغطغط فحسب؟ لماذا لم يُعيّن أميراً على مكة؟ لماذا لم يُعيّن أميراً على الطائف على الأقل؟ لقد رأى – شأن فيصل الدويش – أن ما كان يعتبره حقاً له قد غُمِط، وإذ كان ابن بجاد صهر الدويش، فقد كان من السهل بأن يتحد الاثنان ضد ابن سعود.

وفي خريف عام ١٩٢٨، دعا الملك ابن سعود إلى مؤتمر لزعماء القبائل والعلماء يعقد في الرياض لحل كل هذه الخلافات. وقد حضر جميع قادة القبائل باستثناء ابن بجاد والدويش. وإذ كانا شديدي الصلابة في مقاومتهما، فقد أعلنا أن ابن سعود مُلْحِد وضالّ عن الدين، لأنه عقد المعاهدات مع الكفرة، واستقدم إلى بلاد العرب صنائع الشيطان من مثل السيارات والهاتف واللاسلكي والطائرات، وأعلن العلماء المجتمعون في الرياض بالاجماع أن مثل تلك الاختراعات العلمية جائزة شرعاً وعقلاً، لأنها تزيد في معرفة المسلمين وقوتهم، وأن المعاهدات مع غير المسلمين –استناداً إلى فعل الرسول ﷺ– مباحة أيضاً إذا كانت في صالح المسلمين.

ولكن الزعيمين الثائرين استمرا في عنادهما، ولقيا آذاناً صاغية لدى كثير من الاخوان البسطاء الذين لم يكونوا يملكون قدراً كافياً من العلم والعرفة.

كان بَرُّ نجد الفسيح يطنّ الآن مثل خليّة النحل، وكان الرسل يتنقلون في الخفاء على رواحلهم السريعة من قبيلة إلى أخرى، وكانت الاجتماعات السرية بين الزعماء تعقد عند الآبار القصية. وأخيراً، انفجر الهياج ضد ابن سعود إلى ثورة علنية ضمت عدداً من القبائل الأخرى إلى جانب قبيلتي مطير وعتيبة. واعتصم الملك بالصبر، وحاول أن يتفادى الحرب فأرسل الرسل إلى زعماء القبائل المعارضين وحاول أن يناقشهم بالمنطق والحجة ولكن دون جدوى. وهكذا أصبحت أواسط الجزيرة العربية وقسمها الشمالي مسرحاً لحرب عصابات واسعة واضطرب الأمن العام الذي كان يسود البلاد، وحلت محله الفوضى في أنحاء نجد، واكتسحته عصابات الاخوان الثائرين في جميع الجهات، مهاجمةً القرى والقوافل والعشائر التي بقيت على إخلاصها للملك.

وبعد مناوشات محلية لا تحصى بين الثوار والقبائل الموالية، جرت معركة حاسمة في سهل (السّبَلَه) في أواسط نجد، في ربيع عام ١٩٢٩، ففي أحد الجانبين كان الملك معززاً بقوة كبيرة، وفي الجانب الآخر كانت قبيلتا مطير وعتيبة تسندهما بطون من القبائل الأخرى. وانتهت المعركة بانتصار الملك، واستسلم (ابن بجاد) دون قيد أو شرط، فجيء به إلى الرياض. أمّا الدويش فقد أصيب بجراح بالغة، وقيل إنه كان يلفظ أنفاسه الأخير، فأرسل ابن سعود -أكثر ملوك العرب رقة وكرماً- طبيبه الخاص للعناية به والاشراف على صحّته، فوجد ذلك الطبيب -وكان سورياً شاباً- أن كبد الدويش مصابة بأذى خطير، وأنه لذلك لن يعيش أكثر من أسبوع واحد. عندها أصدر الملك قراره: «سنتركه يموت بسلام. إن عليه أن يلقى عقابه من الله». ثم أمر أن يعاد الأسير الجريح إلى عائلته في الأرطاوية.

ولكن ابن الدويش لم يمت، ذلك أن إصابته لم تكن خطرة جداً كما اعتقد الطبيب السوري الشاب. وفي بضعة أسابيع شُفي إلى درجة مكّنته من أن يخرج من الأرطاوية خلسة وأن يعقد العزم أكثر من أي وقت مضى على الأخذ بالثأر.

وأعطى هرب الدويش من الأرطاوية قوة جديدة للثورة. وقد أشيع أنه كان بجوار حدود الكويت يجمع أنصاراً من القبائل إلى قواته من قبيلة (مطير). ومن بين القبائل التي التحقت به قبيلة (العجمان) التي كانت رغم صغرها قوية وكانت تقطن في

مقاطعة الأحساء قرب الخليج العربي - الفارسي. وكان شيخها (ابن حِثْلين)، خال فيصل الدويش. لم تكن هناك أي مودة بين العجمان وابن سعود، فقد قتلوا منذ سنوات أخا الملك الأصغر (سعد) ثم هاجروا إلى الكويت خوفاً من انتقامه. إلاّ أن الملك صفح عنهم في ما بعد، وسمح لهم بالعودة إلى أرض آبائهم. ولكن الأحقاد القديمة ظلت متقدة، وانفجرت عداوة مكشوفة عندما قُتِلَ زعيم العجمان وعدد من أتباعه غدراً في مخيّم سعود بن جلوي، الابن الأكبر لأمير الأحساء وهو ابن عمّ الملك.

وأشعل التحالف بين العجمان ومطير رغبة القتال في قبيلة عتيبة في أواسط نجد. وبعد القبض على زعيمهم (ابن بجاد) جمعوا صفوفهم من جديد تحت إمرة شيخ آخر، وثاروا مرة أخرى ضد الملك. وهكذا أجبروه على تحويل معظم قواته من شمالي نجد إلى أواسطه. وكان القتال عنيفاً، إلاّ أن ابن سعود استطاع شيئاً فشيئاً أن يسيطر على الموقف، وما لبثت بطون عتيبة أن استسلمت للملك واحداً بعد آخر، ففي قرية صغيرة بين الرياض ومكة قدموا خضوعهم للملك. ومرّة أخرى صفح الملك عنهم ليتفرغ لاخضاع الدويش وسائر الثوار في الشمال. ولكنه ما كاد يعود إلى الرياض حتى نكثت عتيبة عهدها وجددت القتال مما جعل الحرب حتى النهاية أمراً لا بد منه. وللمرة الثالثة هُزمت عتيبة ولم تقم لها قائمة بعدها وسادت سلطة ابن سعود من جديد في أواسط نجد.

وظل النزاع مستمراً في الشمال، وكان فيصل الدويش وحلفاؤه قد عززوا مواقعهم بجوار حدود العراق والكويت. وقد هاجمهم ابن مساعد - أمير حايل - مرة بعد أخرى، وحملت الأخبار مرتين نبأ قتل الدويش، ولكنّه ظل حيّاً مستمراً في عناده وخصامه، وقُتِلَ ابنه الأكبر وسبعمئة من مقاتليه ولكنه ظل يقاتل، مما حمل السؤال التالي إلى الأذهان: من أين يأتي الدويش بالمال لمواصلة الحرب؟ ومن أين يأخذ أسلحته وذخائره؟ وجاءت تقارير غامضة تقول أن ذلك الثائر الذي سبق أن انتقد بعنف ابن سعود على عقد معاهدات مع الكفرة كان هو نفسه يستعين بالبريطانيين. وسرت شائعات مفادها أنه يقوم بزيارة الكويت باستمرار، فأخذ الناس يتساءلون: أليس من مصلحة البريطانيين أن يسود الشغب والفوضى مملكة ابن سعود؟.

في إحدى الأمسيات صيف عام ١٩٢٩ في الرياض ذهبت إلى فراشي مبكراً. وقبل أن أستسلم للرقاد بينما كنت أسلّي نفسي بكتاب -عن سلالات عمان - إذا بزيد يدخل إلى غرفتي فجأة ويقول:

- «هناك رسول من الملك، إنه يريد أن يراك حالاً».

ولبست ثيابي بسرعة وذهبت إلى القصر. وكان ابن سعود في انتظاري في جناحه الخاص، جالساً القرفصاء ومن حوله أكوام من الصحف العربية، وفي يده جريدة تصدر في القاهرة. وقد رد الملك على تحيتي باقتضاب ومن غير أن يتوقف عن القراءة، ثم أشار إليَّ بالجلوس إلى جانبه وبعد هنيهة رفع بصره ونظر إلى الخادم الذي كان واقفاً عند الباب، وأشار بحركة من يده إلى رغبته في الانفراد بي، وما إن أقفل الخادم الباب وراءه حتى وضع الملك الجريدة من يده ونظر إليَّ هنيهة كأنما لم يرني منذ وقت طويل، رغم أنني كنت قد أمضيت معه ساعات ذلك الصباح نفسه.

- «مشغول في الكتابة»؟

- «كلا يا طويل العمر، إنني لم أكتب شيئاً منذ أسابيع». فقال الملك: «لقد كتبتَ عدة مقالات شيقة عن مشاكل الحدود مع العراق».

وكان واضحاً أنه كان يشير إلى سلسلة مقالاتي التي كنت كتبتها للصحف الأوروبية قبل ذلك بشهرين. وقد نشر بعضها في إحدى صحف القاهرة. وإذ كنت أعرف الملك، فقد كنت واثقاً من أنه لم يكن يتكلم جزافاً بل يرمي إلى غرض معيّن، وهكذا بقيت ساكتاً منتظراً أن يكمل هو الحديث، وقد أكمله فعلاً:

- «لعلك تحب أن تكتب أشياء أخرى عما يحدث في نجد، عن هذه الثورة وعمّا تنذر به من سوء. إن الانكليز الذي يدّعون صداقتي لم يبنوا تلك القلاع دون سبب؛ لقد أرادوا أن يحدثوا لي المتاعب وأن يبعدوني عن الحدود».

لقد سرت الاشاعات عن خط حديدي بريطاني يسيّر بين حيفا والبصرة منذ سنوات عديدة، وكان معروفاً أن البريطانيين مهتمين بتأمين «الطريق البري إلى الهند»، وهذا هو أهم هدف لانتدابهم على فلسطين وشرق الأردن والعراق. وإن

خطّاً حديدياً من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي – الفارسي يوفر حماية لخطّ النّفط الذي كان مزمعاً إنشاؤه من العراق إلى حيفا عبر بادية الشام، ومن ناحية أخرى فإن اتصالاً مباشراً بواسطة السكة الحديدية بين حيفا والبصرة من شأنه أن يمر عبر مقاطعات ابن سعود الشمالية الشرقية، والملك عبدالعزيز لا يمكن أن يقبل حتى النظر في مثل هذا الاقتراح. أَفَلَمْ يكن بناء القلاع على طول الحدود العراقية النجدية –وقد كان خرقاً فاضحاً لجميع الاتفاقات القائمة – المرحلة الأولى من خطة مدبرة لاحداث الفوضى والشغب ضمن هذه المنطقة لتسويغ إنشاء «دولة حاجزة» صغيرة شبه مستقلة سهلة الانقياد للبريطانيين؟ وقد كان فيصل الدويش أهلاً لتحقيق هذه الغاية مثل أو أفضل من غيره، ذلك أن الدويش نفسه كان نجدياً وكان له أتباع بين الاخوان كثيرون. وكان واضحاً لدى كل من عرف ماضيه أن غيرته المزعومة على الدين لم تكن سوى قناع يخفي وراءه غايته الحقيقية التي لم يكن يسعى إلى غيرها: الحكم، ولا شيء غير الحكم. ولم يكن ثمة شك في أنه لو كان وحده إذن لما استطاع أن يصمد كل تلك المدة الطويلة في وجه ابن سعود. ولكن، هل كان وحده حقاً؟

وبعد أن استغرق الملك في التفكير طويلاً، تابع حديثه قائلاً: «لقد كنت أفكر في الأسلحة والذخائر الموجودة في حوزة الدويش. إن لديه كثيراً منها، وكثيراً من المال – أيضاً – كما يتبيّن من التقارير الواردة إليَّ. وإنني لأتساءل عما إذا كنت لا ترغب في الكتابة عن تلك المصادر الخفية لذخائر الدويش. إن عندي ظنوني الخاصة بها. ولعلها أكثر من ظنون. ولكنني أحبّ أن تجد بنفسك كل ما تستطيع، فقد أكون على خطأ».

كان الملك يتكلم بلهجة عادية، ولكن وجهه الذي كانت تبدو عليه علائم الجد منذ لحظة، علته ابتسامة عريضة ثم وضع يده على ركبتي وهزّها قائلاً:

– «أريدك يا ولدي أن تجد بنفسك من أين يأتي الدويش ببنادقه وذخائره وأمواله التي ينثرها بمثل هذا السخاء. إني أكاد أكون على ثقة تامة، ولكن أحب أن يتأتى

لشخص مثلك أنت – لا علاقة مباشرة له بالأمر – أن يُخبر العالم عن الحقيقة وراء ثورة الدويش وأعتقد أن باستطاعتك أن تكتشف الحقيقة».

لقد كان ابن سعود يعرف ماذا كان يفعل. كان يعرف أنني كنت أحبه. وبالرغم من أنني كنت أختلف معه أحياناً في سياسته، وأنني لم ألجأ قط إلى إخفاء هذا الاختلاف، فإنه لم يحجب ثقته عني أبداً، وكثيراً ما كان يسألني النصح. وفي اعتقادي أن ثقته بي قد ازدادت لأنه كان يدرك إدراكاً تاماً أنني لم أكن أتوقع أي نفع شخصي منه، وأنني لم أكن أقبل منصباً في حكومته، ذلك أنني أردت أن أبقى حرّاً طليقاً. وهكذا، في تلك الليلة من صيف عام ١٩٢٩، اقترح عليَّ بهدوء أن أخرج وأعمل على اكتشاف الحقيقة وراء ثورة الاخوان، وقد كانت مهمة فيها –على الأرجح– خطر على شخصي، ويقيناً لا يمكن تنفيذها إلاّ بجرأة شديدة.

ولكن استجابتي لم تخيب ظن الملك، فبالإضافة إلى حبي له ولبلاده، فإن المهمة التي عهد بها إليَّ الآن بدت وكأنها تَعِد بمغامرة مثيرة، إن لم يكن «بفتح» صَحَفي.

وأجبت حالاً: «أمرك على عيني ورأسي يا طويل العمر، سأفعل كل ما أستطيع».

– «ليس لدي شك في ذلك، يا محمد، وآمل أن تبقى مهمتك سرية، فقد تنطوي على خطر. وزوجتك؟»

كانت الزوجة التي أشار إليها الملك فتاة من الرياض كنت قد تزوجتها في العام السابق، ولكنني استطعت أن أطمئن الملك من هذه الناحية فأجبت:

– «إنها لن تبكي، أيها الإمام، ذلك أنني كنت أفكر اليوم في تطليقها. الظاهر أن أحدنا لا يلائم الآخر».

وابتسم ابن سعود عن معرفة «ولكن أهلك وأنسباؤك»؟

فقلت: «ليس هناك – في اعتقادي – من يحزن عليَّ فيما إذاحدث لي شيء باستثناء زيد. ولكنه سيرافقني، وكل ما سيصيبني سيصيبه هو أيضاً».

– «حسن جداً» أجاب الملك. «ولكن قبل أن أنسى، إنك ستحتاج في مهمتك إلى بعض المال» ودسّ يده تحت الوسادة التي كانت وراءه، وأخرج كيساً ودفعه في يدي. ولا أزال أذكر كيف أنني قلت في نفسي: ما كان أعظم ثقته – قبل أن يسألني رأيي – في أنني سأقبل الاقتراح.

ولما وصلت إلى البيت ناديت زيداً، وكان في انتظار عودتي، وسألته:

– «لو طلبت إليك يا زيد، أن ترافقني للقيام بمهمة قد تكون خطرة، فهل تذهب معي».

فأجاب زيد: «وهل تظن –يا عمي – أنني أدعك تذهب بمفردك، مهما كان الخطر؟ ولكن إلى أين سنذهب»؟

– «إننا ذاهبون في مهمة بأمر الملك ولكنَّه يُلحّ عليَّ أن لا يعرف أحد ما نفعل إلى أن ننجز المهمة».

ولم يهتم زيد بمعرفة التفاصيل، ولكنه – عوضاً عن ذلك– عني بتوجيه السؤال الذي كان أهمّ من الناحية العملية:

– «كيف سنشرع بالمهمة»؟

والحق أنني كنت أثناء عودتي من القصر مهتمّاً بهذا الأمر. وقد بدا لي أن أفضل نقطة انطلاق إنما تكون إحدى المدن في أواسط نجد، حيث يوجد تجار عديدون على صلات وثيقة بالعراق والكويت. وأخيراً استقر رأيي على «شقراء»، عاصمة مقاطعة «الوشم» الواقعة على مسير ثلاثة أيام من الرياض، حيث يمكن لصديقي عبدالرحمن السبيعي أن يساعدني.

وقضينا اليوم التالي في الاستعداد للسّفر، وإذ لم أرد أن ألفت الانتباه فقد حذّرت زيداً من أن يطلب الزاد من مستودعات الملك، بل يشتري كل ما كنا بحاجة إليه من السوق. وما إن أقبل المساء حتى كان زيد قد ابتاع مختلف الأطعمة الضرورية: نحواً من ٢٠ رطلاً من الأرز، والكمية نفسها من الطحين للخبز، وقربة صغيرة من السّمن، وبعض التمر والبن والملح. واشترى كذلك قربتين جديدتين للماء

ودلواً من جلد وحبلاً من شعر الماعز يكفي طوله لسحب الماء من الآبار العميقة. وأخذنا أيضاً حاجتنا الكافية من السلاح والذخيرة ووضعنا في خرجينا مجموعتين من الثياب لكل منا، ولبس كل منا عباءة ثقيلة، ووضعنا غطاءً ثقيلاً على كل من السّرجين لاستعماله في الليالي الباردة. وكان ذلولانا اللذان أمضيا عدة أسابيع في المرعى في حالة ممتازة. وكانت الراحلة التي أهديتها زيداً منذ مدة قصيرة، ذلولاً عمانية سريعة، في حين أنني كنت أمتطي ذلولاً «شمالية» كانت في ما مضى ملكاً لآخر أمير رشيدي على حايل وقدمها ابن سعود هدية منه إليّ

وخرجنا من الرياض بعد حلول الظّلام، فوصلنا عند الفجر إلى وادي حنيفة حيث جرت المعركة الحاسمة منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة بين جيوش المسلمين أيام أبي بكر وجيوش المتنبي الكذاب (مسيلمة)، الذي ناوأ المسلمين سنين عديدة. وقد اشتهرت تلك المعركة بأنها النصر النهائي للاسلام في أواسط جزيرة العرب. وقبل الظهر مررنا بأطلال «العيينة» التي كانت فيها بداية حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لتجديد الدين قبل تحالفه مع محمد بن سعود وانتقاله إلى الدرعية.

وبين صفوف أشجار الأثل كانت ترقد بقايا الماضي، جدران بيوت متهدمة، وأعمدة مسجد متفتتة، وبقايا أبنية قائمة هنا وهناك، كلها تشهد بطراز من البناء أرقى وأظرف من ذلك الطراز الحاضر الذي تبنى عليه البيوت الطينية البسيطة التي يراها المرء في نجد هذه الأيام.

وعند ظهر اليوم الثالث وقعت أنظارنا على جدران (شقراء) الطينية وأشجار النخيل المتعالية فوق بيوتها. واجتزنا راكبين (البساتين) والشوارع الخالية، ولم نذكر إلاّ ساعتئذ أن اليوم كان يوم الجمعة، وأن كل فرد لا بد أن يكون في المسجد الجامع. وبين الفينة والفينة كنا نلقى امرأة ملتفة من رأسها إلى قدميها بعباءة سوداء، وما إن تقع عينها على الغرباء حتى تبتعد وتُحكم وضع خمارها على وجهها. وكان الأولاد يلعبون هنا وهناك في ظلال البيوت. وقصدنا بيت صديقي الطبيب عبدالرحمن السبيعي الذي كان في ذلك الوقت مسؤولاً عن بيت مال المقاطعة، فنزلنا أمام الباب

المفتوح، ونادى زيد في فناء البيت: «يا ولد»، وإذ أتى خادم صبي راكضاً من داخل البيت، أعلن زيد:

– «ههنا ضيوف».

وبينما انصرف زيد والصبي إلى إنزال الرّحال عن الذلولين استرحت في مجلس قهوة عبدالرحمن حيث أوقد الخادم النار حالاً تحت إبريق القهوة النّحاسي، ولم أكد أحتسي الرشفة الأولى حتى سمعت أصواتاً في الفناء، فعرفت أن سيد الدار قد عاد. ومع أنه لم يكن قد رآني بعد، فقد هتف مرحباً بي من عند السلم، ثم ظهر عند الباب مفتوح الذراعين؛ كان رجلاً رقيقاً ذا لحية قصيرة سمراء وعينين عميقتين ووجه باسم. وعانقني عبدالرحمن بحرارة: «أهلاً وسهلاً، أهلاً بك ومرحباً في هذا البيت يا أخي، ما أسعد الساعة التي جاءت بك إلينا». ثم يأتي دور الأسئلة العادية: من أين، وإلى أين، وكيف الملك، وهل رأيتم أمطاراً في الطريق، أو هل سمعتم بالمطر في الطريق؟ إلى آخر تلك السلسلة من تبادل أخبار العرب. وأخبرته أن مقصدي عنيزة في أواسط نجد، لم يكن ذلك صحيحاً، ولكنه كان يمكن أن يكون كذلك.

في السنوات الماضية كان لعبدالرحمن تجارة واسعة بين نجد والعراق، وكان يعرف البصرة والكويت معرفة جيدة. ولم يكن من الصعب عليّ أن استدرجه للكلام عن تلك الأماكن، وأن أقف منه عمن يمكن أن يكون قد قدم حديثاً منها، فقد خيل إليّ أنه لما كانت التقارير قد قالت بوجود فيصل الدويش قريباً جداً من حدود الكويت، فإن الدليل على مصدر مُؤَنه يمكن أن يوجد إما فيها أو في البصرة. وقد عرفت أن أحد أفراد عائلة البسام الشهيرة من عنيزة – وكان أحد معارفي القدماء – كان قد زار الكويت منذ مدة قصيرة في طريق عودته إلى البصرة. وإذ رغب في أن لا يعرّض نفسه إلى أخطار السفر عبر الأراضي التي كان الثوار يُغيرون عليها، فقد آثر أن يعود إلى نجد بطريق البحرين. وقد كان ابن بسام في شقراء في ذلك الوقت، وعرض عليّ عبدالرحمن أن يرسل في طلبه إذا شئت، ذلك أنه بمقتضى العادات العربية منذ القدم؛ من حق القادم الجديد أن يُزار لا أن يزور. وهكذا فلم يمض وقت طويل إلاّ وكان عبد الله البسام معنا في مجلس قهوة عبدالرحمن.

ومع أن عبد الله البسام كان ينتمي إلى عائلة من كبار العائلات في نجد، فإنه هو نفسه لم يكن موسراً، وقد تقلّب في حياته بين الغنى والفقر في القاهرة وبغداد والبصرة والكويت والبحرين وبومبي. لقد كان يعرف الناس هناك، وكان فكره الثاقب يحمل مستودعاً من المعلومات عن كل ما كان يجري في البلدان العربية. وقد قلت له إن مؤسسة تجارية ألمانية كانت قد طلبت إليَّ أن أتحرى عن جدوى تصدير الآلات الزراعية إلى الكويت والبصرة، وأنه لما كانت المؤسسة الألمانية قد عرضت عليَّ عمولة كبيرة فقد كنت توّاقاً إلى أن أعرف مَن مِن التجار المحليين هناك يرغب في الإقدام على ذلك المشروع. وعندئذ ذكر لي البسام أسماء عدة، ثم أضاف: «إنني متأكد من أن بعض أهالي الكويت سيهتمون بالمشروع، فهو يستوردون باستمرار من الخارج، ويبدو أن الحركة التجارية في هذه الأيام نشطة جدّاً حتى أن كميّات كبيرة من الرّيالات الفضية تصل كل يوم تقريباً من المسبك في تريستا».

وقد أحسست برعدة لدى ذكر الريالات الفضية، ذلك أن هذا النوع الخاص من الريالات – ريالات ماريا تيريزا النمساوية – كان يشكل إلى جانب النقود العربية الرسمية أهم نقد تجاري متداول في شبه الجزيرة كلها، وكان يضرب في تريستا ويباع بما يوازي قيمته الفضية بالإضافة إلى أجرة السك الضئيلة إلى الحكومات المختلفة وبعض التجار البارزين الذين لهم مصالح تجارية واسعة مع البدو الذين كانوا يرفضون قبول العملة الورقية ولا يأخذون سوى الذهب أو الفضة. ولقد بدا لي أن استيراد هذه النقود من قبل التجار الكويتيين كان يدل على أن هناك حركة طارئة في التجارة بينهم وبين البدو.

وسألت البسام: «ولماذا يستورد التجار الكويتيون الريالات في هذا الوقت بالذات»؟.

فأجاب البسام وأثر الحيرة ظاهر في صوته: «لست أدري». في تلك الليلة، وقبل أن أذهب إلى الفراش في الغرفة التي خصصها لنا مضيفنا جذبت زيداً إلى إحدى زواياها وقلت له:

– «سنذهب إلى الكويت».

– «لن يكون ذلك سهلاً، يا عمي» كان هذا جواب زيد، ولكن بريق عينيه أفصح عن استعداده للاقدام على أي أمر وكان من السهل جداً أن نسافر عبر أراض تسيطر عليها قوات وقبائل موالية للملك، ولكننا سنكون بمفردنا بالكلية مسافة مئة وخمسين كيلومتراً أو نحو ذلك قبل أن نصل إلى حدود الكويت، أي وسط مساحات تطوفها باستمرار رجال قبيلتي مطير والعجمان الثائرتين. ولقد كنا نستطيع السفر إلى الكويت بحراً عن طريق البحرين، ولكن ذلك يحتاج إلى سمة مرور من السلطات البريطانية، مما يعرّض كل حركاتنا إلى المراقبة الشديدة، وكان السفر بطريق العراق يتطلب اجتياز جميع نقاط المراقبة في العراق. وهكذا لم يبق أمامنا سوى الطريق البري إلى الكويت. أمّا كيف ننفذ إلى المدينة نفسها دون أن يشعر بنا أحد، فذلك أمر لم يكن من السهل علينا أن نجيب عنه في الوقت الحاضر، ولذلك تركناه للمستقبل، راجين الله أن أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

ولقد أراد عبدالرحمن السبيعي أن أبقى معه بضعة أيام، ولكنني عندما تذرعت برغبتي في الاهتمام بأموري العاجلة، تركنا نذهب في صباح اليوم التالي بعد أن زودنا بكمية من لحم الجمل المجفّف اللذيذ لنستعين به في رحلتنا الرتيبة المقبلة.

ومن شقراء سرنا مسافة أربعة أيام نحو الشمال الشرقي دون أن يعترض سبيلنا شيء غير عادي. وفي أحد الأيام أوقفتنا فصيلة من بدو العوازم الذين كانوا موالين للملك، ويؤلفون جزءاً من قوات الأمير ابن مساعد، ولكن الكتاب المفتوح الذي كان الملك قد زوّدني به طمأنهم، وبعد تبادل المعلومات المألوفة عن أحوال الصحراء تابعنا طريقنا مرة أخرى.

وقبل فجر اليوم الخامس اقتربنا من منطقة لم يعد لابن سعود سيطرة عليها. ومن تلك النقطة أصبحت سلامتنا تتوقف على سفرنا خلسة تحت جنح الظلام. وقد نزلنا في شعب مناسب غير بعيد من وادي الرُّمَة العظيم الجاف الذي يقطع شمالي الجزيرة نحو رأس الخليج العربي – الفارسي. وكان نبات (العرفج) الكثيف يتدلى فوق الشعب ويحجبنا عن الأنظار ما دمنا بالقرب من الضفة التي كانت عمودية تقريباً.

وقد عقَلْنا راحلتينا وأطعمناهما مزيجاً من جريش الشعير ونوى التمر، ثم جلسنا ننتظر هبوط الظلام. ولم نجرؤ على أن نوقد النار، ذلك أن الدخان حتى في النهار. قد يكشفنا، وهكذا كان علينا أن نقنع بوجبة من التمر والماء.

وقد اتضح لنا مبلغ الحكمة في احتياطاتنا بعد العصر، عندما بلغ مسامعنا حداء ركبان البدو، فأمسكنا بخطام راحلتينا منعاً لهما من الحركة، والتصقنا بضفة الشعب ممسكين ببندقيتنا في أيدينا. وأخذ الحداء يعلو مع اقتراب الركب المجهول، وبدأنا نميز الكلمات بوضوح: لا إله إلاّ الله، الجملة التي أحلّها الاخوان محل النشيد. ولم يكن ثمة شك في أن أولئك القوم كانوا من الاخوان، وفي تلك المنطقة بالذات لا بد أن يكونوا من الاخوان المعادين. وبعد قليل ظهروا على رابية فوق حافة الشعب تماماً، وكانوا جماعة من ثمانية رجال أو عشرة فوق ظهور المطايا، يتقدمون ببطء واحدهم وراء الآخر. وكان على رأس كل منهم عمامة معقودة بيضاء – على عادة الاخوان – فوق عمامة مفتوحة منقطة باللونين الأحمر والأبيض، وقد تدلت فوق الرحل – وراءه – بندقية؛ ركب مهيب وقور، يتأرجح فوق الرواحل إلى الأمام وإلى الوراء، بتناغم مع خطوات الابل، ومع تلك الكلمة العظيمة: لا إله إلاّ الله. كان المنظر مؤثراً ومحزناً، فههنا رجال كان إيمانهم أهمّ عليهم من أي شيء آخر في الحياة، كانوا يعتقدون أنهم يجاهدون في سبيل الاسلام لإعلاء كلمة الله تعالى، غير دارين أن حميتهم وحماستهم إنما كانا يستغلان، في سبيل مطامح قائد طامع سعياً وراء الحكم والنفوذ الشخصيين فحسب.

لقد كانوا في الجانب الأفضل لنا من الشعب، وذلك أنهم لو كانوا يسيرون في الجانب المقابل، إذن لاستطاعوا أن يرونا بمثل الوضوح الذي كنا نراهم به الآن من تحت مخبئنا المغطى بالأعشاب، ولم نحس بالأمن إلاّ بعد أن اختفوا عن أنظارنا وهم لا يزالون يرددون: «لا إله إلاّ الله».

وهمس زيد: «إنهم كالجن سواء بسواء، لا يعرفون مُتَع الحياة ولا خوف الممات. إنهم شجعان وأقوياء الايمان، وكل ما يحلمون به هو الدم والموت والجنة».

وكأنما أراد زيد أن يتحدى تشدّد الاخوان الديني؛ فقد أخذ ينشد بصوت منخفض أنشودة سورية ذائعة: آه يا أسمر اللون.

وما أن خيّم الظلام حتى استأنفنا سيرنا خلسة باتجاه الكويت.

وهتف زيد فجأة: «انظر هناك. يا عمي، إني أرى ناراً». وقد كانت ناراً خفيفة جداً بحيث لم يكن ممكناً أن تكون صادرة عن مضرب للبدو. لعله راع منفرد؟ ولكن أي راع يجرؤ على أن يوقد هنا ناراً إلاّ إذا كان من الثوار؟ ومع ذلك فلا مانع من أن نكتشف الأمر؛ فلو كان واحداً فسيكون يسيراً التغلب عليه، ولعلنا أن نحصل منه على بعض المعلومات عن تحركات العدو في المنطقة.

كانت التربة رملية بحيث لم يكن يسمع أي صوت لأقدام راحلتينا بينما كنا نتقدم من النار بحذر. وعلى ضوئها استطعنا الآن أن نتبين رجلاً جاثماً على الأرض وقد بدا وكأنه يحدق في الظلام باتجاهنا، ثم نهض متثاقلاً كأنما رضي بما رأى، وعقد يديه على صدره ليدل على أنه لم يكن يحمل أي سلاح، ودون أن تبدو عليه أمارة من أمارات الخوف، وقف منتظراً مجيئنا بهدوء واطمئنان.

ونادى زيد، وبندقيته مصوبة إلى الرجل الغريب ذي الثياب الرثة:

– «من أنت»؟

فابتسم البدوي ببطء وأجاب بصوت عميق رنان: «صلبي». لقد اتضح الآن سبب هدوئه واطمئنانه، ذلك أن هذه الفئة الغريبة من الغجر التي كان ينتمي إليها لم تشترك في أي حرب من حروب البدو التي لا تكاد تنقطع. وإذ لم يكونوا أعداء لأحد، فإنه لم يكن ليهاجمهم أو يعتدي عليهم أحد.

ولقد بقي الصّلب حتى هذا اليوم لغزاً أمام جميع الباحثين فليس من أحد يعرف أصلهم معرفة حقيقية، ولكن الثابت أنهم من غير العرب. إن عيونهم الزرقاء وشعورهم الشقراء تُكذب بشرتهم السمراء المكتوية بنار الشمس. ومهما يكن من أمر فإن البدو يعتبرون (الصَّلب) من غير العرب، ويعاملونهم بحذر واحتقار.

والبدو يفسرون هذا الاحتقار الذي يتناقض تناقضاً بيّناً مع شعور العربي البارز بالمساواة الانسانية بتأكيدهم أن هؤلاء القوم لا يعيرون اهتماماً للعادات الانسانية ولا الأوامر الدينية، فهم معروفون في كل مكان بعدم تورُّعهم عن السرقة، وعدم اهتمامهم إلاّ بالمعيشة البهيمية من إرضاء شهوة البطن والفرج.

ولكن مهما كان السبب، فإن احتقار البدوي للصّلب قد جعل حياتهم آمنة، لعدم المنافسة وفضلاً عن ذلك فإن سكان الصحراء جميعاً يقدرون في الصّلب مهارتهم في الطب البيطري والمهارة المهنية. فالبدوي رغم احتقاره للأعمال اليدوية فهو بحاجة إليها، ولذلك يتطلع إلى الصًّلب لتوفيرها وهم كذلك رعاة إبل نشيطون، وفوق كل شيء أساتذة لا يجارون في فن الصيد، وقدرتهم على اقتفاء الأثر تكاد تكون ضرباً من الأساطير، وليس هناك من يمكن مقارنته بهم من العرب في هذا سوى بدو آل مُرّة في الأطراف الشمالية من الربع الخالي.

وإذ سُرِّي عنا عندما تأكدنا أن الرجل ليس من الثوار، فقد أعلمته صراحة أننا من رجال ابن سعود، ولم يكن في ذلك أي خطر بالنظر إلى الاحترام الذي يكنّه هؤلاء القوم للسلطة، وطلبت منه أن يطفئ النار، وبعد أن فعل جلسنا على الأرض وأخذنا في حديث طويل.

ولم يستطع الرجل أن يخبرنا بالشيء الكثير عن استعدادات قوات الدويش، ذلك أنها، كما قال: «دائمة الحركة، كالجن، لا تستقر طويلاً في مكان واحد»، إلاّ أنه تبين لنا من كلامه أنه لم يكن هنا قوات كبيرة للثوار من الاخوان متمركزة بجوارنا في ذلك الحين، ولو أن عصابات صغيرة كانت تقطع الصحراء باستمرار وفي جميع الجهات.

وفجأة التمعت في ذهني فكرة: ألا يمكننا أن تستفيد من مهارة الرجل في الصيد وقدرته على اكتشاف الطريق فيقودنا إلى الكويت؟

وسألته: «هل ذهبت إلى الكويت قبل الآن».

فضحك الرجل وأجاب: «مرّات كثيرة، لقد بعت هناك جلود الغزلان والسمن ووبر الجمال. لم يمض على عودتي من هناك سوى عشرة أيام».

– «لعلك إذن تستطيع أن تقودنا إلى الكويت من طرق لا نلتقي فيها بالاخوان».

وفكر الصلبي بضع لحظات ثم أجاب متردداً: «يمكنني، ولكني سأتعرض للخطر إذا قبض على من قبل الاخوان في رفقتكما. ومع ذلك فقد أستطيع. ولكن ذلك سيكلفكما غالياً».

فسألته: «كم»؟.

قال: «أوه» واستطعت أن أتبين في صوته مبلغ شراهته وطمعه. «حسناً، يا سيدي إذا أعطيتني مئة ريال، فإنني أقودك أنت ورفيقك إلى الكويت بحيث لا تستطيع طيور السماء أن ترانا».

وكانت المئة ريال تعادل في ذلك الحين عشرة جنيهات ذهبية، أي مبلغاً زهيداً إلى درجة مضحكة في مقابل استفادتنا من الرجل، ولكن لعل الصلبي لم يضع يده على مثل ذلك المبلغ في حياته.

قلت: «سأعطيك ما تطلب، عشرين ريالاً الآن والباقي بعد وصولنا إلى الكويت».

وواضح أن دليلنا المقبل لم يكن يتوقع أن يجاب إلى طلبه بمثل تلك السهولة، ولعله ندم على أن لم يطلب مبلغاً أكبر، ذلك أنّه أضاف بعد تفكير قليل:

– «ولكن ما قولك براحلتي؟ إذا ركبت معكم إلى الكويت فإن الحيوان المسكين سيهلك حتماً، وليس لدي سواه..».

ولما لم أكن راغباً في إطالة المفاوضات، فقد أجبت حالاً: «سأشتري بعيرك. إنك ستمتطيه إلى الكويت، وهناك سأقدمه إليك هدية مني ولكن عليك أن تقودنا في العودة أيضاً».

وكان ذلك فوق ما كان الصلبي يؤمل، وما لبث أن نهض بخفة ورشاقة بالغتين واختفى في الظلام ثم ظهر ثانية بعد دقائق قليلة وهو يقود بعيراً مسناً ولكن من جنس أصيل. وبعد مساومة قصيرة اتفقنا على أن أدفع له مئة وخمسين ريالاً ثمناً له،

شرط أن أدفع له خمسين ريالاً الآن، والباقي مع أجره في الكويت. وأحضر زيد من أحد أخراجنا كيساً كان مملوءاً بالريالات وأخذت أعد النقود في حجر الصلبي الذي أخرج بعدئذ من أعماق ثوبه المتسخ قطعة من القماش كان يربط فيها نقوده، وما إن أخذ في إضافة ريالاتي إلى دراهمه حتى استوقف نظري بريق قطعة جديدة من النقود.

فهتفت واضعاً يدي على يده: «قف! دعني أرى ذلك الريال اللماع الذي معك».

وبشيء من التردد، كأنما يخاف أن يُنهب، وضع الصلبي الريال في راحة يدي بحذر، وشعرت بأنه حاد الأطراف كالريال الجديد، ولكي أتأكد، أضأت عود ثقاب ونظرت إليه عن كثب لقد كان حقاً ريالاً – من نوع ماريا تيريزا – جديداً كأنما خرج من دار السك في تلك اللحظة. وعندما قرّبت عود الثقاب من بقية دراهم الصلبي، اكتشفت خمسة ريالات أو ستة أخرى كانت لها تلك الصّفة المدهشة نفسها.

فسألته: «من أين حصلت على هذه الريالات».

وأجاب: «لقد حصلت عليها بطريقة شريفة يا سيدي، أقسم لك أنني لم أسرقها، فقد أعطانيها مُطَيري منذ بضعة أسابيع بالقرب من الكويت لقد ابتاع مني رحلاً جديداً، لأن رحله كان قد كسر».

فقلت: «مطيري؟ أأنت متأكد».

وأجاب: «إنني متأكد يا سيدي، وقاتلني الله إذا كنت أكذب. لقد كان من رجال الدويش، واحداً من جماعة كانت تقاتل – منذ وقت قصير – ضد أمير حايل. إنني لم أقترف إثماً عندما أخذت منه المال لقاء الرّحل. إنني على ثقة من أن الملك أطال الله عمره سيفهم ذلك».

فأكدت له أن الملك لا يمكن أن يحمل له أي حقد أو ضغينة، فهدأ روعه، وبعد أن وجهت إليه عدداً من الأسئلة تبينت أن كثيراً من الصلب قد قبضوا مثل تلك الريالات الجديدة من صنائع الدويش ثمناً لبضائع أو لقاء الخدمات الصغيرة.

لقد أثبت الصلبي أنه دليل ماهر حقاً. ذلك أنه سار بنا ثلاث ليال في طريق ملتو عبر مناطق الثوار، وفوق امتدادات من الأرض، لا أثر فيها لدرب أو طريق، ولم يسبق لزيد نفسه -وهو الذي كان يعرف تلك الأصقاع جيداً- أن رآها من قبل. وكنا نقضي النهار مختبئين، وكان الصلبي بارعاً في إيجاد أماكن الاختباء التي لم يكن يرقى إليها الشك. ولقد قادنا - مرة - إلى حفرة ماء كانت مجهولة - كما قال لنا - حتى من بدو المنطقة. وشربت إبلنا حتى ارتوت من مياهها المالحة البنية اللون، وكذلك ملأنا قِرَبَنا من جديد. ومرتين - فقط - رأينا جماعات من الاخوان عن بعد، ولكننا لم نسمح لهم برؤيتنا في كلتا المرتين.

وفي صباح اليوم الرابع من التقائنا الدليل أبصرنا بلدة الكويت، فلم نقترب منها من الجهة الجنوبية كما يفعل القادمون من نجد، بل من الجهة الغربية من جهة البصرة كيما يظن كل من يرانا أننا من التجار العراقيين.

وما إن دخلنا البلدة حتى نزلنا في دار تاجر كان زيد قد تعرف إليه في ماضي أيامه عندما كان يخدم في شرطة عقيل العراقية.

كانت الحرارة المزعجة الرطبة تكتنف شوارع الكويت الرملية وبيوتها المبنية من اللبن. وإذ كنت معتاداً على سهول نجد المفتوحة، فقد أخذ العرق يتصبب مني بغزارة، ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت للراحة، ولذا تركنا الإبل في عهدة الصلبي، بعد أن أوصيناه بشدة بأن لا يذكر أمام أحد من أين جئنا، وذهبت مع زيد إلى السوق للقيام بتحرياتنا الأوّلية.

ولما لم أكن أعرف أنا نفسي الكويت، ورغبة مني في أن لا أُلفت الأنظار إلى زيد بوجودي معه، فقد بقيت وحدي قرابة ساعة واحدة، في أحد المقاهي أحتسي القهوة، وعندما عاد زيد آخر الأمر، اتضح لي من مظهره الظافر أنه قد وقف على شيء مهم.

- «دعنا نخرج من هنا يا عمي، فمن الأسهل أن نتحدث في السوق دون أن يسمعنا أحد. ولقد أحضرت شيئاً لك، ولي أيضاً». قال ذلك وأخرج من تحت عباءته عقالين عراقيين من الصوف السميك الليّن المضفور، وأردف: «إنهما سيجعلاننا نبدو وكأننا عراقيان».

لقد تأكد زيد، بعد أن أقام بتحريات دقيقة حذرة، أن شريكاً سابقاً له كان يحترف التهريب في الخليج العربي – الفارسي يعيش الآن في الكويت، وأنه –على ما يبدو– لا يزال يوظف نفسه في مهنته السّابقة.

وقال زيد: «إذا كان هناك شخص يمكنه أن يفيدنا بشيء عن حركة الأسلحة في هذه البلدة فهو (بندر) إنه – مثلي – من شمر، واحد من أولئك الحمقى المجانين الذين لم يسلموا بعد بحكم ابن سعود. ويجب أن لا ندعه يعرف أننا نعمل للملك، وأن لا ندعه يعرف حتى من أين جئنا، ذلك أن (بندر) ليس بأحمق بل هو داهية مكار، ولقد خدعني مرات عديدة في الماضي فلا أثق به الآن».

وأخيراً قادنا البحث عن الرجل إلى بيت في زقاق ضيق على مقربة من السوق. كان طويلاً في الأربعين من عمره تقريباً، تبدو عليه آثار التخمة وسوء الهضم، إلاّ أن وجهه ما لبث أن أضاء بشراً عندما وقعت عيناه على زيد. وبسبب من بشرتي البيضاء فقد قدمني زيد إليه قائلاً إنني تركي أقيم في بغداد وأعمل في تصدير الخيول العربية من البصرة إلى بومبي ثم أضاف: «ولكن تصدير الخيول إلى بومبي تجارة غير رائجة في هذه الأيام، ذلك أن أولئك التجار من عنيزة وبريدة قد احتكروا السوق هناك احتكاراً تاما».

فأجاب بندر: «أعرف ذلك، إن أولئك الجنوبيين من أتباع ابن سعود لم يكفهم أنهم انتزعوا منا بلادنا، فهم الآن عاكفون على حرماننا من مورد رزقنا أيضاً».

فسأله زيد: «ولكن ما قولك بحركة السلاح، يا بندر؟ يبدو أن هنا عملاً كثيراً، لا سيما وأن هؤلاء المطيريين والعجمان جميعاً راغبون في محاربة ابن سعود.

فأجاب بندر هازّاً كتفيه: «لقد كان العمل كثيراً في الماضي فحتى بضعة أشهر خلت كنت أربح مالاً وفيراً من شراء البنادق من شرق الأردن وبيعها لرجال الدويش. أمّا الآن فقد انتهى كل ذلك. انتهى بالكلية. إنك لا تستطيع أن تبيع بندقية واحدة الآن».

فسأله زيد: «وكيف ذلك»؟ الذي أعتقده أن الدويش الآن بحاجة إلى هذه البنادق أكثر من أي وقت مضى».

فردّبندر: «نعم، هذا صحيح. ولكنه يحصل عليها بطريقة لا يمكن لشخص مثلك أو مثلي أن يبيعها به. إنه يحصل عليها في صناديق من وراء البحار، بنادق انكليزية تكاد تكون جديدة لم تمس، ويدفع عشرة ريالات في كل بندقية معها مئتا طلقة.

– «سبحان الله»، كذلك هتف زيد بدهشة صادقة، «عشرة ريالات لبندقية جديدة، وفوقها مئتا طلقة؟ ولكن ذلك مستحيل».

والحق أن ذلك بدا مستحيلاً، ذلك أن البندقية المستعملة من طراز «لي انفيلد» كانت تباع في نجد في ذلك الحين بمبلغ يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ريالاً، دون ذخيرة وحتى لو كانت الأسعار في الكويت أدنى منها في نجد، فإن الفرق الكبير لم يزل موضع الاستغراب غير قابل للتعليل.

وصعّر بندر خده وابتسم قائلاً: «يبدو أن للدويش أصدقاء أقوياء. أصدقاء أقوياء جداً. ويقول بعضهم: إنه سيصبح ذات يوم أميراً مستقلاً في شمال نجد».

فاعترضتُ وقلت: «إن ما تقوله يا بندر جيد وحسن، فلربما استقل الدويش فعلاً عن ابن سعود، ولكنه لا مال لديه، وحتى الاسكندر نفسه ما كان يستطيع أن يشيد لنفسه ملكاً من غير مال» ،فأطلق بندر قهقهة عالية، وقال: «المال؟ إن لدى الدويش كثيراً منه. كثيراً من الريالات الجديدة التي تأتيه معبأة في صناديق، كالبنادق من وراء البحار».

فقلت: «صناديق من الريالات؟ ولكن ذلك غريب جداً. من أين يستطيع بدوي أن يحصل على صناديق من الريالات الجديدة»؟.

فأجاب بندر: «ذلك ما لا أعرفه. ولكني أعرف أنه في كل يوم تقريباً يتسلم بعض رجاله الريالات الجديدة التي تصلهم عن طريق بعض التجار في الكويت وأمس القريب رأيت فرحان بن مشهور، يشرف في الميناء على إنزال هذه الصناديق».

لقد كان هذا خبراً مهماً حقاً. فلقد كنت أعرف (فرحان) معرفة جيدة. كان يمتّ بصلة نسب قوية إلى ذلك الأمير السوري البدوي نوري الشعلان، الذي حارب في ما مضى مع (لورنس) ضد الأتراك. ولقد لقيت فرحان – أول ما لقيته – في سنة ١٩٢٤ في دمشق حيث اشتهر بعربدته وارتياده أماكن اللهو المشبوهة. وبعد ذلك

بقليل اختصم مع عمه نوري فهاجر مع فخذ من قبيلته (الرُّولَه) إلى نجد حيث انقلب فجأة إلى رجل « تقي » وانضم إلى حركة الاخوان. ثم اجتمعت به ثانية سنة ١٩٢٧ في قصر ابن مساعد في حايل، وكان عندئذ قد لبس عمامة الاخوان الضخمة البيضاء رمزاً لاتجاهه الجديد، وكان يتمتع بكرم الملك. وعندما ذكّرته باجتماعاتنا السابقة في دمشق، غيّر مجرى الحديث سريعاً. ومهما يكن فلقد رأى فرحان -وهو الرجل المغفل الأحمق الطموح- في ثورة الدويش فرصة للحصول على إمارة مستقلة خاصة به في (الجوف) - واحة شمالي صحراء النفود الكبرى - ذلك أنه في جزيرة العرب كما في أيٍّ مكان آخر. يتبع الثوار العادة القديمة التي تقضي بتقسيم جلد الأسد قبل قتله.

وسألت بندر: « وإذن فإن فرحان هنا في الكويت »؟

فأجاب: « طبعاً، وهو يأتي إليها بقدر ما يأتي الدويش، ويدخل إلى قصر الشيخ ابن صباح ويخرج منه بحرية تامة، فالشيخ - كما يقولون - يحبه حباً عظيماً ».

فسألته: « ولكن ألا يعترض البريطانيون على مجيء الدويش وفرحان إلى الكويت؟ أذكر أنهم قد أعلنوا منذ بضعة أشهر أنهم لن يسمحوا للدويش أو رجاله بالدخول إلي هذه البقعة ».

فقهقه بندر كرة أخرى: « هكذا فعلوا، هكذا فعلوا، ولكنني قلت لك: إن للدويش أصدقاء أقوياء، إنني لست على ثقة من أنه في البلدة الآن، ولكن فرحان هنا. إنه يذهب كل مساء إلى الجامع الكبير ليؤدي صلاة المغرب، وبوسعك أن تراه هناك بأم عينك إذا كنت لا تصدقني ».

وقد رأيناه فعلاً. فعندما اصطحبنا خادم (بندر)، وأخذنا نتمشى في المساء بجوار الجامع الكبير كدنا نصطدم بجماعة من البدو لم نشك أنهم من نجد، ظهروا فجأة من أحد المنعطفات. وكان على رأسهم رجل في منتصف العقد الرابع من العمر، أقصر قليلاً من البدو الطوال القامة الذين كانوا يحيطون به ويتبعونه، تزين وجهه الجميل لحية قصيرة سوداء. ولقد عرفته حالاً، ولست أعلم، حتى اليوم، ما إذا كان قد عرفني هو بدوره، ذلك أن عينيه التقتا بعيني لحظة،

وبدت عليه أمارات الدهشة كأنه يستعيد ذكريات غامضة، ثم حول وجهه عني، وما لبث – بعد لحظة واحدة – ان اختفى مع بطانته، في جموع الناس التي كانت تتحرك صوب المسجد.

وقد قررنا من ثَمَّ أن لا نمدد إقامتنا المتسترة في الكويت، على غير طائل، انتظاراً لفرصة تمكننا من رؤية الدويش أيضاً، خصوصاً وأن ما باح به (بندر) قد أكّد التحريات البارعة التي أجراها زيد مع عدد من معارفه الآخرين في البلدة. فلقد دلت ذخائر الدويش الخفية من البنادق الانكليزية – التي كانت تشحن على أنها «مشتريات» فحسب – دلت هذه الذخائر بوضوح على تاجر كويتي اشتهر دائماً باستيراد الأسلحة، كما تبيَّن أن المبالغ الكبيرة من الريالات الجديدة التي كانت متداولة في أسواق الكويت كان مصدرها – في كل حالة تقريباً – الدويش ومن حوله من الرجال. لقد حصلنا على الأدلة الكافية لإثبات ظنون الملك التي كان قد عبر عنها أثناء حديثه معي.

واذ كانت مهمتي قد انتهت، فقد خرجنا في الليلة التالية من الكويت خلسة كما كنا قد دخلناها. وكان الصلبي، في أثناء التحريات التي قمت بها وزيداً في السوق، قد عرف أنه لم يكن هناك جماعات من الثوار في الجهة الجنوبية من الكويت في ذلك الحين، وهكذا سرنا نحو الجنوب، باتجاه مقاطعة الأحساء التي كانت في قبضة الملك. وبعد مسير مضن طوال ليلتين لقينا غير بعيد من الشاطئ مجموعة كان قد أرسلها أمير الاحساء لاستطلاع آخر مواقع الثوار، ودخلنا صحبتها إلى الأراضي الموالية للملك. وحالما أصبحنا آمنين ودّعنا دليلنا الصلبي الذي وضع مكافأته الجيدة في جيبه مسروراً وركب نحو الغرب على البعير الذي «أهديته» إليه، بينما أكملنا طريقنا جنوباً باتجاه الرياض.

أمّا سلسلة المقالات التي كتبتها في ما بعد فقد بيّنتْ – لأول مرة – أن الثوار كانت تعضدهم دولة أوروبية كبرى، كما أشارت إلى أن الغاية الرئيسية من هذه الدسائس والمؤامرات إنما كانت إرجاع حدود ابن سعود نحو الجنوب، وتحويل مقاطعته في أقصى الشمال آخر الأمر إلى «ولاية مستقلة» بين المملكة العربية السعودية والعراق، مما يمكّن البريطانيين من بناء خط حديدي عبر أراضيها. وبالإضافة إلى هذا،

فإن ثورة الدويش أتاحت وسيلة رحّب بها الانكليز لإشاعة قدر من الفوضى والاضطراب في مملكة ابن سعود بحيث يصبح في وضع لا يتمكن معه كما فعل حتى ذلك الحين من مقاومة مطالب بريطانيا في الحصول على أمرين مهمين: أحدهما استئجار ميناء رابغ على البحر الأحمر، حيث أراد الانكليز منذ زمن طويل إنشاء قاعدة بحرية. وثانيهما السيطرة على ذلك القسم من الخط الحديدي الحجازي الممتد من دمشق إلى المدينة النبوية، والذي يسير عبر أراضي المملكة العربية السعودية. وإذن فإن هزيمة ابن سعود على يدي الدويش كان من شأنها أن تنقل هذين المشروعين إلى حيز الامكان العملي، ولكن الله شاء غير ذلك.

وسرت موجة من الحماسة إثر نشر مقالاتي في الصّحف الأوروبية والعربية (المصرية منها بصورة خاصة). وليس من المستبعد أن يكون فَضْح هذه الخطط السرية سلفاً قد أسهم إلى حد ما في فشلها بعد ذلك. ومهما يكن، فإن المشروع البريطاني لمد خط حديدي من حيفا إلى البصرة قد أهمل بالرغم من المبالغ الضخمة التي تبين أنها انفقت على التخطيطات الأولية، ولم يسمع به قط مرة أخرى.

أمّا ما حدث بعد ذلك فقد كان ذا أهمية تاريخية. ففي ذلك الصيف نفسه من عام ١٩٢٩، احتج ابن سعود لدى البريطانيين على الحرية التي كانت قد أعطيت للدويش لابتياع الأسلحة والذخائر في الكويت. ولما لم يكن لدى ابن سعود «برهان» حسي على أن دولة أجنبية كانت تمد الدويش بتلك الأسلحة، فإن الملك لم يستطع إلاّ أن يحتج على بيعها فحسب. وقد أجابت السلطات البريطانية بأن التجار في الكويت هم الذي كانوا يُموّنون الثوار بالأسلحة، وأن البريطايين لم يكونوا قادرين على أن يفعلوا شيئاً لإيقاف ذلك، لأنهم في معاهدة جدة سنة ١٩٢٧ كانوا قد رفعوا الحظر عن استيراد الأسلحة إلى جزيرة العرب. وعندما اعترض ابن سعود بقوله: إن تلك المعاهدة نفسها كانت توجب على كل من بريطانيا والمملكة العربية السعودية أن تمنعا في أراضيهما كل نشاط موجه ضد سلامة الفريق الآخر، تلقى الجواب بأن الكويت لا يمكن أن تسمى «أراضي بريطانية» على أساس من أنها كانت مشيخة مستقلة لم تكن تربطها ببريطانيا سوى علاقات تعاقدية.

وهكذا استعرت الحرب الأهلية. ففي أواخر خريف سنة ١٩٢٩، نزل ابن سعود بنفسه إلى الميدان مصمماً هذه المرة على أن يطارد الدويش حتى داخل الكويت فيما إذا بقيت مفتوحة للثوار ملجأ وقاعدة لعملياتهم الحربية. وتجاه هذا الموقف الحازم الذي تعمد الملك ابن سعود إبلاغه إلى السلطات البريطانية، أدركت هذه - كما ظهر - أن من المغامرة أكثر مما ينبغي الاستمرار في لعبتها. وهكذا أرسلت الطائرات والسيارت المصفحة البريطانية لمنع الدويش من التراجع مرة أخرى إلى أراضي الكويت، وأدرك الثائر أنه خسر قضيته وأنه لم يعد باستطاعته مطلقاً الصمود في وجه الملك في معركة ظاهرة، فشرع في المفاوضة، غير أن شروط الملك كانت قاطعة واضحة: يجب أن تستسلم القبائل الثائرة، وأن تجرّد من أسلحتها وخيولها وإبلها. أمّا الدويش فيُبقى على حياته، ولكنه يجب أن يقضي بقية أيامه في الرياض.

ولكن الدويش بما فطر عليه من النشاط والحركة، لم يشأ أن يستسلم للركود والجمود، فرفض العرض. وبعد معركة حارب فيها الثوار - حتى آخر نفس - ضد قوات الملك الساحقة، دُحروا نهائياً وهرب الدويش مع قليل من القواد الآخرين - من بينهم فرحان بن مشهور ونايف أبوكلاب (زعيم العجمان إلى العراق).

وطلب ابن سعود تسلم الدويش، فرفض فيصل ملك العراق طلبه بعض الوقت، متذرّعاً بالقاعدة العربية التي تقضي بإكرام الضيف وحماية الملتجئ، ولكنه وافق أخيراً على تسليمه، وتم ذلك في أوائل سنة ١٩٣٠. وأُرسل الدويش إلى الرياض بينما كان يعاني مرضاً خطيراً. وعندما اتضح بعد بضعة أسابيع، أنه كان حقيقة على شفا الموت هذه المرة، أرسله ابن سعود - بكرمه المعتاد - إلى أهله في الأرطاوية، حيث انتهت حياته العاصفة هناك ومرة أخرى عاد السلام يرفرف في ديار ابن سعود.

ومرة أخرى عاد السلام يرفرف حول آبار (عَرْجا).

- «حياكم الله يا أهل الطريق، شاركونا في نعمتنا».

هكذا نادى البدوي الشيخ من مطير، وهكذا ساعدنا رجاله على سقي جمالنا. لقد بدا أن جميع خصومات الماضي القريب وأحقاده قد نُسيت وكأنها لم تكن أبداً.

ذلك أن البدو قوم متقلبون؛ إنهم سريعاً ما يلتهبون بانفعال لا حدَّ له، وسريعاً ما يعودون إلى رتابة حياتهم التي يسودها اللطف والتواضع؛ الجنة والنار متجاورتان أبداً.

-٣-

وفي الليلة الخامسة من مغادرتنا حايل، وصلنا إلى سهل المدينة النبويّة، ورأينا جبل أُحُد المظلم. وكانت الإبل تتحرك بخطى ثقيلة، فقد سرنا طويلاً منذ الصباح الباكر حتى ذلك المساء، أمّا زيد ومنصور فقد كانا صامتين، وكنت أنا صامتاً كذلك، وأمّا المدينة فقد ظهرت أمامنا في ضوء القمر تتقدمها مآذن مسجد النبي ﷺ.

ووصلنا إلى الباب الذي يسمى (باب الشام) بسبب من مواجهته الشمال، ونفرت المطايا أمام ظلال أبراجه الثقيلة، فكان علينا أن نستعمل عصيّنا لحملها على الدخول من الباب.

وإذن فقد عُدْت ثانية إلى مدينة النبي ﷺ إلى منزلي بعد سفر طويل، ذلك أن هذه المدينة كانت منزلي طيلة سنوات عدة، وكان الصمت العميق المألوف يخيم على شوارعها الخالية الناعسة. وهناك كان كلب ينهض متكاسلاً أمام قوائم الإبل وكانت مشربيات البيوت تتدلى سوداء صامتة فوق رؤوسنا، كما كان الهواء دافئاً كالحليب الطّازج.

ووجدنا أنفسنا أمام بيتي.

وودَّعنا منصور بغية الذهاب إلى بعض أصدقائه، بينما أنخنا راحلتينا أمام الباب، وعقلهما زيد دون أن ينطق بكلمة، ثم شرع في إنزال الخرجين عن ظهريهما. طرقت الباب، وسمعت - بعد قليل - أصواتاً وخطى في الداخل، وظهر من شراعة الباب نور مصباح، ثم سُحِب المزلاج وهتفت أمينة، خادمتي السودانية العجوز، بفرح وبشر:

-«الحمد لله لقد عاد سيدي إلى بيته».

مَثَلُ الدَّجَّال

-١-

كان الوقت عصراً، وكنت جالساً مع صديق لي في حديقة نخيله خارج سور المدينة النبوية بالقرب من باب قباء وكانت أشجار النخيل الكثيرة في الحديقة لا تزال صغيرة منخفضة الارتفاع، ونور الشمس يرقص فوق جذوعها وعقودها التي تشكلها أغصانها. كانت خضرتها مغبرة بسبب من العواصف الرملية التي تحدث يومياً تقريباً في مثل هذا الوقت من السنة.

كانت السماء مضاءة بنور الأصيل اللاهب، وكانت المدينة تستحم بضياء أزرق، وتلعب ريح عالية حول الغيوم. في جزيرة العرب لا تستطيع أن تقول: «إن السماء ملبدة بالغيوم، وسريعاً ما تمطر». ذلك أنه حتى ولو تلبدت الغيوم وكأنها حبلى بالمطر، فكثيراً ما يحدث أن تأتي زمجرة قوية من الرياح فجأة من الصحراء فتبددها تبديداً، فيدير الناس الذين طالما انتظروا المطر وجوههم باستسلام ويتمتمون: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله» بينما تتقد السماء من جديد بصفاء من الضياء الأزرق.

وبعد فترة قليلة ودّعت صديقي وسرت مشياً نحو باب المدينة الخارجي. ومر بي رجل يسوق حمارين محملين بالبرسيم، وكان هو نفسه يركب حماراً ثالثاً، ورفع الرجل عصاه وحياني قائلاً: «السلام عليكم»، فأجبته «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» ثم لقيت صبيّة بدوية تغطّي أسفل وجهها بالحجاب. كانت عيناها البراقتان سوداوان، كما كانت خطواتها شبيهة بخطوات غزلان البر. ودخلت المدينة واجتزت الساحة العظيمة المكشوفة المسماة بالمناخة، إلى سور المدينة الداخلي. ومن وراء الباب المصري الذي يجلس تحت قوسه الصرافون يخشخشون بنقودهم الذهبية والفضيّة، دخلت إلى السوق الكبير - وهو شارع لا يتجاوز عرضه عشرة أذرع - مليء بالدكاكين.

وكان الباعة يمتدحون بضائعهم بنداءات بهيجة. وكانت العمائم زاهية الألوان، والشالات والأردية الحريرية المنقوشة من صوف كشمير تجذب أنظار المارة، وصائغوا الفضة يجلسون القرفصاء خلف صناديق من الزجاج فيها جواهر بدوية؛ أساور وخلاخل وعقود وأقراط، وباعة الروائح العطرية يعرضون أجرانا مليئة بالحناء، وأكياساً صغيرة حمراء مليئة بالكحل وقوارير متعددة الألوان مليئة بالزيوت والعطور، وأكواماً من أنواع الطيب المختلفة. وكان التجار من نجد يبيعون الألبسة البدوية والرّحال والأخراج الحمراء والزرقاء الطويلة الأهداف من شرقي الجزيرة. وجرى أحد الباعة راكضاً عبر الشارع، ينادي بأعلى صوته، وفي يده سجادة عجمية وعباءة من وبر الجمل فوق كتفه وابريق نحاسي كبير تحت إبطه. وكان حشد من الناس يسيرون في الاتجاهين؛ أناس من المدينة ومن سائر جزيرة العرب، وبما أن وقت الحج قد انقضى منذ وقت قليل كان هناك أناس من جميع الأقطار الواقعة بين سهول السنغال وسهول (قيرخيز)، بين جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلسي، بين (استراخان) وزنجبار. بيد أنه بالرغم من هذا الخليط من الناس، وبالرغم من ضيق الشارع، فإن أحداً لم يكن ليرى أيّ تدافع ولا تزاحم ولا تصادم، لأن الوقت في المدينة لا يطارد الناس.

ولكن ما يبدو أغرب وأعجب هو أنه، بالرغم من ذلك التعدد العظيم في الأنواع والعادات البشرية التي تملأ شوارع المدينة، فليس فيها شيء من الاختلاط المستغرب، فتعدد المظاهر يتكشف فقط للعين التي تراه للمرّة الأولى. ويبدو لي أن كل الناس الذين يعيشون في هذه المدينة، سريعاً ما يصبح لهم ما يمكن أن يسمى بالمزاج المشترك، وبالتالي السلوك المشترك، والتعبير الوجهي المشترك، ذلك أنهم جميعاً قد جذبتهم شخصية النبي ﷺ الذي كانت هذه المدينة مدينته، والذين هم ضيوفها الآن.

وبالرغم من أن المحافظة على سنة النبي ﷺ في المدينة بعد القرون المفضلة قد ضعفت كما هي الحال في بقية أجزاء العالم المسلم الأخرى، فإن صلة عاطفية بماضيها العظيم قد بقيت حيّة حتى يومنا هذا. ليس هناك من رجل – مضى على وفاته أكثر من ألف وثلاثمئة سنة – قد أصاب من الحب مثلما أصاب محمد ﷺ الذي يرقد في بيت عائشة رضي الله عنها.

ومع ذلك فإنه لم يدّع يوماً إلاّ أنه بشر، ولم ينسب علماء المسلمين إليه الألوهية قط كما فعل الكثيرون من أتباع الأنبياء الآخرين بعد وفاة نبيهم - والقرآن يزخر بكلمات الله التي تؤكد بشرية محمد ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿**وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾؛ وتؤكد عجز النبي ﷺ المطلق تجاه العزة الإلهية، قال تعالى: ﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾.

ولا ريب في أن من حوله أحبوه هذا الحب وهم يعلمون أنه لم يكن سوى بشر أوحى الله إليه عاش كما يعيش سائر الناس، يتمتع بطيّبات الحياة الدنيا ويعاني آلامها، كما فعل عيسى وموسى ومن قبلهم من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، قال الله تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**﴾.

-٢-

دخلت الأزقة الملتوية في أقدم قسم من المدينة. ووجدت نفسي أمام الواجهة الحجرية الشهباء للمكتبة التي بناها عارف حكمت التركي منذ مئة عام، وقد خيم على فنائها صمت يغري المرء بولوجها؛ فسرت فوق أرض فنائها المرصوفة بالحجارة، واجتزت الشجرة الوحيدة التي انتصبت في وسطه، ثم دخلت القاعة التي صفت فيها خزائن الكتب المغطاة بالزجاج، ألوف من الكتب المخطوطة بينها مخطوطات نادرة. وإذ أخذت أتطلع إلى تلك الكتب المغلفة بالجلد، أُخِذْت بهول الفرق بين مسلمي الأمس ومسلمي اليوم.

- «ماذا يؤلمك يا بني»؟ واستدرت نحو الصوت، فرأيت صديقي الشيخ عبدالله بن بليهد جالساً بين مشربيتين وعلى ركبتيه مجلد كان يقرأ فيه. ورحَّبتْ بي عيناه الحادتان الساخرتان بحرارة، بيما قبّلت جبهته وجلست إلى جانبه. إنه أحد كبار علماء نجد، ومن أذكى العلماء الذين عرفتهم في العالم المسلم. وصداقته لي قد أسهمت إلى حد كبير في جعل حياتي في الجزيرة العربية يسيرة بهيجة. ذلك أن

كلمته في مملكة ابن سعود كانت مسموعة. وقد أغلق الشيخ الكتاب ثم قربني إليه ونظر إليَّ مستفهماً، فقلت:

- «لَكَم ابتعدنا نحن المسلمين عن هذا» وأشرت إلى كتب العلوم الشرعية فوق الرفوف.

فأجاب الشيخ: «يا بني، إننا لا نحصد إلاّ ما زرعنا.

إن علوم وحي الله وشرعه هي التي جعلنا الله بها عظماء في الماضي. لقد كنا حملة رسالة، وكانت أفئدتنا بصيرة ما بقينا أمناء على حمل تلك الرسالة. ولكن ما إن نسينا الغاية التي من أجلها خلقنا الله حتى هوينا وابتعدنا كثيراً عن هذا» - وكرر اشارتي إلى الكتب - «لأننا بدأنا نبتعد عن سنة النبي ﷺ منذ عشرة قرون».

وبعد صمت قليل عاد فسألني قائلاً: «وإلى أين وصلت في عملك»؟. فقد كان يعرف أنني كنت منصرفاً إلى بعض الدراسات المتصلة بالتاريخ، تاريخ الإسلام القديم.

- «أعترف، يا شيخ، بأنني لا أتفرغ له كثيراً هذه الأيام، إنني لا أستطيع أن أجد راحة في فؤداي ولست أعرف لهذا سبباً. وهكذا تراني قد نزعت من جديد إلى الهيام في الصحراء».

ونظر إليَّ الشيخ بعينين باسمتين - تينك العينين الثاقبتين - وهو يعبث بلحيته المصبوغة بالحناء: «إن للعقل حقه كما أن للجسم حقه، تزوّج».

وقد كنت أعرف أن الزواج في نجد هو الحل الأول لكل مشكلة، فلم أستطع أن أمسك ضحكتي.

- «ولكنك تعلم يا شيخ، أنه لم يمض على زواجي ثانية سوى عامين، وأنه قد ولد لي غلام هذا العام».

فهز الشيخ كتفيه وقال: «إذا وجد الرجل مع زوجته السعادة فإنه يلازم بيته ما استطاع إلى ذلك من سبيل، وأنت لا تلازم بيتك بمثل هذا المقدار، وفضلاً عن ذلك فإنه ما من رجل حتى الآن قد ضرّه أن يبني بزوجة ثانية».

فقلت: «قد لا يضر الرجل أن يبني بزوجة ثانية، ولكن ما قولك في الزوجة الأولى؟ ألا يؤذيها ذلك».

- «إذا ملكت المرأة فؤاد الرجل، فإنه لا يفكر في الزواج مرة أخرى. ولكن إذا لم تستحوذ على قلبه فما الفائدة إذا احتفظت به لنفسها».

والحق أنني لم أجد ما أجيب به عن هذا السؤال. إن الإسلام يسمح للرجل أن ينكح من النساء اثنتين أو ثلاث أو أربع بشرط العدل بينهن.

إن الحرية التي تمنحها الشريعة الإسلامية لعقد الزواج أو حل هذا العقد بلا تعقيد يجعل فاحشة الزنى من أقبح المعاصي. ذلك أنه تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لا يمكن أن يكون هناك عذر للوقوع في حبائل العاطفة والشهوة.

وقطع الشيخ ابن بليهد عليَّ تأملاتي بنظرة عارفة، وقال: «لا حاجة بك إلى اتخاذ قرار عاجل، فلن يصيبك إلاّ ما كتب الله لك».

-٣-

كان الصمت يخيّم على المكتبة، وكنت مع الشيخ ابن بليهد وحدنا في قاعة الكتب. ومن مسجد النبي ﷺ على بعد خطوات من المكتبة نودي لصلاة المغرب.

وقال الشيخ ابن بليهد: «تعال، لنذهب إلى المسجد لنصلّي مع الجماعة».

كانت الصفوف الطويلة من السجاد مفروشة على حصباء المربع المكشوف داخل المسجد. وقد جلس عليها صفوف من الرجال يَتْلُون القرآن أو يتحدثون، يتفكرون أو يستريحون، ريثما يؤدون صلاة المغرب. وكان ابن بليهد مستغرقاً في دعاء خافت.

وسمعت صوتاً يتلو السورة السادسة والتسعين، أول ما أوحي إلى النبي ﷺ من القرآن: ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾، وإنما بهذه الكلمات أرسل الله نداءه الأول إلى محمد ﷺ في غار حراء قرب مكة، وعمره أربعون سنة.

لقد كان يتعبد منفرداً كما فعل مراراً قبل ذلك طلباً للهداية والحق عندما رأى فجأة مَلَكاً يظهر أمامه فيأمره: ﴿**إقرأ**﴾ وإذ كان محمد، شأن معظم أبناء بيئته، لم

يتعلم القراءة فقد أجاب: «ما أنا بقارئ» وعندئذ ضمه الـمَلَك إلى صدره ضمة شديدة شعر محمد معها أنه فقد كل قوته، ثم أرسله وأعاد عليه الأمر: ﴿**إقرأ**﴾، فأجاب محمد مرة أخرى: «ما أنا بقارئ»، فأخذه الـمَلَك وضمّه ثانية بقوة إلى أن ظن أنّه هالك، ومرة أخرى جاء صوت الـمَلَك: ﴿**إقرأ**﴾، وعندما أجاب محمد للمرة الثالثة والألم آخذ منه كل مأخذ: «ما أنا بقارئ»، أرسله الـمَلَك وقرأ:

﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ إلى آخر السورة.

وهكذا بدأ تنزيل القرآن، ذلك التنزيل الذي استمر ثلاثاً وعشرين سنة، حتى وفاة النبي ﷺ في المدينة وله من العمر ثلاث وستون سنة.

فعاد إلى بيته في مكة، ونادى زوجته خديجة قائلاً: «دثروني دثروني»، وذلك أنه كان يرتجف كالغصن في مهب الريح، فدثرته حتى خف عنه الرّوع. وعندئذ قص عليها ما حدث له وقال: «إني لأخشى على نفسي». ولكن خديجة أجابت: «والله لن يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتعين على نوائب الحق»، ولكي تطمئنه ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل؛ وكان يقرأ التوراة بالعبرانية، وقالت خديجة: «يا ابن عم، استمع لابن أخيك فلما فرغ محمد من إعادة قصته قال ورقة: «هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعاً! ليتني أكون حياً إذا أخرجك قومك»! فسأله محمد وقد استولى عليه الدهش: «أو مخرجي هم»؟ فأجاب ورقة: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عودي».

وقد عادَوْه ثلاث عشرة سنة، حتى هاجر أخيراً من مكة إلى المدينة، لقد كان المكّيّون قساة القلوب، فما آمن به منهم إلاّ قليل.

ولكن، هل من الصعب أن نفهم قسوة القلب التي أظهرها معظم المكيين عندما سمعوا لأول مرة بدعوة محمد؟ لقد كانوا مجردين من العلم، ولم يكونوا يرون حاجة لإصلاح حياتهم إلاّ من طريق زيادة الرفاهية المعيشية، وما كانوا ليطيقوا احتمال التفكير بوجوب إسلام أنفسهم إسلاماً كلياً خالصاً لله.

وعندما بدأ محمد ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى، وأعلن أن عبادة الأصنام والأوثان أعظم الآثام؛ رأوا في ذلك هجوماً على معتقداتهم الوثنية وتقاليدهم الجاهلية.

ولكن هكذا كان حال الأنبياء والرّسل من قبل، قال الله تعالى: ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾. وهكذا كان استقبال الأمم رسالات الله من قبل، قال الله تعالى: ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا** ﴾.

وما أن انتهت صلاة المغرب حتى صار الشيخ (ابن بليهد) محور دائرة بدوٍ وحضرٍ من النجديين الرّاغبين في علمه بينما كان هو نفسه يتوق إلى سماع ما يمكن للناس أن يقصّوا عليه من خبر أسفارهم في الأصقاع النائية، فالأسفار الطويلة ليست شيئاً غير عادي عند النجديين. إنهم يسمون أنفسهم «أهل الشّداد» فالحق أن معظمهم قد ألفوا الرحل أكثر مما ألفوا فرشهم في بيوتهم. ولا بد أن الرّحل كان مألوفاً أكثر من الفراش لدى البدوي الشاب من قبيلة (حرب)، الذي أتمَّ منذ لحظة سرده على الشيخ ما كان قد حدث له أثناء رحلته الحديثة إلى العراق حيث رأى، لأول مرة الفرنج.

– «قل لي يا شيخ، لماذا يلبس الفرنج دائماً القبعات التي تظلل عيونهم»؟.

فأجاب الشيخ وهو يغمز لي: «لعلهم يخشون أن تذكّرهم رؤية السماء بالله، وهم لا يحبون أن يُذكَّروا بالله في غير أيام السبت والأحد».

وضحكنا جميعاً. ولكن البدوي الشاب أصر على معرفة المزيد: «إذن لماذا نرى الله يغدق من كرمه عليهم فيعطيهم الثروة والمطر والرزق».

– «الجواب في كتاب الله يا بني، قال الله تعالى: ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدُّنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾. المرء مخلوق للآخرة وفيها السَّعادة الأبدية التي لا تليق إلاّ بالمؤمنين. أمّا الدّنيا فليست غير ممرّ واختبار وتمحيص، وهي جنة الكافر كما قال النبي ﷺ ﴾.

ولكن صديقي هذا – ووضع الشيخ يده على ركبتي – يعرف عن الفرنج أكثر مما أعرف أنا، ذلك أنه كان منهم، ولكنَّ الله تعالى أخرجه من الظلمات والكفر إلى نور الإسلام».

فسألني البدوي الشاب المتلهف: «هل صحيح، يا أخي أنك كنت نفسك فرنجياً»؟ وعندما أومأت له برأسي أن نعم، قال هامساً: «الحمد لله»، الحمد لله الذي يهدي من يشاء. قل لي، يا أخي، لمَ الفرنج غافلون عن الله إلى هذا الحد»؟.

فأجبت: «إن هذه قصة طويلة لا تروى في بضع كلمات. وكل ما أستطيع أن أقوله لك الآن أن العالم الصناعي صار مثل الدجال الذي يأتي يوم تتبعه فيه معظم شعوب الأرض، اعتقاداً بقدرته على النفع والضرّ.

وعندما رأيت نظرات التساؤل في عينيه، قصصت عليه، وأمارات الموافقة بادية على وجه ابن بليهد، خبر الدجال، الذي يكون أعور، إلاّ أنه يتمتع بقوة خارقة للعادة ينعم بها الله عليه فتنة لعباده. وهو يسير حول الأرض في أيام، وتتبعه كنوز الأرض من الذهب والفضة، ويُنزل الغيث ويُنبت الزرع بأمر الله، ويُميت ويُحيى بأمر الله، حتى يعتقد فاقدوا الإيمان أنه هو الله فيخرون له ساجدين، ولكن أقوياء الإيمان يهديهم الله بإيماهم؛ فيعرفون أنه ليس إلاّ وهماً وفتنة لامتحان الإنسان: أيشكر أم يكفر.

وبينما نظر إليَّ صديقي البدوي بعينين مفتوحتين وتمتم: «أعوذ بالله»، التفتُّ إلى ابن بليهد، وقلت:

– «أليس مَثَلُ المدنية الصناعية كمثل الدّجّال؟ إنها «عوراء» تنظر إلى الدّنيا ولا تهتمّ إلاّ بها غافلة عن الآخرة وإن الخبرة العلمية لتيسّر حراثة الأرض وسقيها وتحسن انتاج المحاصيل والثمار، وتكشف من تحت الأرضعن كنوز لا تخطر ببال، ويُعيد دواؤها الحياة إلى من يبدو وكأنه مقضيّ عليه بالموت، بينما تبيد حروبها وأهوالها العلمية الحرث والنسل. وإن إنتاجها الماديّ من القوة والبريق بحيث أن فاقدي الإيمان يذكرونها وينسون الله الذي خلقها وخلقهم.

- «صدقت يا محمد، صدقت، إنك تقول الحقّ! فبدلاً من أن يدركوا أن تطوّر معرفة الإنسان هبة من الله، فإن أكثر المسلمين - فضلاً عن غيرهم - صاروا يردّون كلما يحدث في الكون من خير أو شرّ إلى تدبير الدّول الصناعية وتخطيطها.

-٥-

وساد الصمت دقائق، ثم عاد الشيخ إلى الكلام فقال: «هل مثل هذا الإدراك لحقيقة المدنيّة الصّناعية هو الذي جعلك تعتنق الإسلام، يا بنيّ»؟.

- «بل هو إدراك تدريجيّ أوسع لِفَشل تنشئتي الدينيّة والدنيوية في الوصول بي إلى تحقيق غاية وجودي وسعادتي.

- «لقد أخبرتني مرة عن طريقك إلى الإسلام، ولكن متى تبين لك أن الإسلام سيكون غايتك»؟.

- «أعتقد أن ذلك كان في يوم من أيام الشتاء في أفغانستان عندما فقد جوادي حُذْوة، فذهبت إلى حذّاء في قرية غير بعيدة عن طريقي، وهناك قال لي رجل: «ولكنك مسلم إلا أنك لا تدرك ذلك». كان ذلك قبل ثمانية أشهر تقريباً من اعتناقي الإسلام.

كنت في طريقي من «هراة» إلى «كابل» في أواسط أفغانستان، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٥، بعد حوالي عامين من التّنقل في إيران وأفغانستان، وكان بصحبتي خادم وجندي أفغاني عبر الوديان المغمورة بالثلج في جبال هندوكوش في أواسط أفغانستان، كان الجو بارداً والثلج يتلألأ، والجبال الشامخة منتصبة من كل جانب.

وقد كنت حزيناً ذلك اليوم، وفي الوقت نفسه تغمرني موجة غريبة من السعادة. كنت حزيناً لأنه خيل إليّ أنّ حُجُباً صفيقة كانت تفصل بين الناس الذين عشت بينهم بضعة أشهر وبين النور الذي جاء به دينهم. وكنت سعيداً لأن نور ذلك الدين كان قريباً مني قرب تلك الجبال الشامخة التي أكاد ألمسها بيدي.

وبدأ حصاني يعرج، وسمعت صلصلة عند حافره، لقد أفلتت حُذْوته أو كادت. ولـمّا سألت رفيقنا الأفغاني قال: «إن (ده زانجي) قريبه، وسنجد فيها حذّاءً، وكذلك فيها قلعة حاكم منطقة (هزاراجات) ».

واتجهنا فوق الثلج المتلألئ ببطء -كي لا يصاب جوادي بالأذى- صوب (ده زانجي).

كان حاكم المنطقة شاباً قصير القامة على محيّاه أمارات المرح والبهجة، سُرّ باستضافة رجل غريب يقطع رتابة حياته في قلعته المتواضعة. ومع أنه كان يمت بصلة نسب قوية إلى الملك (أمان الله)، فقد كان من أكثر الرجال الذين لقيتهم في أفغانستان تواضعاً. وألحّ عليّ أن أبقى معه طيلة يومين.

وفي مساء اليوم الثاني جلسنا -كالعادة- إلى مائدة سخية، وبعد ذلك غنّى لنا رجل من القرية الأغاني البلدية. كان يغني بلغة (بشتو) التي لم أكن أ فهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية التي كان ينطق بها اندفعت بقوة عَبْر الغرفة الدافئة المفروشة بالسجاد، وكان بريق الثلج البارد يلج علينا من النوافذ. كان يغنّي عن قتال داود وجالوت، صراع قوة الإيمان ضد القوة الحيوانية. وبرغم أنني لم أستطع أن أتتبع كلمات الأغنية فقد فهمت موضوعها، وقد بدأَتْ في وداعة، ثم ارتفعَتْ في نبرة عنيفة من الألم، وانتهت إلى صيحة من الظفر والانتصار.

وعندما انتهت الأغنية تكلم الحاكم فقال: «لقد كان داود ضعيفاً، ولكن إيمانه كان عظيماً».

ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أضيف: «وأنتم كثيرون، ولكن إيمانكم ضعيف».

ونظر إليّ مضيفي دهشاً. أما أنا فقد ارتبكت لما صدر مني دون إرادة تقريباً، وأسرعت إلى تفسير ما قصدت إليه، وذلك بتوجيه سيل جارف من الأسئلة:

- «كيف حدث أنكم أيها المسلمون فقدتم ثقتكم بأنفسكم، تلك الثقة بالنفس التي مكنتكم في الماضي من نشر دينكم في أقل من مئة عام، من جزيرة العرب حتى الأطلسي غرباً وإلى أعماق الصين شرقاً. إنكم اليوم تسلمون أنفسكم بمثل هذه

السهولة ومثل هذا الضعف إلى أفكار الغرب وتقاليده وعاداته؟ لماذا لا تستطيعون -وأنتم الذين أنار أجدادكم العالم بالعلم والإيمان، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في البربرية والجهل- ؛أن تستجمعوا شجاعتكم للعودة إلى دينكم القويم، وكيف حدث أن أتاتورك، ذلك الذي أدار ظهره للإسلام وجعل غايته تقليد الأوروبيين، صار في نظركم -أنتم المسلمين- رمز التقدم والتطوّر؟.

وظل مضيفي صامتاً، بينما أخذ الثلج يتساقط في الخارج. ومرة أخرى شعرت بتلك الموجة من مزيج الحزن والسعادة التي كنت شعرت بها لدى اقترابي من (ده زانجي).

وأردفت: « قل لي، كيف حدث أن وحي ربّكم بكل ما فيه من البساطة والوضوح، قد دفن تحت أنقاض البدع والخرافات والفلسفات والطقوس المنقولة من أديان الضّلال؟.

وكان مضيفي لا يزال يحدق فيّ دون أن ينطق بكلمة، وخشيت أن ثورتي قد أغاظته، بينما أخذ العجب مُغَنّيه -وكان لا يعرف الفارسية جيداً بحيث يفهم ما أقول- لرؤيته غريباً يتحدّث إلى الحاكم على هذا النحو. وأخيراً أحكم وليّ أمره لفّ نفسه بعباءته الواسعة الصفراء كأنما كان يشعر بالبرد، ثم همس:

- « ولكن، أنت مسلم ».

فضحكت وأجبت: « كلا، إنني لست مسلماً، ولكنني رأيت في الإسلام كلّ العظمة والحكمة بحيث تغضبني رؤيتكم تضيعونه. سامحني إذا كنت قد تكلمت بجفاء، فأنا لا أقصد إلا الخير.

فهز مضيفي رأسه وقال: « كلا، إن الأمر هو كما قلتَ. وأنت مسلم، ولكنك لا تعرف ذلك. لماذا لا تقول الآن وفي هذا المكان: « أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله »، فتصبح مسلماً في ظاهرك كما أنك مسلم في داخلك! قلها يا أخي، قلها الآن، أذهب معك غداً إلى كابل وآخذك إلى الأمير فيستقبلك بذراعين مفتوحتين ويعدّك واحداً منا. قلها يا أخي ».

- «إني إذا قلتها يوماً، فسأقولها لأني مطمئن إليها، لا من أجل الأمير ولا من أجل مخلوق سواه».

فألحّ قائلاً: «ولكنك تعرف الآن عن الإسلام أكثر مما يعرفه معظمنا عنه».

- «ليست المسألة مجرّد معرفة بل يقين، يقين بأن القرآن هو حقاً كلام الله وأن سنة نبيه محمد مثل القرآن وحي من الله».

ولكن كلمات مضيفي الأفغاني لم تفارقني طيلة الأشهر التي تلت.

ومن كابل ركبت عدّة أسابيع قاطعاً جنوبي أفغانستان، عبر مدينة (غزنة) -التي خرج منها (محمود بن سبكتكين) منذ تسعمائة سنة تقريباً ليغزو الهند، عبر الصحارى في جنوب غرب أفغانستان، ومنها عُدت إلى (هراة) من حيث بدأت رحلتي في أفغانستان.

وفي عام ١٩٢٦، وفي أواخر الشتا، غادرت (هراة) وبدأتُ المرحلة الأولى من رحلتي الطويلة إلى (أوروبا). كان عليّ أن آخذ القطار من حدود الأفغان إلى (مرو) في (تركستان) الرّوسية فسمرقند فبخارى فطشقند، وعبر سهول (تركمان) الواسعة إلى جبال (الأورال) فموسكو.

وشعرت بالفرح عندما اجتزت الحدود البولندية بعد أسابيع من التجوال في روسيا الآسيوية والأوروبية الملحدة، واتجهت مباشرة إلى (فرانكفورت) حيث مَثُلْت في دائرة اختصاصي التابعة لصحيفتي. وقد وجدت أن اسمي قد اشتهر وأنني صرت أُعدُّ واحداً من أبرز مراسلي صحف أوروبا الوسطى في الخارج، وأنّ بعض مقالاتي لفت أنظار المستشرقين ولقي أكثر من مجرد تقدير عابر، فَدُعِيتُ إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في الأكاديمية الجغرافية السياسية في برلين، حيث قيل لي أنه لم يسبق لأحد في مثل سنّي أن مُنِح هذا الامتياز. وكانت صحف كثيرة أخرى قد استأذنت (فرانكفورتر تزايتونك) في إعادة نشر بعض المقالات، وقيل لي أن أحد هذه المقالات نشر ثلاثين مرة. والخلاصة أن رحلتي أعطت أينع الثمار.

وفي ذلك الحين تزوجت (إلسا)، وبفيض من السعادة لم أعهده من قبل بدّدتُ جميع المخاوف التي ساورتها من الفارق في السنّ بيننا.

وكانت (إلسا) تعرف ما كنت أبحث عنه عندما كنت أتكلم معها عن الإسلام. وبالرغم من أنها ربما لم تكن تشعر بمثل ذلك الدافع الملحّ الذي كنت أشعر به، فإن حبّها جعلها تشاركني في ما كنت أبحث عنه.

كنا كثيراً ما نجلس فنقرأ ترجمة للقرآن معاً حتى صارت أكثر تأثّراً بذلك الالتئام بين توجيهات القرآن الاعتقادية وتوجيهاته العملية. إن الله قد خاطب العقل بالقرآن؛ إنه لم يقل: إن الطريق إلى الهداية يتطلب تحرير الروح من قيود الجسد. إن إنكار الغرائز وإماتة الذات في الوثنية الهنديّة وعند من قلّدها من أهل الكتاب ليست من دين الله، فلا رهبانية في الدين الحق. وإرادة الإنسان التمتّع بنعم الله أقرّها الإسلام غريزة إيجابية مثمرة يثاب عليها، وتضمنتها أحكامه في النكاح والبيوع والإرث، ونحو ذلك. والإنسان قد عُلّم في الحقيقة: «إن عليك أن تحيا وأن تستفيد وتفيد من حياتك إلى أقصى حدود استطاعتك».

لقد أخذت الآن شريعة الإسلام تظهر لي بطريقة أذهلتني أحياناً. لقد كانت تكتمل في عقلي دون جهد واعٍ من قبلي لأنْ أجمع وأُنسِّق العديد من قطع المعرفة التي اعترضت طريقي في السنوات الأربع الماضية. لقد رأيت أمامي بناءً كاملاً، تُتِمّ بعض عناصره بعضاً بطريقة متكاملة؛ اتزان وسكينة يضفيان على الباحث المنصف شعوراً بأن كل ما في عقيدة الإسلام وأحكامه في محله.

منذ ثلاثة عشر قرناً وقف محمد وقال ما معناه: «لست سوى بشر، ولكن الله الذي أوجد الكون قد أوحى إليّ أن أحمل رسالته إليكم. فلكي تعيشوا بصورة تتلاءم مع غاية وجوده، أمرني الله أن أذكّركم بأنّه بخلقه كلّ مخلوق، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل أمر، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وبأن أضع أمامكم منهاجاً للعمل في الحياة فإذا قبلتم هذا المنهاج فاتّبعوني يحببكم الله ويرضى عنكم». تلك كانت زبدة رسالة محمد ﷺ، وهي نفسها زبدة رسالة كلّ الرّسل من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومع أن رأس الأمر في الإسلام: الإيمان بأن الله وحده هو المستحقّ للعبادة وأن الله لا يغفر أن يُشْرَك به أحد ولا شيء من خلقه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فإن الدّين الذي بُعِث به محمد ﷺ شملت شريعته الحياة من جميع وجوهها الاعتقادية والعملية، الفردية والجماعية، وكان لمشاكل الجسد ومشاكل العقل مكانها الصحيح في أحكام الإسلام، فلم يَبْدُ أن هناك شيئاً أتفه من أن يدخل مدار التوجيه الديني، حتى ولا تلك المسائل العادية، من مثل التجارة والإرث وحقوق الملكية والنكاح.

لقد صيغت جميع أحكام الشريعة لصالح الفرد والجماعة بالتساوي دون تمييز بالنسب أو العنصر أو الجنس أو اللون ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

وحرّم الله الوساطة بين العبد وربه، ذلك أن الله ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾، ولا يعترف الإسلام بولاء غير الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وهذا ما منع ذلك النوع من الولاء الجاهلي الذي يقول: «وطني، أو قومي، أو عشيرتي أحبّ إليّ سواء كانوا على الحق أو علي الباطل». قال النبي ﷺ: «من قُتل تحت راية عمية، يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلةٌ جاهلية».

لم يكن عندي أي صورة خياليّة عن أحوال المسلمين اليوم وأن أكثرهم قد ضلوا عن شريعة الإسلام وانغمسوا في التقليد والإبتداع والجهل ؟ ولكن ما همّ أن يكونوا لم يحافظوا على المثل الأعلى الذي أرسل الله به رسوله ﷺ منذ ثلاثة عشر قرناً مضت، إذا كان ذلك المثل الأعلى نفسه ما زال متاحاً لكل راغب في قبول رسالته، -كما أُنزلت- والعمل بها.

لا حاجة بي إلى أقول إن شريعة الإسلام احتلت تفكيري في هذه الفترة من حياتي أعني في النصف الثاني من سنة ١٩٢٦ أكثر من أي أمر آخر. لقد نما استغراقي في محاولة التّعرف على الإسلام وفاق مراحلة الأولى عندما لم يكن أكثر من اهتمام عقلي بأيديولوجية وثقافة غريبتين، لقد أصبح بحثاً ملحاحاً جاداً عن الحقيقة؛ إلى درجة أنه غدا من العسير عليّ أن أنصرف إلى كتابة الكتاب الذي كان من حقّ رئيس تحرير (فرانكفورتر تزاينونك) أن يتوقعه مني.

لقد تغاضى(سيمون) في بادئ الأمر عن تأخيري الشروع في هذا الكتاب، فقد كنت عائداً من رحلة طويلة، وكنت أستحق نصيباً من الراحة إضافة إلى أن زواجي مؤخراً كان يسوغ الراحة من العمل بعض الوقت إلا أنه عندما أخذت الراحة تمتد إلى أبعد مما اعتبره معقولاً، اقترح أنه قد آن لي أن أعود إلى الأرض ثانية.

ولو أني عدت إلى الماضي الآن لعرفت أن (سيمون كان عادلاً، ولكنه لم يبد لي كذلك في ذلك الحين.

وأخيراً أبدى ملاحظته الساخطة: «لا أعتقد أنك ستكتب هذا الكتاب أبداً».

فأجبت وقد لسعتني ملاحظته بعض الشيء: «لا أجد في نفسي ميلاً إلى الكتابة».

فأجاب بحدة: «إذا كان الأمر كذلك، فهل تعتقد أن (فرانكفورتر تزايتونك) هي مكانك الصحيح»؟.

وهكذا أخَذَت الكلمة تجرّ أختها وانقلب خلافنا إلى خصام. وفي اليوم نفسه استقلت من الصحيفة. وغادرت (فرانكفورت) إلى (برلين) مع زوجتي بعد ذلك بأسبوع.

ولم أكن أنوي هجر الصحافة، ذلك أنه إلى جانب العيش الرغد والمتعة الذين كانت توفرهما لي الصحافة، فإنها كانت تزودني بوسيلتي الوحيدة إلى العودة إلى العالم المسلم الذي كنت أريد الآن العودة إليه بأيّ ثمن. ولأن الشهرة التي حصلت عليها خلال السنوات الأربع الماضية يسرت لي أن أنشئ علاقات صحفية جديدة،فسريعاً ما عقدت اتفاقات مُرْضية، مع ثلاث صحف أخرى: في زيورخ وامستردام وكولون، وكانت من أهم صحف أوروبا، ولو أنها لم تكن لتقاس بفرانكفورتر تزايتونك.

ولقد أقمت مع زوجتي في برلين مؤقتاً، حيث عزمت على إنجاز سلسلة محاضراتي في الأكاديمية الجغرافية السياسية، وأن اتابع في الوقت نفسه دراساتي عن الإسلام.

وسُرّ رفاقي الأدباء القدامى برؤيتي ثانية،إلا أنه لم يكن من السهل استئناف علاقاتنا السابقة من حيث تركناها عندما سافرت إلى الشرق الأوسط. فلم نعد نتكلم لغة عقلية واحدة. وبصورة خاصة لم استطع أن أجد من أيّ منهم تفهما لاهتمامي بالإسلام .

أما أنا فقد عرفت الآن أنني كنت منساقاً إلى الإسلام، ولكنّ فكرة اعتناقه نهائياً ظهرت لي شبيهة بالمغامرة في اقتحام جسر على هوّة بين عالمين مختلفين، جسر طويل جداً بحيث يكون على المرء أن يصل إلى نقطةٍ لا عودة منها قبل أن يرى طرفه الآخر.

في يوم من أيام شهر أيلول من سنة ١٩٢٦ كنت راكباً مع زوجتي في قطار برلين تحت الأرض، فوقعت عيني على رجل أنيق جالس قبالتي. كان على ما ظهر لي تاجراً تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة وفي أصبعه خاتم ماسي كبير، كان مظهر الرجل يظهر الرخاء الذي كان المرء يرى آثاره في كل مكان من أوروبا الوسطى في تلك الأيام، ذلك الرخاء الذي أعقب سنوات التضخم التي تدنّت فيها الحياة الاقتصادية حتى صارت رثاثة المظهر هي القاعدة. إن معظم الناس الآن يلبسون جيداً ويأكلون جيداً ، ومن هنا لم يكن الرجل قبالتي خلاف غيره من الناس. إلا أنني عندما نظرت إلى وجهه خيل إلي أنني لم أكن أنظر إلى وجهٍ سعيد، فقد بدا لي قلقاً بل شقياً بصورة حادّة ، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان ألماً ، ألماً غير جسماني. وإذ لم أرد أن أكون وقحاً، فقد أشحت بوجهي فرأيت إلى جانبه امرأة كان وجهها هي أيضاً يعبر تعبيراً غريباً عن عدم سعادتها، كأنما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم. ومع ذلك كان ثغرها يفترّ عما يشبه ابتسامة جامدة لم أشك في أنها لا بد أن تكون من عاداتها. وعندئذ أخذت أجيل بصري في جميع الوجوه الأخرى، وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الحسنة ويقتاتون بالغذاء الجيد، وفي كل وجه منها استطعت أن أميّز تعبيراً عن الألم الخفيّ إلى درجة أن صاحبه بدا وكأنه لا يشعر به.

وكانت هذه الملاحظة قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذتْ تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية. ثم أستدارت إليّ دهشة

وقالت: أنت على حق، وإنهم جميعاً يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم! وإنني لأتساءل هل يعرفون ماذا يعتمل في نفوسهم؟

لقد عرفت أنهم لم يكونوا يعلمون وإلا لما كان باستطاعتهم أن يستمروا في إضاعة حياتهم وتبديدها كما كانوا يفعلون دون إيمان بالحقائق الأبدية ودون هدف أبعد من الرغبة في تحسين معيشتهم وحيازة المزيد من الملذات والمزيد من الممتلكات، ولربما المزيد من القوة.

وعندما عدنا إلى البيت ألقيت نظرة على مكتبي، وكان عليه نسخة مفتوحة من القرآن كنت أقرأ فيها من قبل فرفعت الكتاب لأضعه جانباً. ولكن ما إن هممت باغلاقه حتى وَقَعتْ عيني على الصفحة المفتوحة أمامي وقرأت: ﴿ **ألهاكم التكاثر. حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين. لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين. ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾.

واعتراني الصمت لحظة، وإني لأعتقد أن المصحف كان يهتز في يدي، ثم قلت لزوجتي: «اصغي إلى هذا، أليس هو بيانا عما رأيناه في القطار»؟ أجل لقد كان. كان جواباً قاطعاً إلى درجة أنّ كل تردد قد زال فجأة. لقد تيقنت الآن أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يديّ كتابٌ موحى به من الله. فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فإنّه ينطق بالحق عما يواجه البشر اليوم وأمس وفي كل وقت وفي كل مكان.

لقد كان ينطق لي من القرآن صوت أعظم من صوت محمد ﷺ، إنه صوت خالقة وهاديه ومالك أمره.

هبط الظلام على فناء مسجد النبي ﷺ. ولم يكن ينير المكان سوى مصابيح الزيت التي كانت مدلاة بسلاسل طويلة بين أعمدة الأقواس، وكان الشيخ عبد الله بن بليهد جالساً ورأسه غارق فوق صدره وعيناه مغلقتان. وكان خليقاً بمن لم يكن يعرفه أن يظن أنه كان في سبات عميق، ولكنني كنت أعلم أنه كان يصغي إلى قصتي باستغراق كلّي، وبعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه وقال:

- (ومن ثم، ماذا فعلت)؟.

– (سعيت إلى صديق لي من الهند كان في ذلك الحين رئيساً للجالية المسلمة الصغيرة في برلين، وأعلمته برغبتي في اعتناق الإسلام، فمد يده اليمنى نحوي ووضعت يدي اليمنى فيها وقلت : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » .

وعندئذ قال صديق المسلم : « كان اسمك ليوبولد LEOPOLD وكلمة (ليو) LEO اليونانية معناها أسد . إذن ، سندعوك الآن (محمد أسد)، على أنه لا يلزمك تغيير اسمك » .

وبعد بضعة أسابيع اعتنقت زوجتي الإسلام .

– « وماذا قال أهلك في ذلك »؟ .

– « عندما أنبأت والدي بإسلامي لم يردّ على رسالتي له، وبعد بضعة أشهر كتبت إليّ أختي تقول : إنه عدّك ميتاً، وعندها أرسلت إليه رسالة أخرى أكّدت له فيها أن اعتناقي الإسلام لن ينقص من بِرِّي به وإحساني مصاحبته، وأن الإسلام يأمرني بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا** ﴾ » .

ولكن هذا الكتاب أيضا ظل بلا جواب .

– « إن أباك لشديد التعلق بدينه » .

– « كلا يا شيخ، إنه ليس كذلك إنه لم يكن في اعتقادي يعتبرني مرتداً عن دينه؛ –ذلك أنه لم يكن للدين سلطان قوي عليه– بقدر ما كان يعتبرني مرتداً عن البيئة التي نما وترعرع فيها، وعن الثقافة التي كان كَلِفاً بها » .

– « أو لم تره بعد ذلك »؟ .

– كلا، فبعد وقت قصير من اعتناقي الإسلام، غادرت أوروبا أنا وزوجتي . إننا لم نعد نطيق البقاء فيها، ولم نرجع إليها بعد ذلك مطلقاً[١] .

---

(١) لقد عادت علاقتي بأبي إلى سابق عهدها في عام ١٩٣٥ ، بعد أن تفهّم أبي أسباب اعتناقي الإسلام، وبالرغم من أننا لم نجتمع قط مرة ثانية، فقد ظللنا نتبادل الرسائل حتى عام ١٩٤٣ عندما أبعده النازيون هو وأختي عن فيينا؛ فمات بعد ذلك في أحد معسكرات الأسرى .

نهاية الطريق

- ١ -

تركنا المدينة إلى مكة المباركة في ساعة متأخرة من الليل سالكين الطريق الذي سلكه النبي ﷺ وعندما حج قبل بضعة أشهر من وفاته.

وسرنا بقية الليل حتى مطلع الفجر، وبعد أن توقفنا لأداء صلاة الصبح عاوَدْنا السير في النهار، وكان يوماً أشهب غائماً. وبدأ المطر ينهمر عند الضحى، وسرعان ما ابتلت ثيابنا، وأخيراً رأينا عن بعد مَضْرباً بدوياً صغيراً إلى يسارنا، فقررنا أن نتقي المطر في احدى بيوت الشعر السوداء.

كان المضرب لجماعة من بدو (حرب) استقبلونا قائلين: (حياكم الله يا أهل الطريق، أهلاً وسهلاً بكم). وفرشت ردائي فوق السجادة المصنوعة من شعر الماعز في بيت الشيخ، بينما كانت زوجته ـ سافرة شأن معظم البدويات في تلك المنطقة ـ تردد عبارات الترحيب التي استقبلنا بها زوجها. وإذ كنت قد قضيت الليلة السابقة بلا نوم، فقد تغلب عليّ النعاس بسرعة بينما كان المطر يتساقط على سقف البيت محدثاً صوتاً خافتاً.

وصحوت على صوت المطر بعد ذلك ببضع ساعات. كان ظلام الليل يلفّني، كلا، إنه لم يكن الليل، بل ظلام البيت. وكانت رائحة الصوف الرطب تفوح منه، ومددت ذراعي فاصطدمت يدي برحْل قائم على الأرض من خلفي، إن نعومة الخشب العتيق حلوة الملمس، وإن تحريك الأصابع عليها ليبعث على البهجة، صعوداً إلى أن تلقي حبالاً من جلد الجمل قاسية كالحديد تشد أجزاء الرحل بعضها إلى بعض، ولم يكن في البيت أحد سواي.

وبعد قليل نهضت وخرجت من بيت الشعر وكان المطر غزيراً يحدث ثقوباً في الرمل. ولم أتبين أحداً أمامي، ذلك أن الرجال في مثل هذه الساعة من النهار

يخرجون لتفقد إبلهم، وكانت البيوت الكثيرة السوداء بالقرب من شجرة الطلح في الوادي صامته صمت الأصيل، ومن أحدها كان ينبعث ذيل من الدخان الأشهب مبشراً بوجبة المساء، وكان الهواء مشبعاً برائحة المياة وأشجار الطّلح البرية وصوف البيوت الرطب. وتوقف رش المطر تدريجياً، وأخذت الغيوم بالانفراج تحت أشعة شمس المساء. ومشيت نحو إحدى الصخور الصوانية المنخفضة، وكانت فيها فجوة بحجم إحدى تلك القصعات التي تقدم عليها الخراف المشوية مع الأرز إلى الضيوف في الأعياد، وكانت مملوءة بماء المطر. وعندما أدخلت ذراعيّ فيها غاصتا حتى المرفقين، فأحسست بدفء الماء ولذته. وشعرت إذ حركت ذراعي في الماء بأن جسمي كله كان يشرب. ومن أحد بيوت الشعر ظهرت امرأة تحمل على رأسها إناء نحاسياً كبيراً، وكان واضحاً أنها كانت تنوي أن تملأه من إحدى الفجوات الكثيرة. كانت تمسك بيدها أذيال ثوبها كالأجنحة، وتتمايل برشاقة وهي تقترب. وكانت تنساب كالماء إذ يسيل ببطء من بين الصخور. وعن بعد سمعت هدير الإبل العائدة، ثم رأيتها تظهر منتشرة تدبّ برزانة ووقار في خطوات متراخية، يسوقها الرعاة بنداءاتهم القصيرة الحادة إلى منتصف الوادي حيث ينيخونها ويعقلونها ثم يتفرقون كل إلى بيته.

وهبط الليل بظلامه وبرودته، وأمام معظم البيوت اتقدت النيران، واختلطت أصوات أواني الطبخ بضحكات النساء ونداءات الرجال وأحاديثهم التي كان الليل يحمل أطرافاً منها . واستمرت الغنم التي وصلت أخيراً في ثغائها مدة، ونبح أحد الكلاب كما ينبح دائما في جميع الليالي وجميع مضارب جزيرة العرب.

ولم تقع عيني على أثر لزيد، فلعله كان لا يزال نائما في أحد البيوت، وهبطت ببطء نحو الإبل المستريحة التي كانت قد حفرت لنفسها بأجسامها الكبيرة تجاويف في الرمل تمددت فيها براحة واسترخاء، وكان بعضها تجتر مادة أعناقها الطويلة على الأرض، بينما رفع أحدها رأسه وهدر عندما اقتربت منه فداعبتُ سنامه ومررت بحمل رضيع التصق بجسم أمه، وإذ وضعت يدي عليه قفز خائفاً، بينما أدارت الأم رأسها نحوي وهدرت بملء فيها هديراً ناعماً، وأمسكتُ بعنق الرضيع بذراعي وضغطت بوجهي على صوف ظهره الدافيء، فهدأ فجأة وبدا لي أنه قد فارقه كل خوف،

وتخلل الدفء من جسم الحيوان الصغير وجهي وصدري، وتحت راحة يدي شعرت بالدم ينبض في وريد عنقه، لقد اختلط بنبض دمي وأيقظ فيّ شعوراً قوياً بالقرب من الحياة نفسها، وحنيناً إلى أن أذوب فيها بالكلية.

-٢-

كنت أقترب رويداً رويداً من نهاية طريقي. لم يكن لي أي طريق آخر؛ لقد كانت مكة دائما هدفي وغايتي، لقد نادتني قبل أن أعي نداؤها بوقت طويل. وعندما تبين لي نداؤها خلال عدد من السنين، عرفت أن أخوّة الإيمان تنتظرني منذ أن وُلِدت؛ فاعتنقت الإسلام. لقد تحققَتْ أخيراً رغبتي أيام صباي، أن انتمي إلى مدار ثابت مكين، أن أكون جزءاً من أمة مؤلفة من إخوة.

ولقد كانت أولى خبراتي بعد أن صرت واحداً من المسلمين دليلاً على متانة هذه الإخوة.

ففي الأيام الأولى من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٧ ، انطلقتُ مرة أخرى، مصحوباً هذا المرة بزوجتي (إلسا) وابنها الصغير، إلى الشرق الأوسط، وشعرت هذه المرة، بأني لن أعود أبداً.

وسافرنا أياماً في البحر الأبيض المتوسط، عبر دائرة متألقة من الماء والسماء، تحيّينا أحياناً الشطآن البعيدة والبواخر التي كانت تمرّ بنا. كانت أوروبا قد اختفت وراءنا وكادت تغيب عنا في عالم النسيان.

وكثيراً ما كنت أنزل من غرفتنا الجميلة إلى مكان الركاب من الدرجة الثالثة في مقدمة السفينة، وقد صُفّت فيه الأسرة الحديدية القاسية . ولما كانت الباخرة متجهة إلى الشرق الأقصى، فقد كان معظم ركاب هذا القسم من صغار الصناع والتجار عائدين إلى وطنهم -الصين- بعد سنين من العمل الشاق في أوروبا. وإلى جانب هؤلاء كان هناك جماعة صغيرة من عرب اليمن الذين صعدوا إلى الباخرة في مرسيليا، عائدين إلى بلادهم، وكانت روائح الموانئ الغربية لا تزال عالقة بهم، إذ كانت أيديهم السمراء تجرف الفحم في مواقد السفن الإنكليزية أو الأمريكية أو الهولندية. كانوا

لا يزالون يتكلمون عن المدن الأجنبية الغربية، نيويورك وبيونس آيرس، وهامبورك ، وكانوا قد أسرهم الحنين إلى بريق المجهول فالتحقوا بإحدى البواخر في ميناء عدن في وظائف الوقود وتجهيز الفحم. لقد خرجوا من عالمهم المألوف، واستسلموا إلى أحضان عالم جديد غريب. ولكن الباخرة ستعود سريعاً إلى عدن فيتركون عملهم فيها وتبقى ذكرياته ، إنهم سيخلعون القبعة الغربية ويلبسون العمامة ، ويعود كل منهم إلى قريته في اليمن، فهل يعودون كما خرجوا، أو يظهر لهم ولأهلهم تبدّل أحوالهم عما كانوا عليه عندما غادروا الوطن؟ هل أسَر الغرب أرواحهم، أو أنه لامس مشاعرهم مجرد ملامسة؟.

إن مشكلة هؤلاء الرجال قد احتلت حيزاً عميقاً من تفكيري، حتى جعلتني أفكر في مشكلة أعم وأوسع.

إن عالَمَي الإسلام والغرب لم يكونا يوماً متقاربين كما هما اليوم. وهذا التقارب أحدث صراعاً ظاهراً وخفياً ، ذلك أن قلوب الكثيرين من المسلمين لتصدأ رويداً رويداً تحت تأثير عوامل الثقافة الغربية، إنهم يتركون أنفسهم يبتعدون عن اعتقادهم الصحيح بأن تحسين المعيشة يجب أن لا يكون سوى وسيلة لتحسين مصيرهم الأخروي، وإنهم ليسقطون في مصيدة التطور نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد أن صغّروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مؤخرة حياتهم، ولذلك تراهم يَصْغُرون مقاماً ولا يَكْبُرون.

ذلك أن كل تقليد ثقافي -بخلاف المحافظة على الأصل الصالح- لابد أن يحقّر الأمّة المقلِّدة، ويعزز شأن الأمة المقلَّدة.

أنا لا أعني أن المسلمين لا يجوز لهم أن يتعاملوا مع الغرب، ويستخدموا خبرته في الإدارة والفنون الصناعية، إن اكتساب الخبرات والأساليب المعيشية النافعة ليس تقليداً، ذلك أن الاكتشافات النظرية والعملية، ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري كلّه. إن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه، سواء كانوا من بني أمته أو من أبناء أمة غيرها. وعملية البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر، من إنسان إلى إنسان ومن عصر إلى عصر،

ومن مدينة إلى مدينة، بحيث أن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من إنجازات لا يمكن مطلقاً أن يقال إنها (تخصّ) ذلك العصر أو تلك المدنية، فقد يحدث في مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة أو أمم معدودة بنصيب أكبر في صندوق المعرفة، ولكن الجميع بقدر يقلّ أو يكثر مشتركون في هذه العملية.

لقد جاء حينٌ كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من المدنيات الأخرى؛ ففي الجانب الأعلى نشرت دين الله في الأمم الوثنية في الهند والصين وفارس وفي أمم أهل الكتاب في بلاد الشام وأطراف أوروبا. وفي الجانب الأدنى نقلت مبادئ النظريات والخبرات التي قامت عليها المدنية الحديثة من التراث اليوناني وأضافت إليها إضافات لا يستهان بها.

ومع ذلك فإن دراسة (جابر بن حيان) الكيماوية لم تجعل الكيمياء «عربية» ، كذلك لا يمكن أن يقال إن الرياضيات «إسلامية» لسابق دراسة (الخوارزمي) هذا الفن. كما لا يصح أن تسمي نظرية الجاذبية إنكليزية لأن (نيوتن) صاحبها كان إنكليزياً.

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا المنجزات الدنيوية وسيلة لا غاية في ذاتها؛ إذن لما خالفوا الشرع ولا العقل ولثبتوا في موقعهم الذي ارتضاه الله لهم هداة مهتدين.

كان من بين اليمنيين على ظهر الباخرة رجل قصير له أنف كمنقار النسر ووجه ينم عن القسوة والبأس الشديدين، إلا أن حركاته كانت هادئة ومتزنة، وعندما عرف أنني كنت حديث الإسلام أظهر لي مودة خاصة . كنا نجلس معاً ساعات طويلة على ظهر السفينة، كان يتحدث لي فيها عن قريته في جبال اليمن. وفي المساء زرته في مكانه تحت ظهر السفينة، وكان أحد أصدقائه مصاباً بالحمّى وممدّداً على سريره الحديدي، وعلمت أن طبيب الباخرة لم يكن ليهتم بالنّزول إلى ركاب الدرجة الثالثة. وإذ تبين لي أنه مصابا بحمى الملاريا، فقد أعطيته بعض حبات (الكينا) ، وبينما أنا منشغل به تحلق اليمنيون الآخرون في زاوية وأخذوا يتهامسون ويتشاورون وهم

ينظرون إليّ نظرات جانبية، وأخيراً تقدم واحد منهم، وكان رجلاً طويلاً ذا وجه أسمر وعينين سوداوين ناريتين، وقدم إليّ حزمة من الفرنكات المتغضنة.

– «لقد جمعنا هذا من بيننا، نأسف أنه ليس بالمبلغ الكبير، ولكن نرجوك أن تقبله منا».

ورجعت إلى الوراء من أثر المفاجأة ، ثم أوضحت لهم أنني لم أعط صديقهم الدواء من أجل المال.

– «إننا نعرف هذا، ولكنا نرجو أن تأخذ هذه الدراهم، إنها ليست أجراً بل هدية، من إخوان لك. إننا مسرورون بمعرفتك . أنت مسلم، وأخ لنا، وأنت أفضل منا جميعاً، ذلك أننا ولدنا مسلمين أما أنت فقد بحثت عن الإسلام فهداك الله إليه، تقبل منا هذه الدراهم أيها الأخ».

ولكنني إذ كنت لا أزال متأثراً بتقاليدي الأوروبية، أصررت على الرفض ودافعت عن نفسي قائلا: «لا يمكنني بأي حال أن أقبل هدية لقاء خدمة قمت بها نحو صديق مريض. وفضلاً عن ذلك فإنّ لدي من المال ما يكفيني، ولست أشك في أنكم تحتاجون إليه أكثر مني . ومع ذلك ، فإن كنتم تصرون على إنفاق هذا المال فإن بوسعكم أن تتصدقوا به على بعض الفقراء في بور سعيد».

فأجاب اليمني: «كلا إقبله أنت منا، وإذا لم تشأ أن تحتفظ به فأعطه أنت الفقراء».

وكان من نتيجة إلحاحهم عليّ بقبول المال وإصراري على رفضه أن ران عليهم الصمت وبدا على وجوههم الحزن، كأنما رفضي لم يكن لما قدموه إليّ من مال بل لصداقتهم ومحبتهم جميعاً

– (هاتوا الدراهم ، أيها الأخوان، إنني أتقبلها منكم وأشكركم).

-٣-

- «غداً إن شاء الله نكون في مكة. إن هذه النار التي نوقدها الآن يا زيد، ستكون الأخيرة، إن رحلتنا تكاد تقترب من نهايتها.

- «ولكننا بالتأكيد، يا عمي، سنوقد نيراناً أخرى، وسيكون هناك دائماً رحلة أخرى أمامك وأمامي»؟.

- «قد يكون ذلك يا أخي. ولكنني أشعر أن الرحلات القادمة لن تكون في هذه البلاد، لقد مضى علي وقت طويل جداً وأنا أطوف وأرتحل في جزيرة العرب حتى أنها امتزجت بدمي، وأخشى أنني إن لم أغادرها الآن فلن أتمكن من مغادرتها بعد ذلك أبداً. ولكن عليّ أن أسافر يا زيد، ألا تذكر المثل الذي يقول بأن الماء يجب أن يجري ويسيل إذا أريد له أن يبقى طيّباً؟. إنني أريد أن أرى كيف يعيش إخواننا المسلمون في أصقاع أخرى من هذا العالم، في الهند وفي الصين، وفي جاوة».

وأجاب زيد مذعوراً: «ولكنك بالتأكيد يا عمي لا تزال تحب بلاد العرب»؟.

- «إطمئن يا زيد، فأنا لا ازال أحبها كما أحببتها دائماً، ولعلي أحبها أكثر قليلاً مما ينبغي لي. أحبها حباً جماً بحيث يؤلمني أن أفكر فيما عساه أن يكون مستقبلها. لقد قيل لي. إن الملك ينوي أن يسمح للفرنج بأن ينقبوا عن الزيت في الشرق، وعن الذهب في الغرب، والله وحده يعلم ما سيكون تأثير هذا على البدو. إن هذه البلاد لن تكون هي نفسها كرّة أخرى. وقطع حبل السكون في تلك الليلة الصحراوية صوت راحلة تسرع في خطوها نحونا، وما لبث أن اندفع إلى مضربنا راكب منفرد كانت عباءته ترفرف في الهواء، وأوقف راحلته فجأة وقفز من على ظهرها وبعد أن ألقى علينا السلام بصورة مقتضبة شرع بإنزال رحله عن راحلته ووضعه بالقرب من النار، ثم جلس وهو ما يزال معتصماً بالصمت متفادياً النظر إلينا. وقال زيد - وكان على ما ظهر يعرف الرجل -: «حياك الله يا أبا سعيد» ولكن الرجل الغريب ظل غارقاً في صمته، وعندئذ استدار إليّ زيد وقال: «هذا الرجل من خدم ابن سعود».

وكان أبو سعيد مكتئباً وكانت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد وسمرته الشديدة تدل على أنه من أصل أفريقي، كان متأنقاً في لباسه ، وكان الخنجر الذي يحمله في وسطه محلّىً بالذهب، كما كانت مطيته من مطايا الشمال الممتازة ذات اللون العسلي، دقيقة الأطراف ضيقة الرأس قوية الكتفين والردفين.

- «ما بك يا أبا سعيد؟ لماذا لا تكلم أصدقاءك»؟.

وهمس أبو سعيد: «إنها نورة». وبعد قليل، عندما فكت القهوة الساخنة عقال لسانه، أخذ يخبرنا عن نورة، تلك الفتاة النجدية من بلدة الرسّ وذكر اسم أبيها وكنت أعرفه جيداً. كان يراقبها خلسة من فوق سور الحديقة بينما كانت تسحب الماء مع غيرها من النساء.

- «شعرت كأن جذوة من النار تتقد في فؤادي. إنني أحبها، ولكن أباها لم يشأ أن يزوجني من ابنته، لقد عرضت أن يكون صداقها مبلغاً كبيراً من المال، وقطعة من الأرض أيضاً، ولكنه تمادى في رفضه وأخيراً زوجها من ابن عمها».

كنا نرى جانباً واحداً من وجهه القوي الأسود على ضوء النهار، كان كالبركان الثائر لا يستطيع أن يهدأ في مكانه طويلاً. وفجأة قفز واقفا وشغل نفسه لحظة واحدة برحله ثم عاد إلى مجلسه حول النار، وما لبث أن اندفع راكضاً في الظلام، لقد استطعنا أن نسمعه وهو يركض في دوائر واسعة حول مضربنا ويصيح:

- «نار نورة تحرقني، نارها تتأجج في ضلوعي»، ثم يردف متنهداً: «نورة، نورة». واقترب من النار مرة أخرى وأخذ يركض حولنا وحُلّتُه ترفرف حوله.

وما لبث أن عاد إلينا ورمى بنفسه على الأرض، واستطعت أن أرى الاشمئزاز يعلو وجه زيد لرؤيته مثل هذا الهياج الخليع المتهتك، ذلك أنه ليس كمثل هذا الفقدان للسيطرة على العواطف والانفعالات شيء أجدر بالازدراء والسخرية في عيني العربي الصميم. ولكن قلب زيد الطيب، سريعا ما تغلب عليه فجذب أبا سعيد من كمه وقربه منه بلطف بينما رفع أبو سعيد بصره إليه وأخذ يحدق فيه بعينين تائهتين.

– « يا أبا سعيد كيف تنسى نفسك على هذا النّحو ؟ إنك لمحارب يا أبا سعيد، لقد قتلت الرجال، وكثيراً ما كاد الرجال يقتلونك، والآن تصرعك امرأة؟ هناك في العالم نساء كثيرات غير نورة يا أبا سعيد » . وبينما كان أبو سعيد يئن أنيناً خافتاً مغطياً وجهه، بكلتا يديه تابع زيد قائلاً :

– « يا أبا سعيد، إرفع بصرك، ألا ترى ذلك المجرّ المضيء في السماء »؟ .

ورفع أبو سعيد بصره دهشاً، وتبعت أنا أيضا إصبع زيد وهو يشير إلى السماء، ووقعت عيناي على ذلك الطريق الشاحب الذي يمتد في السماء من أفق إلى أفق. إنك تدعوها المجرّة، ولكن البدو يدعونها مجرّ الكبش، ذلك الكبش (الفدية) الذي أُرسل إلى إبراهيم عليه السلام عندما رفع مديته ليضحّى بابنه البكر طاعة لله، وبقي مجر الكبش ظاهراً في السماء إلى الأبد رمزاً للرحمة والنعمة، وتذكاراً للنجدة التي أرسلها الله لابراء قلب إنساني من أمه، وبالتالي عزاء لمن سيأتون من بعد؛ لأولئك الذين يتعثرون باكين يائسين في قفار حياتهم وفلواتها، ليعلموا أنهم إذا لجأوا إلى الله وحده فإنه لن يتخلى عنهم.

وتابع زيد كلامه ، ويده ما تزال مرتفعة نحو السماء.

– « هذا هو مجرّ الكبش الذي أرسله الله إلى نبيّه إبراهيم عليه السلام عندما كان على وشك أن يذبح ابنه البكر فأنزل الله عليهما الرحمة فهل تظن أنه ينساك »؟ .

وهدأ أبو سعيد بتأثير كلمات زيد .

– ٤ –

إبراهيم وكبشه السماوي، هذه الذكرى تظل حية قوية دائما في بلاد المسلمين، أكثر مما هي عند النصارى الذين يقيمون دينهم على ما في أيديهم من الإنجيل والتوراة ،وأكثر مما هي عند اليهود الذين يظنون أن التوراة بدء كلمة الله إلى الإنسان ونهايتها. إن المرء ليحس دائما بذكرى إبراهيم في بلاد العرب خاصة وفي جميع أقطار العالم المسلم عامة، لكثرة ما يتردد اسمه في تلاوتهم القرآن وفي كل

صلواتهم اليومية تذكيراً بالدعوة التي قام بها ذلك النبي الجليل لتكون كلمة الله هي العليا وليفُرْدَ الله وحده بالعبادة. وتحيى ذكراه بخاصة في مناسك ومشاعر الحجّ إلى مكة ؛ هذا الحج الذي ما يزال منذ قديم الزّمان وطيد الصلة بقصة إبراهيم، وكان الجد الأول عن طريق ابنه إسماعيل لتلك الجماعة العربيةَ المستعربة التي تضم اليوم أكثر من نصف الأمة العربية والتي ينتمي إليها محمد ﷺ.

والتوراه التي بين يدي يهود اليوم لا تأتي على ذكر قصة إسماعيل وأمه هاجر، ولكن القرآن والحديث وحي الله إلى نبيه يقص سيرة إبراهيم كاملة ، إنهما يقصان أن إبراهيم جاء بهاجر وابنهما إسماعيل إلى المكان الذي صار مكة اليوم ، ذلك الوادي القائم بين التلال الصخرية، العاري الأجرد تحت الشمس الملتهبة ورياح الصحراء الحارة، والذي تتجنبه حتى الطيور الجارحة. لقد وضعهما هناك ووضع بجانبهما جراباً فيه تمر وزقاً فيه ماء، ثم تركهما وسار نحو الشمال قاطعاً مدين إلى أرض كنعان. وسألته هاجر: آلله أمرك بهذا قال : نعم، قالت: «إذن لن يضيعنا».

ويروي الحديث الصحيح أن هاجر بقيت هناك إلى أن نفذ الماء وأخذ الطفل يصرخ من العطش واستبد القلق بالأم. وركضت بين رابيتين منخفضتين سبع مرات، وهما الّذان يسعى الحجاج سبع مرات بينهما اليوم، وظلت تدعو الله حتى جاءها الغوث من الله، لقد انبثق الماء وسال فوق الرمل، وصاحت (هاجر) صيحة الفرح وضغطت وجه ابنها فوق السائل الثمين كيما يرتوي وشربت معه هي حتى ارتوت. وخوفا من أن يذهب الماء في الوادي ، بنت هاجر بيدها حاجزاً من الرمل حول النبع، وعندئذ توقف جريانه وأصبح بئراً عرف ببئر زمزم،يشرب منه المسلمون اليوم طاعة لله.

ويروى الحديث الصحيح أن جماعة من بدو اليمن من قبيلة جرهم مرّوا بعد ذلك مع عائلاتهم ومواشيهم في طريقهم من أوطانهم إلى مراعٍ جديدة، فرأوا الطيور تحوم فوق الوادي وأدركوا أن هناك ماء، فأرسلوا من يستطلع الخبر فوجد هاجر وابنها، واستأذنوها في سكنى واديها فأذنت لهم شرط أن لا يملكوا زمزم. وعاد إبراهيم إلى الوادي بعد حين فوجد هاجر وأبنها أحياء كما كان الله قد وعده. ومنذ ذلك الحين أخذ يزورهما حتى شب إسماعيل وتزوج من جيرانه. وبعد سنوات أمر الله نبيه إبراهيم أن

يبني مسجداً لربه بجوار بئر زمزم فساعده إسماعيل في ذلك حتى أنجزاه. فصار أول بيت بني لعبادة الله الأحد.

ثم فرض الله على عباده الحج إلى بيته الحرام في العمر مرة على الأقل.

-٥-

(لبيك اللهم لبيك) كم من مرة سمعت هذه الصيحة في حجّاتي الخمس إلى مكة. ولقد بدا لي كأني أسمعها الآن، وأنا ممدد بالقرب من زيد وأبي سعيد.

واغمضت عيني، فاختفى القمر والنجوم. ووضعت ذراعي فوق وجهي ولم يعد حتى ضوء النار يستطيع أن يخترق أجفاني، وتلاشت أصوات الصحراء جميعاً، ولم أعد أسمع شيئاً سوى صوت (لبيك اللهم لبيك) في عقلي، ودويّ الدم وهديره في أذني، لقد كان يَدْوِي ويهدُر، ويضجّ كضجيج أمواج البحر إذ تلطم جسم السفينة، وكهدير المحرك إذ يدفعها إلى الإمام.

لقد كنت أستمع إلى المحركات وهي تهدر، أشعر بارتعاش ألواح السفينة الخشبية من تحتي، أشم رائحة دخانها وزيتها، أسمع صيحة (لبيك اللهم لبيك) تنبعث من مئات الحناجر على السفينة التي حملتني عام ١٩٢٧ كيما أودي أول حجة لي منذ ست سنوات تقريباً من مصر إلى جزيرة العرب، عبر البحر الأحمر الذي كانت مياهه شهباء طيلة إبحارنا عبر خليج السويس، تكتنفها من الجانب الأيمن جبال القارة الأفريقية، ومن الجانب الأيسر جبال شبه جزيرة سيناء، وكلها سلاسل عارية صخرية جرداء، وعندما صرنا في عرض البحر الأحمر، أصبحت مياهه زرقاء تحت لمسات الهواء العليل.

لم يكن في السفينة مسافرون غير الحجاج، وكان هناك منهم عدد كبير جداً بحيث أن الباخرة ضاقت بهم، ذلك أن شركة البواخر حرصاً على الاستفادة إلى أبعد الحدود من موسم الحج القصير، قد حشرت المسافرين على السطح، وفي الغرف والممرات والسلالم وغرف الطعام، وفي المخازن التي أفرغت من الحمولة لهذا الغرض وزوّدت بسلالم مؤقتة. وكان المسافرون حجاجاً قادمين من مصر وأفريقيا الشمالية، احتملوا كل ذلك الضيق. دون تذمر أو شكوى. كانوا يجلسون القرفصاء على الألواح

الخشبية جماعات متراصة، رجالاً ونساء وأطفالاً، يُعدّون طعامهم بصعوبة وعسر، وكانوا يسعون دائماً جيئة وذهوباً طلباً للماء في صفائح المعدن أو أوعية القماش السميك، ويزدحمون خمس مرات في اليوم حول صنابير المياه ـ التي لم يكن هنالك منها سوى عدد قليل جداً لمثل هذا العدد الكبير ـ كيما يؤدوا فريضة الوضوء للصلاة وكانت أنفاسهم تضيق في هواء المخازن السفلى التي لم تبن لإقامة البشر.

إن كل من قدر له أن يرى ذلك لا يجد مفرّاً من إدراك قوة الإيمان التي كانت تعمر صدور هؤلاء الحجاج. لم يكن يبدو عليهم أنهم كانوا يشعرون بما يقاسونه من آلام، ذلك أنهم كانوا مستغرقين إلى أبعد حدود الاستغراق في التفكير في مكة، ولم يكن لهم من حديث سوى حجهم. والحق أن تطلّعهم إلى مستقبلهم القريب قد أضاء منهم الوجوه وأنساهم كل عناء.

وعند ظهر اليوم التالي تقريباً دوت صفارة الباخرة دلالة على أننا وصلنا إلى (رابغ)، وهي ميناء صغير الى الشمال من (جدة) هنا –كما تقضي بذلك شريعة الله– ينبغي للحجاج القادمين من الشمال الغربي لمكة أن يطرحوا ثيابهم العاديّة، وأن يضعوا على أجسامهم لباس الإحرام، وهو يتألف من قطعتين غير مخيطتين من القماش يلف الرجل إحداهما حول وسطه بحيث لا تنزل عن كعبيه في حين تغطي الأخرى أعلى جسمه.

وفي كل مكان من حولك لم يكن هناك سوى هذا اللباس المتواضع، مجرّداً من أيّ زينة، تتشح به الأجسام التي أخذت تمشي الآن بقدر أكبر من الاعتدال والعزة يليق بالحاج إلى أول بيت وضع للناس. ولما كان لباس الأحرام من شأنه أن يكشف أجسام النساء فإنهن يُحْرِمْن بألبستهن العادية.

وفي فجر اليوم الثالث ألقت السفينة مراسيها عند شاطئ (جدة). ووقف معظمنا عند حاجز السفينة، نتطلع بأبصارنا إلى الأرض التي كانت ترتفع ببطء من بين ضباب الصباح.

ولقد كان باستطاعة المرء أن يلمح في جميع الجهات أشباح سفن الحجاج، وبينها وبين اليابسة أقلام صفراء فاقعة وخضراء زمردية في الماء شعب مرجانية غارقة في الماء

تؤلف جزءاً من تلك السلسلة الطويلة الممتدة أمام الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر، ووراءنا نحو الشرق كان هنالك شيء يشبه الكثيب، مسود ومنخفض، ولكن ما أن ارتفعت الشمس من ورائه حتى تبين أنه بلدة عند البحر، تزداد بيوتها ارتفاعاً من طرفها إلى وسطها فتشكل بناء دقيقاً من الأحجار المرجانية الحمراء والصفراء الداكنة؛ ميناء جدة. وشيئاً فشيئاً أصبح باستطاعتك أن تُميز النوافذ المنقوشة، وستائر الشرفات الخشبية التي خلع عليها الهواء الرطب على مر السنين لوناً أخضر داكناً. وفي الوسط برزت منارة بيضاء لبيت من بيوت الله.

ومرة أخرى ارتفعت صيحة (لبيك اللهم لبيك) صيحة سرور انطلقت من الحجاج المتحمسين في لباس الإحرام على ظهر السفينة التي تقلهم إلى أرض أمانيهم القصوى؛ أمانيهم هم، وأمانيَّ أنا ، ذلك أن منظر شاطئ (جدة) كان ذروة سنوات من البحث. ونظرت إلى زوجتي (إلسا) التي كانت رفيقتي في حجتي تلك فقرأت في عينيها الشعور نفسه.

ومن ثم رأينا جيشاً من الأجنحة البيضاء يندفع نحونا من ا لبر، الزوارق العربية التي مخرت بأشرعتها المياه الهادئة، وشقت طريقها بصمت فوق الشعب المرجانية، فكانت أول رسل جزيرة العرب تستعد لاستقبالنا. وإذ اقتربت رويداً رويداً من السفينة لتزدحم آخر الأمر بصواريها المتمايلة إلى جانبها، انطوت أشرعتها الواحد تلو الآخر كأنها أجنحة طيور تصفق فرحاً بعثورها على الطعام، وانبعث من صمت اللحظة المنصرمة صراخ وصياح من وسطها، صياح الملاحين الذين أخذوا يقفزون من زورق إلى زورق واندفعوا إلى سُلّم السفينة ليفوزوا بأمتعة الحجاج. والحجاج، الذين أخذوا، كما لم يؤخذوا قط من قبل، برؤية الأراضي المقدسة، تركوا الأمور تجري دون أن يبدوا أية مقاومة أو دفاع عن النفس.

وكانت القوارب ثقيلة واسعة ، وكان ذلك يُظهر جمال صواريها المرتفعة وأشرعتها البيضاء. لا بد أن السندباد الأسطوري قام بمغامراته في قارب مثل هذه القوارب. وفي قوارب شبيهة بها أيضاً أبحر الفنيقيون قبل سندباد بزمن طويل جنوباً عبر البحر الأحمر نفسه ومنه عبروا بحر العرب، في طلب أفاويه جنوب جزيرة العرب وكنوزها.

وها نحن أولاء خلفاء أولئك المغاوير نبحر عبر البحر المرجاني، نتفادى الشعب المرجانية الغارقة في البحر حجاجاً بألبستهم البيضاء، محشورين في الغرف وفي المخازن جيشاً من المدنيين يرتعش رجاء وأملاً.

وكنت معهم مليئاً بالرجاء والأمل، ولكن كيف لي وأنا جالس في مقدمة الزورق، ويد زوجتي في يدي أن أعرف أن أداء فريضة الحج سيبدّل حياتنا هذا التبديل العميق الكامل؟.

لم يكن هدف أي منا إلا أن يؤدي فريضة الحج، إلا أنه عندما حدثت فعلاً تلك الأمور التي كان مقدراً لها أن تحدث لنا، لم يستطع أيّ منا من بعد أن ينظر إلى العالم نظرته القديمة. تلك الحجة الأولى كان مقدراً لها أن تحدث في حياتنا تأثيراً أعمق من كل ما كان يمكن أن نتوقعه. فأما زوجتي (إلسا) فقد كان الموت ينتظرها، ولم يعلم أحد منا إلى أي حد كان موتها وشيك الوقوع. وأما أنا فقد عرفت أنني غادرت الغرب لأعيش بين المسلمين، ولكني لم أعرف أنني هجرت ورائي ماضيّ كله. فمن دون أي إنذار كان عالمي القديم يقترب من نهايته، عالم الأفكار والمشاعر والأهداف والتخيلات الغربية، كان هنالك باب يقفل ورائي بهدوء كبير، إلى درجة أني لم أشعر به ولم أدركه. ولقد ظننت أنها ستكون رحلة كسائر الرحلات السابقة عندما كنت أجول في البلدان والأراضي الغريبة، لأعود دائماً إلى ماضيّ، ولكن حياتي كان لا بد من أن تتبدل بالكلية، ومن أن يتبدل معها اتجاه رغائبي جميعاً.

وفي ذلك الحين كنت قد رأيت كثيراً من بلدان الشرق .لقد عرفت إيران ومصر، أكثر مما عرفت أي بلد في أوروبا، و (كابل) توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون بلداً غريباً، كما ألفت أسواق دمشق وإصفهان. وهكذا لم أستطع إلا أن أشعر (بمقدار الضآلة) عندما مشيت لأول مرة في سوق (جدة) ورأيت مزيجاً وتكراراً غير منتظم لما يلاحظه المرء في أماكن أخرى من الشرق.

كانت السوق مسقوفة بالألواح وقماش الأكياس وقاية من الحر اللاهب، ومن بين الثقوب والشقوق كانت أشعة الشمس الأنيسة تنساب فتطلي المكان بنور الذهب. مواقد مكشوفة كان الأولاد الزنوج يشوون عليها قطعاً من اللحم على أسياخ فوق فحم متقد، ومقاهٍ فيها الأواني النحاسية المصقولة والمقاعد المصنوعة من سعف

النخيل، وحوانيت صغيرة ملأى بالتوافه الأوروبية والشرقية. في كل مكان حرارة رطبة ورائحة سمك وغبار، وفي كل مكان جماهير من الناس، حجاج لا عدّ لهم ولا حصر في ثياب الإحرام، وأبناء جدة الذين اجتمعت في وجوههم وحركاتهم كل بلدان العالم المسلم، لربما أب من الهند في حين أن الجد للأم مزيج من أهل الملايو والعرب، وجَدّةٌ أبوها من تركستان وأمها من الصومال، آثار حية من قرون من الحج ومن بيئة الإسلام التي لاتعرف حواجز اللون ولا تعرف التمييز بين الأعراق، وبالاضافة إلى هذا التزاوج بين السكان المحليين ومن يقذف بهم الحج إلى الديار المقدسة فقد كانت(جدة) في (١٩٢٧) المدينة السّعودية الوحيدة التي كان يسمح لغير المسلمين أن يقيموا فيها. ولقد كان في استطاعتك أن ترى بين حين وآخر لوحات علقت فوق الحوانيت مكتوبة بلغات أوروبية وأناساً يرتدون اللباس الخفيف الأبيض وخوذات الشمس أو القبعات على رؤوسهم، والأعلام الأجنبية ترفرف فوق دور القناصل.

ولكن البيوت كانت متميزة بواجهاتها المزخرفة، ومشربياتها الخشبية المنقوشة وشرفاتها المحجبة بستائر خشيبة مشبّكة تمكّنُ السكان من رؤية الخارج وتمنع المارة من رؤية الداخل. كل هذه القطع الخشبية استقرت كوشي رمادي ضارب إلى الخضرة على أحجار وردية مرجانية.

إلا أن جزيرة العرب قد أظهرت نفسها من بعد بسمائها الفولاذية، وكثبانها الرملية العارية وتلالها الصخرية نحو الشرق، في تلك النفحة من العظمة وذلك الجدب العاري، اللذين يمتزجان دائما ذلك الامتزاج الغريب في جزيرة العرب.

وفي أصيل اليوم التالي سارت قافلتنا في طريق مكة، تتلوى بين جماهير الحجاج والبدو، والجمال التي تعلوها الهوادج، والحمير بحُلاها الزاهية . وكانت السيارات تمر بنا بين حين وآخر - سيارات جزيرة العرب الأولى - تحمل الحجاج وتزعق أبواقها مبددة صمت المكان. وقد بدا لي أن الإبل كانت شاعرة بأن السيارات عدوة لها، ذلك أنها كانت تجفل كلما اقتربت منها سيارة وتدير رؤوسها باحتدام وغيظ وتحرك أعناقها ذات اليمين وذات اليسار وقد بدا عليها الاضطراب واليأس. لقد كان هنالك زمن جديد يقترب مهدداً تلك الحيوانات الشامخة الصابرة.

وبعد هنيهة خلَفنا وراءنا أسوار (جدة) البيضاء، ووجدنا أنفسنا فجأة في الصحراء، في سهل عريض أشهب منقط بالشجيرات والحشائش، والتلال المنخفضة المعزولة التي كانت ترتفع منه كجزر في البحر، مصونة من الشرق بسلاسل صخرية أكثر ارتفاعاً بعض الشيء، جرداء لا أثر فيها لأي حياة، وفوق ذلك السهل المهيب كله كانت القوافل تشق طريقها بعناء وفي مواكب طويلة؛ مئات وألوف من الجمال واحداً بعد آخر في صف واحد، محملة بالهوادج والحجاج والأمتعة، تختفي أحياناً وراء التلال لتظهر مرة أخرى. وبصورة تدريجية التقت مسالكها في طريق رملي واحد اختطته قوافل مماثلة عبر قرون متطاولة.

وفي صمت الصحراء الذي كان يتخلله وقع أخفاف الإبل، ونداءات سائقيها البدو بين حين وآخر، والتلبية من هذا الحاج أوذاك، استحوذ عليّ شعور غريب إلى درجة استطيع معها أن أُسمّيه رؤيا؛ رأيت نفسي على جسر فوق لجة غير منظورة، جسر طويل جداً بحيث أن الطرف الذي بدأت مسيري منه قد غاب عن ناظري في الضباب البعيد، في حين أخذ طرفه الآخر يتبدى الآن لعيني، ووقفت في وسط الجسر، وتقلص فؤادي من الخوف عندما وجدت نفسي في منتصف الطريق بين طرفي الجسر بعيداً جداً عن الأول بحيث استحالت عليّ العودة إليه وغير قريب من الثاني إلى درجة كافية للوصول إليه، وخيل إليّ لثوان طويلة-أن عليّ أن أظلّ هكذا بين طرفي الجسر فوق اللجة الهادرة ، وعند ذلك انبعث من فم امرأة مصرية على المطية التي كانت أمام مطيتي صيحة الحج: (لبيك اللهم لبيك) وهكذا انقطعت الرؤيا.

كان معظم الحجاج يركبون الهوادج، هودجين على كل مطية، وكانت حركة المطايا المتأرجحة تصيب راكبها بالدّوار. وكان التعب يأخذ من أحدنا كل مأخذ فيغفو بضع لحظات ليصحو على رجة مفاجئة، ثم يغفو ثانية ليستيقظ كرة أخرى، ومن آن إلى آخر كان سائقوا الجمال، الذين كانوا يرافقون القافلة مشياً على الأقدام،ينادون حيواناتهم، أو يحدو أحدهم، بين الفينة والفينة، حداءً موقّعاً على خطوات المطايا الطويلة.

ووصلنا إلى (بَحْرَة) مع الصبح تقريباً، فتوقفت القافلة لقضاء النهار، ذلك أن الحر لم يكن يسمح بالمسير إلا أثناء الليل.

هذه القرية التي لم تكن في الحقيقة سوى صف مزدوج من الأكواخ والمقاهي، وبعض البيوت البسيطة المصنوعة من جذوع النخل، ومسجد صغير، كانت المكان الذي اعتادت القوافل أن تتوقف فيه إذ تقع في منتصف الطريق بين جدة ومكة.

منذ أن تركنا الساحل لم تتغيّر طبيعته الأرض؛ صحراء وتلال هنا وهناك، وجبال زرقاء في الشرق تفصل تهامة عن نجد. بيد أن كل تلك الصحراء من حولنا كانت أشبه الآن بمعسكر كبير جداً من الخيام والمطايا والهوادج التي لا عد لها ولا حصر، وخليط من اللغات المتعددة العربية والأوردية والفارسية والصومالية والتركية إلى غير ذلك من اللغات التي لا يحصيها إلا الله؛ مجموعة من الأمم تحولت بسبب لباس الاحرام ووحدة الهدف إلى أمة واحدة.

ولقد كان الحجاج متعبين بعد تلك الليلة التي قضوها في المسير. وكان السّفر مهمة غير عادية وكانت تلك الرحلة هي الأولى من نوعها في حياة أكثرهم. وأية رحلة، ونحو أي هدف؟ كان الحجاج في الخيمة المجاورة لخيمتي قادمين من قرية من قرى البنغال. لم ينطقوا بكلمة، بل جلسوا القرفصاء على الأرض وأخذوا يحدقون بعيون ثابتة الى الشرق، باتجاه مكة، إلى الصحراء التي كان يغمرها القيظ المتلألىء اللماع. كانت وجوههم تنطق بذلك الأمن الذي لا يجده الناس إلاّ في بيت الله الحرام. كان الرجال بارعي الحسن، تدلت شعورهم الطويلة على أكتافهم، ونبتت لحاهم السوداء اللامعة في وجوههم. كان أحدهم مريضاً مُمدّداً على بساط، وإلى جانبه جلست امرأتان يافعتان كانتا أشبه بطائرين صغيرين زاهي الألوان في سراويلهما الحمراء والزرقاء وقميصيهما المطرزين بالخيوط الفضية وضفائرهما الغليظة السوداء المتدلية فوق ظهريهما، وكانت صغراهما تحلّي أنفها بخاتم ذهبي رقيق.

وتوفي الرجل المريض بعد ظهر ذلك اليوم، فلم تصدر عن المرأتين ولولة واحدة لأن الإسلام يُحَرّم النياحة على الميت، وهذا الرجل قد مات وهو يؤدي فريضة الحج؛

فهو شهيد. وغسلوا الميّت الرجل ولفوه في لباس الأحرام نفسه الذي ارتداه الرجل آخر لحظة في حياته، ثم وقف أحدهم أمام الخيمة ونادى الناس للصلاة على الميت، وتجمع الناس من جميع الجهات بلباس الإحرام، ووقفوا في صفوف وراء الإمام كأنهم جنود جيش عظيم. وعندما فرغوا من الصلاة حفروا قبراً ثم غطوا بالرمل جثمان الحاج الميت بعد أن أرقدوه على جنبه، وأداروا وجهه نحو مكة.

وقبل شروق شمس اليوم التالي ضاق السهل الرملي وتقاربت التلال وعبرنا مضيقاً ورأينا على ضوء الفجر الشاحب أول بيوت مكة، ثم دخلناها مع شروق الشمس.

كانت البيوت تشبه بيوت جدّة بنوافذها وشرفاتها ولكن الحجارة التي بنيت منها كان يبدو أنها أثقل وزناً وأضخم حجماً من حجارة جدة المرجانية الخفيفة. كان الصباح باكراً ما يزال، ومع ذلك كانت الحرارة الشديدة آخذة في الإزدياد. وأمام الكثير من البيوت كانت هناك مقاعد يرقد عليها رجال متعبون، وأخذت الشوارع غير المرصوفة تضيق شيئاً فشيئاً، بينما كانت قافلتنا تتخطاها إلى وسط المدينة، وإذ لم يبق لبدء مناسك الحج إلا أيام معدودات، فقد كانت الجماهير غفيرة جداً في الشوارع. حجاج لا عد لهم ولا حصر بلباس الإحرام، وأخرون ارتدوا مؤقتاً ثيابهم العادية ثياباً من جميع أرجاء العالم المسلم، وسقاة منحنون فوق قِرَبِهم أو تحت نَيْرٍ تتدلى من طرفيه صفيحة وقود قديمة تستخدم لنقل الماء بدلاً من الدلو، وسائقوا حمير مع حميرهم ذات الأجراس الرنانة وسرجها البهيجة ومطايا قادمة من الجهة المقابلة محملة بالهوادج الفارغة. ولقد كان هنالك ضوضاء عظيمة في الشوارع الضيقة كأن الحج لم يكن شيئاً يحدث سنويا منذ قرون بل مفاجأة لم يكن الناس قد أعدوا لها عُدّتها، ولم تعد قافلتنا قافلة بمعنى الكلمة بل خليطاً مضطرباً من الإبل والهوادج والأمتعة، والحجاج، وسائقي الجمال، والضجيج.

وكنت قد أعددت أمر اقامتي في منزل مطوف معروف يدعى حسن إلا أنه بدا لي أنه لم يكن هنالك كبير أمل في العثور عليه وسط ذلك الجمع المضطرب؛ غير أن أحدهم صرخ فجأة: «حسن! أين انتم يا حسن»؟ وبإشارة مني انتصب أمامنا شاب حيّانا ورجانا أن نتبعه، فقد كان رسول مطوفنا ليأخذنا إلى منزله.

وبعد فطور سخي قدّمه إلينا المطوف، خرجت إلى المسجد الحرام، وكان دليلي إليه الشاب نفسه الذي استقبلنا من قبل، فمشينا خلال الشوارع المكتظة الصاخبة، ومررنا بحوانيت القصابين وقد عُلّقت أمامها صفوف الخرفان المسلوخة،وباعة الخضار وقد نشروا بضاعتهم فوق حصائر من قش فرشت على الأرض، وحوانيت باعة الثياب من كل نوع ولون. وكانت الحوانيت شأنهافي أسواق أخرى في آسيا الغربية وأفريقيا الشمالية كوى صغيرة ترتفع مقدار متر واحد عن أرض السوق، يجلس فيها صاحب الحانوت متربّعاً وقد أحاط نفسه بأكوام الأقمشة من مختلف الألوان، وتدلت فوق رأسه أصناف الألبسة لجميع أمم العالم المسلم.

وكان هناك أناس من جميع الأجناس والهيئات، بعضهم يلبسون العمائم وبعضهم مكشوفوا الرؤوس، بعضهم يمشون صامتين وقد أحنوا رؤوسهم، وغيرهم يهرولون بخفة بين الجماهير، صوماليون ذوو أجسام لدنة سمراء، تلمع كالنحاس من بين ثنايا أثوابهم الشبيهة بالأردية التي كان يشتمل بها الرومان واليونان، وعرب من نجد ذوو قامات مائلة ووجوه ضيقة وسمات شمّاء، وتركستانيّون مكتنزون غلاظ الأطراف من بخارى ظلوا يرتدون رغم هذا القيظ الشديد في مكة حللهم الثقيلة وأحذيتهم الجلدية الطويلة التي تبلغ الركبتين، وفتيات من (جاوا) لوزيات العيون غير متحجبات، ومراكشيون يخطرون ببطء واعتزاز في برانسهم البيضاء، ومصريّون بجلابيبهم المخطّطة تبرز على وجوههم آثار الحماسة،وهنود بأثوابهم البيضاء وعيونهم السوداء من تحت عمائم ضخمة بلون الثلج، وهنديات تغطي ألبستهن البيضاء أجسامهن تماماً فلا يمكن للنظر أن ينفذ إليها، وزنوج ضخام من (تومبو كتو) أو (داهومي) يرتدون ألبستهم النيلية ـ الزرقاء وقبعاتهم الحمراء، ونساء صينيات نحيلات البنية كالفراشات المطرزة، يمشين برشاقة على أقدام صغيرة، وضجيج وعجيج من كل جانب وسط أمواج من البشر.

كان كل شيء يموج وسط أزيز من لغات لا تحصى وحركات سريعة، إلى أن وجدنا أنفسنا فجأة أمام أحد أبواب المسجد الحرام.

رأيت لأول مرة داخل الحرم، الذي يقع تحت سطح الشارع، ساحة مربعة ضخمة يحيط بها من كل جانب أروقة ذات أعمدة وأقواس كثيرة، وفي وسطها بناء مكعب

يرتفع في السماء بضعة أمتار ، مكسو بقماش أسود له حاشية عريضة طرزت عليها بخيوط ذهبية اللون آيات من القرآن تحيط بالجزء العلوي من الغطاء؛ إنها الكعبة، بيت الله الأول والأعظم.

هذه إذن هي الكعبة التي كانت ولا تزال محطّ أشواق الأمم العظيمة من الناس منذ بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأمر الله تعالى ، إن حجاجاً لا يُحْصَون ولا يُعدّون قد بذلوا تضحيات عظيمة عبر العصور للوصول إلى هذه المحجّة؛ فمات الكثيرون منهم على الطريق وبلغها الكثيرون منهم بعد مشقة كبرىٰ وفي أعينهم جميعاً كان ذلك المبنى المربّع ذروة آمالهم وغاية أحلامهم، ليس من أجل التي لا تُحِسُّ ولا تَضرّ ولا تنفع، ولكن من أجل الله.

لقد سبق لي أن رأيت في بلدان مسلمة مساجد أخرجتها الزخرفة عن سنّة رسول الله ﷺ ، مساجد في أفريقيا الشمالية تتألق بالرخام والمرمر الأبيض، وقبة الصخرة التي كانت قبلة اليهود في القدس، ومساجد استانبول الفخمة، ومساجد الصفوية في إيران، روائع من حجارة زاهية ولبنات ملونة ، شغلت الناس بالفنّ عن الوحي.

كل هذه سبق أن رأيتها ولكن شعوري نحوها لم يكن قط قوياً كما كان الآن أمام مبنى الكعبة البسيط الذي هو على مثل ذلك القرب من أمر الله ومراده.

وقفت هناك أمام بيت الله الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل، وأخذت أنظر إليه مأخوذاً ببساطته دون تفكير، إذ أن الأفكار والخواطر جاءت بعد ذلك بوقت طويل، ومن صميمي طفحت سعادة كأنها تهليلة صامته.

كانت قطع الرخام الناعمة التي تتراقص عليها أشعة الشمس، تغطي الأرض في دائرة واسعة حول الكعبة، وفوق هذه القطع الرخامية طاف أناس كثيرون من الرجال والنساء حول بيت الله المكسوّ بالقماش الأسود، ومن بينهم كان أناس يبكون وآخرون يبتهلون إلى الله بالدعاء بأصوات خافتة، وآخرون لم يستطيعوا نطقاً ولا بكاء، وكان كل ما قدروا عليه أن يمشوا حوله طاعة لله واتّباعاً لسنة رسوله ﷺ .

إن جزءاً من فريضة الحج أن تطوف بالكعبة سبع مرات تنفيذاً لشريعة الله تعالى. وإنّ الكعبة هي رمز استحقاق الله تعالى وحده للعبادة، والمسلمون -بطوافهم حولها- يعلنون: أن أفكارنا ومشاعرنا وأقوالنا وأعمالنا وعلاقاتنا بالآخرين ووحدتنا بإخوتنا في الدّين؛ يجب أن تقيّد بإفراد الله بالعبادة واتباع سنّة رسوله ﷺ.

وتقدمت أنا أيضاً، وأصبحت جزءاً من ذلك السيل الدائر حول الكعبة، وكنت بين الفينة والأخرى أشعر بوجود رجل أو امرأة بقربي، كان هنالك زنجي ضخم الجثة بلباس الإحرام. ومشى إلى جانبي جاوي عجوز كانت ذراعاه مسترخيتين، كأنما كان يقول: «لا حول له ولا قوة لي إلا بالله». وخلف الطائفين امرأة هندية شابة كان مرضها واضحاً، وكان في وجهها الضيّق الدقيق حنين غريب مكشوف. وكانت يداها ممدودتين إلى الأعلى، وأصابعها ترتعش طالبة المغفرة من الله. وتابعت طوافي، ومرت الدقائق وأخذ كل ما كان تافهاً مُرّا في قلبي يزايل قلبي، وأصبحت جزءاً من حركة في مدار حول بيت الله الحرام طاعة لأمره وتنفيذاً لشرعه.

بعد تسعة أيام مات زوجتي (إلسا).

لقد ماتت فجأة، بعد مرض دام أقل من أسبوع وبدا أول الأمر وعكةً نشأت من القيظ والأطعمة التي لم تكن قد اعتادتها بعد، ولكنه تحوّل أوقف الأطباء السوريون في مستشفى مكة عاجزين ودفنت في مقبرة داخل حدود الحرم خارج مكة، لأن مقبرة مكة بالمعلاة تأثرت ببدع العثمانيين، ووضع حجر فوق قبرها لم يكتب عليه شيء، وفقاً لسنة رسول الله ﷺ.

وبقي معي أحمد ولدي الصغير من (إلسا) أكثر من سنة، وصحبني في أول رحلة لي إلى داخل جزيرة العرب، فكان رفيقاً شهماً في العاشرة من عمره. إلا أنه كان عليّ أن أودعه أيضاً بعد مضي وقت قصير، ذلك أن عائلة أمه اقنعتني أخيراً بوجوب إرساله إلى مدرسة في أوروبا، فلم يبق عندي من (إلسا) غير ذكراها وحجر في مقبرة (العدل)، وحزن لم ينقشع إلا بعد زمن طويل من استسلامي لمعانقة جزيرة العرب.

تقدم الليل، ولكننا ما زلنا جالسين حول بقايا النار. لقد هدأت ثورة أبي سعيد، وبدأت أمارات الحزن والتعب على عينيه، وكان يحدثنا عن (نورة) كما يتحدث المرء عن شخص عزيز عليه مات منذ زمن طويل.

وبقينا كذلك إلى أن خبت النار، ونام زيد وأبو سعيد بينما تمدّدتْ مطايانا الثلاث على الرمل مجترة ما في أجوافها بصوت ناعم، متمهلة بين الفينة والأخرى. إنها حيوانات طيبة.

ولم استطع أن أنام، ولذا أخذت أتمشى حتى ابتعدت عن رفاق السفر، وتسلقت أحدى الروابي القريبة، كان القمر على ارتفاع منخفض فوق الأفق الغربي، وكان يضيء التلال الصخرية المنتصبة كالأطياف من السهل الأجرد. من هنا تبدأ تهامة الحجاز الساحلية تسيل غرباً بانحدار سهل، سلسلة من الوديان يقطعها كثير من مجاري الجداول الجافة الملتوية، لا أثر فيها لأي حياة، خالية من القرى والبيوت والشجار، صارمة في ظلمتها تحت ضوء القمر. ومع ذلك فمن هذه الأرض اليباب الميتة، من وسط هذه الوديان الرملية والتلال الجرداء انبثق أعظم دين وبعث آخر نبيّ في تاريخ الإنسان.

وعلى مقربة من هنا يقع سهل عرفات، حيث يتجمع جميع الحجاج الذين يأتون إلى مكة في اليوم التاسع من آخر شهر في السنة كيما يذكروا الله ويتضرعوا إليه ليغفر لهم عندما يتعيّن على الإنسان أن يؤدي لخالقه في الآخرة حسابا عن كل ما أتاه في هذه الحياة الدنيا. كم وقفت هناك عاري الرأس في ثوب الإحرام، بين حشد من الحجيج جاءوا من أطراف الأرض مرتدين ثياب الاحرام عاري الرؤوس، نطلب جميعا رحمة الله وثوابه، حتى الغروب.

وإذ وقفت على رأس التلة أحدق إلى أسفل نحو سهل عرفات الغائب عن ناظري، شعرت كأن زرقة الأرض التي كانت ميتة منذ لحظة قد دبت فيها الحياة من جديد، بتلك التيارات من الأنفس البشرية التي مرت عبرها،وامتلأت بالأصوات واللغات

المختلفة تصدر عن الرجال والنساء الذي مشوا أو ركبوا ما بين مكة وعرفات منذ أمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحج. إن أصواتهم وخطواتهم تستيقظ وتسمع من جديد. إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون، كل تلك الأعداد من الحجاج عبر القرون. وإني أسمع أصوات أيامهم الماضية وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معاً إلى هذه الأرض الصخرية الرملية فينبض الموت الظاهر مرة أخرى بدفْ الحياة فوق قوس القرون، ويجذبني صفيق الجناح القوي إلى مداره، ويجذب ما تقضي من أيامي إلى الحاضر، ومرة أخرى أراني راكباً فوق سهل عرفات، راكباً في عَدْوٍ راعد فوق السهل، وسط ألوف وألوف من الناس في ثياب الإحرام، عائدين من عرفات إلى مكة، نقطة واحدة من تلك الموجة العارمة المزمجرة من الرجال والإبل لا عد لهم ولا حصر.

ونتابع ركوبنا غاذّين السير فوق السهل، ويخيل إليّ أننا طائرون مع الريح، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدوداً، وتزعق الريح في أذني ببشرى النصر: إنك لن تكون غريباً بعد الآن، أبداً، أبداً.

إخوان لي عن اليمين، وإخوان لي عن اليسار، كلهم لا أعرفهم ولكن أحداً منهم ليس غريباً عني، فنحن في فرحة تَسابُقِنا من مشعر إلى مشعر جسم واحد يسعى إلى هدف واحد، إن العالم أمامنا لفسيح، وفي قلوبنا تألّق الوهج الذي تألّق في قلوب صحابة النبي ﷺ. إنني وإخواني عن يميني وأخواني عن يساري قد قصّرنا في أداء عبادة الله على الوجه الذي يليق به سبحانه وتعالى (كما علمنا رسوله ﷺ)، ولكن مغفرة الله ورحمته أوسع وأعظم من ذنوبنا.

رائحة أجسام الإبل ولهثها، وزمجرتها، ودوي أخفافها التي لا عدّ لها ولا حصر. صياح الرجال، والغبار والعرق اللذان يعلوان الوجوه المهتاجة من حول وفجأة هدوء بهيج في فؤادي. وخلفي الجسر الذي جئت عليه؛ لقد خلّفته ورائي، وضاع أوّله في ضباب المسافات والأبعاد.

محتوى الكتاب